سَـبْعَة زِيـرُو

(7/0)

اسم الكتاب: سبعة زيرو

المؤلف: سراج منير

تصميم الغلاف: محمد عبد القوي مصيلحي

مراجعة لغوية وتنسيق داخلي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2014 / 19260

الترقيم الدولي: 978 _977_6471_ 36_8

مـــدير الـــنشـر	مـــدير التـوزيع
فـتحي المزين	**منال المزين**
01282288058	01270982908



العنوان: 6 **شارع التحرير بالدقي، بجوار محطة مترو البحوث، الدور** 19**، شقة رقم**2002.

البريدالإلكتروني:

layanpub@gmail.coml-layanpub@yahoo.com

سَــبْعَـة زِيــــرُو

(7/0)

رواية

ســراج منيـر



إهـداء

إلى أبي - الغائب الحاضر - الذي كانت حياته قصيدة طويلة من الكفاح أستلهم منها كل ما أفعله في حياتي..

إلى واحة روحي وملاذ أحلامي.. زوجتي الحبيبة..

إلى والدتي الغالية وإخوتي أشقاء روحي

إلى أصدقائي الأعزاء من دفعتي دفعة 2001 طب الأزهر وإلى صديقي الشاعر والأديب الرائع محمد أبوزيد..

لولا دعمكم لما خرجت هذه الرواية إلى النور..

وإلى كل العاملين بالطب والتمريض في مصر.. فيكم ما في غيركم من هموم وعيوب وميزات لكنكم تخدمون مرضاكم في أحلك الظروف وتحت تهديدٍ مستمر..

إليكم جميعًا أُهدِي هذا العمل

الكذبة تريح أكثر من الشك، تفيد أكثر من الحب وتدوم أكثر من الحقيقة.

جابرييل جارسيا ماركيز

- 1 -

- والنبي يا دكتور إبراهيم بلاش غيار النهارده.

- بطّلي دلع يا« رنا» خلاص هانت وقربتي تخفّي.

- طب بالرّاحة، أنا عارفه انك حنيّن وإيدك خفيفة.

- فكي الغيار يا «منى» يلّا.

كان هذا هو الحوار المعتاد بين «إبراهيم» طبيب جراحة التجميل ومريضته رنا الطالبة الجامعية التي احترق فخذاها بسبب "حلّة سمنة بلدي مقدوحة" كما تحكي.. وبينما تقوم الممرضة منى بفك الأربطة الخارجية، أمسك هاتفه الذكي وفتح الفيس بوك. اتسعت ابتسامته حين رأى النقطة الخضراء أمام صورة البروفايل المحببة له، وكتب سريعًا:

- وحشتيني.

- وانت أكتر يا عمري.

- معايا حالة هخلّص غيارها واكلمك.

- خد وقتك، مستنياك.

أنهى محادثته معها ثم التفت إلى مريضته ليكمل إزالة الغيار القديم من على جروحها.

- شكلك كنت بتعمل تشات مع حد.

-ملكيش دعوة يا حشرية.

- طب وحياة اللي كنت بتكلمها تخف إيدك.

- مدام حلفتيني بالغالية.. حاضر.

بدأ في تجاذب الحديث معها حتى يلهيها عن الألم الذي يسببه لها أثناء تنظيفه للجروح، وهي طريقة علمية لتقليل الألم عن طريق إلهاء المريض "distraction analgesia" .

طريقة إبراهيم في التبسط مع مرضاه والحديث معهم بودٍّ كانت غالبًا ما تجلب عليه تأنيب رئيسه المباشر «حامد» وهو الطبيب الأقدم منه في العمل أو كما يسمونه (النائب السنيور). قاطعته المريضة رنا وهو يتكلم قائلة:

- متغيَّرش الموضوع يا دكتور هتعزمنا على الخطوبة إمتى.

لا يعلم كيف يجيبها فعلاقته أبسط من ذلك وأشد تعقيدًا في الوقت ذاته، هو يحب «عُلا» كما لم يحب أحدًا من قبل، لكنهما يبحران معًا في ذلك اليمّ دون البحث عن مَرسى.

بدأت علاقته ب«عُلا» عندما كانت مع والدتها في المستشفى الخاص الذي يعمل به، جذبته عفويتها ورقتها، تبادلا معًا القليل من الحديث ثم غادرت إلى أن وجدها صدفة على الفيس بوك ودون أن يحسب حسابًا أرسل لها طلب صداقة قبلته هي على الفور.

بدأ حبهما في العالم الافتراضي، كانا يتحدثان طول اليوم تقريبًا على الفيس بوك، وكانا كما يقول الشاعر (كلما حدَّث أصغَتْ وإذا قالت ترنح) كانت تعيش معه بين المرضى ومع النوَّاب، تحس بهمه وإحباطاته وانتصاراته في مغامرته اليوميه داخل المستشفى.

يعيش هو معها أحداث يومها بين عملها في هيئة الطاقة الذَّريَّة ودراسة الماجستير، وبين النادي ومع ولديها التوأم.

- اااااه.. الحتة دي بتوجع يا دكتور.. بالرااااحة.

- معلش.. هاتي يا منى حتة شاش مبلولة بمحلول ملح وحطيها على الحتة اللي بتجيب دم.

ليست "شيزوفرانيا" أن يعيش رومانسيته وسط مرضاه، فتلك طبيعة حياته. من أول ما رآها ولاحظ أن خلف ابتسامتها المذهلة يكمن مخزون من الأحزان اتضح له أسبابه حين اقتربا أكثر.

هي من أسرة غنية ووالدها دبلوماسي، وتزوجت شابًا مصريًا يحمل الجنسية البريطانية زواجًا تقليديًا جدًا؛ فقد نزل إلى مصر وبحث عن عروس من عائلة محترمة وهي لم تجد بدًا من الموافقة؛ فقد كان وسيمًا ومرحًا إلى جانب أنها كانت تحلم دومًا بالخروج من مصر.. أقنعت نفسها به رغم ما رأته من انغلاق تفكيره الذي يناقض تمامًا البلد الذي يعيش به.

ما إن وصلت مع زوجها إلى إنجلترا حتى أبصرت جحيمها الشخصي معه ومع أمه التي تعيش معهما.. كان لا يكف عن إهانتها وإذلالها. تحملته عامًا كاملا إلى أن تشاجرا في ليلة انتهت بلطمة تلقتها على وجهها، أصرت

على أن يطلّقها ويرسلها لمصر أو تشتكيه للشرطة.. وافق لكنه أقسم أنها لو تزوجت سيحرمها من توأمها الذي لم يكن قد وُلِدَ بَعد.

" متقلقش، أنا كرهت الرجالة وعمري ما هعملها تاني".

كان ذلك آخر ردها على طليقها قبل أن تعود إلى مصر

إبراهيم كان مذهولاً وهي تحكي له تفاصيل ما كان يفعله بها زوجها السابق، وقارن بينها وبين ما يعرفه من عنفٍ أسري تتعرض له عدة ممرضات يعملن معه في القسم وحدَّث نفسه أن الجهل واحد ولا علاقة له بمال ولا تعليم. قد تختلف النساء في مصر في ملبسهن من أزقة العتبة أو من المولات الفاخرة لكنهن يشتركن في نفس الهم من اعتماد مسار حياتهن على الرجل؛ إن صلح صلحت وإن فسد فسدت.

- خلاص خلَّصنا غيار يا لمضة.

- شكرًا يا دكتور.. على فكرة رسمتلكوا صورة وانتوا بتغيرولي وهنزلها ع الفيس.. ماما ورّي الصورة لدكتور إبراهيم.

ناولته أمها الرسمة.. كانت فتاة موهوبة فعلاً، رسمت كل تفاصيل غرفة الغيار وهو وزميليه واقفان وحامد متجهم كالعادة، وكتبت أعلى الصورة "حجرة العذاب القاتل". صورة تحمل الكثير من المعاني وترسم ملامح آلام وعذابات لا يستطيع البكاء أو الصراخ أثناء الغيار أن يقولها. سألها قائلًا:

- ممكن احتفظ بيها؟

- ماشي يا دكتور بس متضيعهاش.

أخذ الصورة معه وهمَّ بعرضها على حامد ثم تراجع ثانية لأنه يريد الاستئذان منه للخروج ويعلم أن الصورة ستغضبه وقد لا يوافق. ذهب إليه مترددًا ليستأذنه:

- د. حامد، بعد إذنك عاوز اخرج ساعتين كده.

- تخرج تعمل ايه؟

- رأس السنة بقى وولاد عمتي عازميني في مركبة.

- ماشي بس تشيل نبطشية الخميس بدال النهارده.

- دول ساعتين بس.. هشيل بدالهم يوم بحاله؟؟

- هو كده.. انجز موافق ولّا لأ.

- طيب دقيقتين وارد عليك.

خرج من عنده ثم أمسك هاتفه وكتب لعُلا:

- تيجي نخرج عشان نبقى قضينا السنتين مع بعض؟

- والله كنت هقولك بس انت نبطشي.

- استأذنت خلاص وهخش على النت كده أنقيلنا مكان حلو.. ماشي؟؟

- ماشي وانا ساعة واكون عندك.

أخذ نفسًا عميقًا في ارتياح فقد صارا يفهمان بعضهما من أقل الكلام بل ويفكران كثيرًا في ذات الشي في الوقت نفسه.

- خلاص يا باشا هخرج.. شوفلي معاك متين جنيه سلف.

- كمان، يعني لسه متجوزتش وبتستلف.. إمسك.

- شكرًا.

- طبعاً أنا مش واكل معايا موضوع ولاد عمتك ده.. يللا اياكش تكون حلوة بس، أصلي عارف ذوقك.

يعتقد دومًا أن الجمال نسبي، ولكنه معها أرسى قواعد جديدة للجمال؛ فاللون العسلي صار أجمل لون في العيون، وقوامها صار هو المقياس عنده كعاشق (رغم أنه قد يحتاج للكثير من التعديلات من وجهة نظره كجرَّاح تجميل) أما شفتاها الصغيرتان الرفيعتان فقد جعلاه يعتقد جزمًا أن حقن الكولاجين لتكبير الشفتين هو ضرب من الجنون.

ومع قصة حياة كتلك التي روتها له، كان أصعب قرار في علاقته معها أن يصارحها بحبه لينقل العلاقة من خانة الصداقة إلى رحابة الحب. ابتكر حيلة عبَّر بها عن كل ما يدور بداخله فاقترح عليها ذات يوم أن يتحادثا وتتقمص هي دور "سنو وايت" وهو الأمير "شارمينج"، وقد تواجدا في زمن الفيس بوك، ونجحت حيلته فكان يكتب لها كل ما في قلبه مدعيًا أنه يمثل.. شيئًا فشيئًا انتقلا معًا من متقمصين لدور العاشقين إلى عاشقين حتى الثمالة ثم انتقلت لقاءاتهما من العالم الافتراضي إلى الواقع.

بينما هو منصرف في طريقه، وجد حامد يناديه ثانية:

- إبراهيم.. فيه عيان متعور في جفنه في الاستقبال ابقى خيَّطه وانت نازل.

- هتأخر كده على معادي يا دكتور حامد.

- مش كفاية رايح تتفسح واحنا هنشيل شغلك.

لم يكمل معه ذلك النقاش بل تركه ومضى مسرعًا إلى الاستقبال، كان الجرح كبيرًا وعميقًا ويستلزم وقتا لإصلاحه. وجَّه كلامه للممرِّض الموجود قائلاً:

- اطلع العمليات هاتلي آلات تجميل وخيَّط برولّين سبعة زيرو.

- بس ده رفيع أوي يا باشا ده احنا مبنشوفهوش.. مش هعرف اساعدك كده.

- خلاص هات ممرضة عمليات التجميل معاك وانت جاي.

استغل الوقت الذي سينتظر فيه إحضار الأدوات اللازمة لخياطة الجرح في الكتابة لعُلا:

- معلش هتأخر شوية.

- خد وقتك، أنا مستنياك في الباركنج اللي قدام المستشفى.. قررت هنروح فين؟

- خليها مفاجأة سلام دلوقتي.

أغلق معها وصوت المريض يعلو معترضًا وهو يقول:

- ما تخلصونا بقه يا مشتشفى بنت...

- اهدى يا ابني ومتغلطش.. بيصرفولك خيط من بتاع العمليات ولا اخيطهالك بخيط من اللي هنا اللي بيخيطوا بيه الرجول.

لم يكن رد إبراهيم كافيًا للمريض فأمعن في الاعتراض بشكل مستفز وحاول إبراهيم الحفاظ على هدوء أعصابه؛ فقد اعتاد هو وزملاؤه على

مثل تلك السخافات، وتصادف وجود مدير الاستقبال الذي لم يعجبه تطاول المريض فاستدعى أمين الشرطة الموجود بالمستشفى وقال بحزم:

- بعد ما د. إبراهيم يخلّص تاخد الأستاذ ده عند الظابط وتعملّه محضر.

كان هذا موقفًا استثنائيًا نظرًا لأن المعتاد منذ فتره هو أن يبتلع الطبيب هذا الموقف وإلا تفاقم الأمر وتدخَّل كل من يريد أن يجامل هذا المريض بالاعتداء على الاستقبال ومن فيه، ولكن لأن المدير النوبتجي ذلك اليوم كان من ذوي النفوذ والعلاقات فمن المؤكد أن الضابط وأمين الشرطة سيقومان بعملهما على أكمل وجه.

وبينما بدأ إبراهيم بخياطة الجرح همس أحد أقرباء المريض بأذنه مترجيًا أن يقوم بعمل اللازم وألا تستفزه قلة أدب ذلك الفتى فلا يخيطه بالشكل المناسب.

- ما تقلقش يا حاج هو هياخد حقه وانا هاخد حقي.

أخذ وقتًا طويلًا في خياطة الجرح بعناية فائقة، وعندما انتهى فوجىء بقريب المريض يقبِّل رأسه قائلاً:

- والله انت كده شيّلتنا العيبة، والواد ابن الكلب ده هيتربى تسلم إيدك ومتشكرين.

- الله يخليك، أنا ما عملتش غير شغلي بس المحضر كده كده هيمشي.

- والله أنا اللي هعملّه محضر لو انت اتنازلت.. متشكرين يا باشا.

أنهى كتابة العلاج للمريض، وفي طريقه للخروج، قابله أمين الشرطة وأخبره أن والد المريض يريد الاعتذار له ويرجوه أن يتنازل عن المحضر .

- قولّه ان أنا مشيت، وخده للظابط يدلّعه شوية، وبعدين قولّه انكم كلمتوني وانا قلتلكوا خلاص.. ماشي ؟؟

- عنينا يا دكتور بالسلامة.

خرج مهرولاً باتجاه الباركينج ونبضاته تتسارع حتى رآها في السياره تشير له بابتسامة عريضة، ركب جوارها وسلَّم عليها ولثم كفها وهو يتأملها، كانت أكثر من رائعة.

- الجاكيت راجع لورا ومبين حتة من كتفك على فكرة.

- اسمه بوليرو يا حبيبي، وبعدين متخليك فريش، إحنا ليلة رأس السنة.

- بولير إيه ياختي.. مخدناهوش في محلة أبو علي ده المهم انه كاشف.

- ههههههه بموت فيك.. هنروح فين مقلتش؟

- نايل افينيوز عاملين حفلة جميلة وسعرها حلو.

- طب ما تخليها عليَّا المرة دي.. وحياتي؟

- انتي عارفة اني مش هوافق، وبعدين الواحد 250 جنيه مش قصة.. يللا اطلعي عشان نلحق.

- طب امسك هدية السنة الجديدة يا رب تعجبك.

ناولته كوفية صوفية، قلّبها في يده قبل أن تلفها حول رقبته وتعقدها بطريقه أشبه بربطة العنق.

- حلوة أوي تسلم إيدك.

"صافيةً أراكِ يا حبيبتي كأنما كَبُرْتِ خارجَ الزَمن

وحينما التقينا يا حبيبتي أيقنتُ أننا

مفترقانْ

وأنني سوف أظلّ واقفًا بلا مكانْ"

رنت أبيات "صلاح عبد الصبور" في رأسه لتذكِّره بمخاوفه من المستقبل لكنه نفضها عن رأسه وأخذ يحكي لها عمَّا حدث في الاستقبال مطعمًا قصته بسخريته التي تجعلها تضحك بطريقة تفتح في قلبه مائة نبع للسعادة.

ما إن وصلا حتى أخذها الطراز العربي القديم للمكان والزخارف الجميلة وأخذا يلتقطان الصور في جنبات المكان.

- حاسه انى في كتاب ألف ليلة وليلة.

ابتسم بخبث وهو يقول:

متأكدة ألف ليلة وليلة؟ مهو مكانش عاجبك.

- مقصدتش اللي في دماغك يا نوتي.. بوَّظت فكرتي عن قصص الطفولة منك لله.

اعتدل في جلسته وتقمص دور الراوي في الحكايات القديمة وهو يقول:

- الطفولة يا سيدتي هي تبسيط لحقائق الحياة المعقدة؛ فكلما تفتحت عينك على الدنيا أكثر تعقدت تلك البساطة.

- ماشي يا أرسطو، تعالى ناخد صورة بالزعابيط بتاعة رأس السنة.

اعترض عليها بشدة مؤكدًا أن لبس هذه الأشياء لا يتفق مع كونه طبيبًا وكونها باحثة في الفيزياء النووية، ولكنه استسلم لإلحاحها. وبعد أن التقطت الصورة، نظر إلى شاشة هاتفها وهو يقول:

- شكلنا عيال في ثانوي.

- ما هو أنا معاك بحس اني رجعت بنت في ثانوي.. بحِس اني بحبك الحب المراهق البسيط اللي مبيفكرش في بكرة.. بحس انك رجّعتلي كل السنين اللي راحت مني.

قالتها وهي تضع رأسها على كتفه وتلتقط صورة "سيلفي" أخرى، ثم قالت وهي تغمز بعينها:

- فيه سيلفى تانية هناخدها الساعة اتناشر.

- ههههههههه تحت أمرك يا ست الحسن.. يللا ناكل عشان جعت.

- يا لروعة رومانسية الكباب والريش.

- ما هو أنا مينفعش ادخل 2014 وانا جعان.

بدأت الفرقة الموسيقية بتقديم فقراتها ومضت الليلة بهما وهي تتقافز (حرفيًا) من الفرحة وهو معها لا يقلل من بهجته إلا وجود صلاح عبد الصبور في الخلفية:

" لو أننا

لو أننا، وآه من قسوة " لو"

يا فتنتي، إذا فتحنا بالمنى كلامَنا"

يعشق بساطتها وانطلاقها، ينسى معها نفسه ويحطم معها كل التعقيدات التي يحيطها بسلوكه وبكلامه يعود معها فعلاً إلى "عيل في ثانوي" كما تقول. لو حكى له أحد أنه سيذهب إلى حديقة ويرسم قلبًا وحرفين على إحدى شجراتها كالمراهقين لسخر منه.. يعيش معها السعادة بكل كيانه، لكن إحساسه الدائم بأنه قد يفقدها يمزقه نصفين.

بعد انتصاف الليل، بدأ المطرب يتجول بعوده بين الطاولات ووقف عندهما وغنى لهما قليلاً، وبالطبع تظاهر إبراهيم بأنه (من بنها) ولم يعطه شيئًا رغم أنه تردد ولاحظت هي تردده فقالت له: "كبَّر دماغك دول بيدوا فلوس عشان يتباهوا على بعض".

ابتسم ابتسامة عريضة.. كانت عُلا على انطلاقها حكيمة وغير مسرفة وكثيرًا ما رفعت عنه حرج الاعتذار عن الذهاب لمكان مرتفع الثمن أو حين يسأل عن سعر شيء يصلح هدية لها ويجده غاليًا فتقسم هي ألا يشتري شيئًا وتؤكد له أنهم لصوص.

كانت أيضًا أمًّا ممتازة تهتم بأدق التفاصيل في تربية ولديها وتخطط جيدًا لتعليمهما والرياضات التي سيتدربان عليها في المستقبل، ورغم أنها استأجرت خادمة لهما إلا أنها لا تسمح لها بحمل أحدهما لوقت طويل أو الإفراط في مداعبته حتى لا تنقسم عاطفة البنوة لدى الطفل.

انتهى أول لقاء لهما في عام 2014 بعد أن فاقت حلاوته كل توقعاته. أوصلته للمستشفى وقبل أن ينزل من سيارتها طبع قُبلة على كفها، فقالت:

- قضيت معاك أجمل ليلة رأس سنة في عمري.

- وانا كمان بس لسه ورايا شغل للفجر.

- هفضل صاحية معاك ع الفيس.

- ماشي سلام.

*   *   *

- 2 -

إبراهيم يعمل طبيبًا مقيمًا (نائبًا) في قسم جراحة التجميل في مستشفى النصر الجامعي. الطبيب المقيم (أو النائب) هو أول درجات العمل التخصصي في مجال الطب؛ فيعتبر متدربًا في تخصصه إلى جانب أنه يحمل على عاتقه عبء رعاية المرضى المحجوزين بالمستشفى على مدار اليوم، إضافة إلى استقبال الحالات الطارئة وحالات العيادات الخارجية ومسئولاً عن الأعمال الورقية.. إلخ.

يزيد على ذلك النظام شِبه العسكري في المستشفيات الجامعية، فالنائب الأحدث أو النائب الجنيور (مثل إبراهيم وزميله ودفعته محمد) ملتزم بالطاعة الكاملة للنائب الأقدم أوالسنيور (مثل حامد الذي يكبرهما بعام).أما النائب السنيور فعليه تعليم الجنيور أساسيات عمله وأساسيات الجراحة.

ولأن مستشفى النصر مستشفى جامعي تابع لكلية الطب، فإن درجات الأطباء في المستشفى يشغلها أعضاء هيئة التدريس ومعاونوهم من الكلية. فالنائب يرأسه مباشرة المدرس المساعد (وهو يماثل الأخصائي في المستشفيات الأخرى) ثم المدرسين (وهم الأطباء الاستشاريين) ثم يأتي الأساتذة على قمة الهرم.

اليوم كانت النوبتجية تجمع إبراهيم ومحمد معًا كالعادة (كنوَّاب جناير) ومعهما حامد (كنائب سنيور) يأمر فيُطَاع. كان إبراهيم يقوم بعمله المعتاد في رعاية المرضى.

"إحزق يا عم مينا"..

قالها إبراهيم بلهجة من يساعد امرأة على الولادة وهو في هذه اللحظة كان يساعد "عم مينا " على التخلص من انسداد شرجي، وبعد أن انتهى أخذ الرجل يدعو له بسيل من الدعوات التي يحفظها المصريون عن ظهر قلب.

"وما دعاء الكافرين إلا في ضلال"..

قالها له محمد زميله اللدود معقبًا على دعوات مينا المريض المسيحي الديانة، فنظر إليه بغيظ ولم يعلق لأنه يعرف أن نقاشاتهما تنتهي دومًا إلى طريق مسدود، وقال لنفسه إن الله يقبل دعوة المظلوم أيًا كان فلِمَ لا يقبل دعوة رجل ساعدتُه في محنة، ثم أن الآية القرآنية في موقف القيامة ولا تقاس على هذا الموقف ثم وجد نفسه يقول:

- هتفضل طول عمرك سطحي.

- سيبنالك العمق يا عم الليبرالي.

- طيب روح يلّا شوف دكاترة التخدير.. بدل ما حامد ينزل وميلاقيهومش ويظبّطنا احنا الاتنين.

بعد أن انتهى إبراهيم من رعاية مريضه ذهب إلى مكتب الأطباء ليكمل أعماله الورقية في ملفات المرضى وهي تستهلك أكثر من نصف مجهوده اليومي.

"ممكن كلمة يا دكتور؟"

كانت «أم هالة» التي تجالس طفلتها المحجوزه بوحدة الحروق وهي امرأة لم يعطها الزمان حظًا من أي شيء ولذا كانت دومًا تثير شفقته أكثر من ابنتها المريضة.

- خير.. عاوزة إيه؟

رده الجاف هذا رغم تعاطفه معها كان محاولة لاتباع تلك القاعدة الصارمة التي يفرضها عليهم حامد النائب السنيور الذي كان دائم التأكيد على أنك لو عاملت العيانين والمرافقين بودٍّ سوف يستهلكونك في لحظات. قاعدته الأساسية دومًا "اخدم العيان بضمير بس ما تخليهوش يسمَّعك حِسّه".

- أنا بس عاوزة حضرتك توصي الدكتور حامد يعاملنا كويس زي ما انت بتعاملنا.. هو ليه بيعمل فينا، كده ما حضرتك بتعاملنا بمنتهى الطيبة ودكتور محمد كويس برضه، ‘نما هو بيعاملنا زي ما نكون بنشتغل عنده.

نظر إليها بابتسامة ودودة وقال لها:

- حاضر يا أم هالة.

أردفت قائلة:

- انتوا من بلد واحدة صحيح بس زي ما بيقولوا البطن قلّابة، وانت كمان والله اشطر منه.

قلب سحنته وقال لها متصنعًا الغضب:

- خلاص يا وليّة انتي متكتريش في الكلام وروحي على سريرك.

بعد أن غادرت ابتسم لنفسه بعد أن أرضت كلماتها كبرياءه الذي يمسح به حامد بلاط القسم يوميًا، سرح ببصره للحظات ثم أمسك هاتفه الذكي وكتب على صفحته على الفيس بوك:

"هل تكون أخلاقنا الطيبة مثارًا للفخر والتعالي أم أنها هبة من الله لا يجب أن ندعي فضلاً فيها؟ هل هي حقًا اختيارنا أم أننا جُبِلنا عليها.. إن الشخص يكون حسن الخلق ورفيع السلوك نتيجه جيناته أولاً وتربيته ثانيًا فلا خيار له في خُلقه ولا فضل".

نظر "للبوست" وهو يحس بفلسفته التي طفحت على الصفحة ثم اصفرَّ وجهه حين رأى التعليق "الحالة نامت وحامد هنا يا عم العميق، تعالى بقه وريّه الفلسفة هههههه".

* * *

- 3 -

- نوَّرت يا فيلسوف الغبرة.. لسه جاي؟

قالها حامد (النائب السنيور) بجدية وهو يخاطب إبراهيم نائبه الجنيور، قالها بطريقة جعلت وجه إبراهيم يتفصد عرقًا وهو يعتذر قائلاً:

- معلش اصلي كنت بكمّل كتابة التذاكر.

هزَّ حامد رأسه وهو غير مقتنع بحجته وبالطبع أصدر حكمه السريع بأنه لن يدخل إلى الجراحة التي وعده بأن يتركه يقوم بإجرائها منفردًا تحت إشرافه واستبدله بزميله.. وهي الطريقه المعتادة لعقاب الأطباء الأصغر.

النائب الجنيور (مثل إبراهيم ومحمد) يقوم بكم من العمل يفوق طاقة أي شخص على التحمل ولا يشجعه على ذلك إلا أنه يأخذ فرصة في تعلُّم جراحات كثيرة في سن مبكرة، ولذلك حين تساعده في أن يقوم منفردًا بإجراء جراحة جديدة عليه فأنت كمن يعطي قطعة سكّر لحصان أرهقتَه في صعود منحدر طويل.

بعد ذلك قال له متصنعًا الرفق:

- أنا برضه هستجدع معاك.. دخَّل حالة قطع الأوتار في الأوضة التانية واشتغلها.. ببنج موضعي.

بالطبع هو يعلم أنها حالة بسيطة وأن إبراهيم أجراها عدة مرات وحده، وأنها لا توازي حالة قطع الرسغ التي (يشتهيها) النواب في مرحلته تلك والتي حرمه منها للتو.

انصرف إبراهيم ليقوم بما كلفه به وبقى هو في المكتب وحيدًا، كان يحس بضيق شديد من هذين النائبين الجنيور؛ فالأول إبراهيم يعيش في دور المثقف والرومانسي الحالم وصاحب القلب الحنون الذي يحتوي المرضى والمعذبين وكثيرًا ما ينسى الأعمال التي يكلفه بها والثاني محمد، "فهلوي" أكثر من اللزوم ومتملق يحاول تجاوزه والتحدث مباشرة للمدرسين والأساتذة.

تذكر أول أيامه في قسم جراحة التجميل منذ ثلاث سنوات تقريبًا. كانت صدمته الأولى حينما مرَّ على عنابر المرضى فقد اختار هذا التخصص وهو يمنّي نفسه بعمل خفيف وممتع وبجراحات مثل شفط الدهون ونفخ الأثداء بالسيليكون وغيره، لكنه وجد القسم ممتلئًا بمرضى من نوعية أخرى.

مرضى الحروق على سبيل المثال حدِّث عنهم ولا حرج، يحتاج المريض إلى مجهود أشبه برعاية عشرة مرضى في نفس الوقت. إضافة إلى مرضى إصابات اليد وحوادث الطلق الناري والقروح المزمنة والعيوب الخلقية و.. و.. و.

تسلَّم عمله في إبريل **2010**، وكان عمله وهو نائب جنيور لا يسمح له بالنوم يوميًا أكثر من أربع أو خمس ساعات ولا يذهب إلى منزله إلا خميس وجمعة كل أسبوعي،ن وذات مرة تم عقابه بالحرمان من إجازته لخطأ تافه فبقى في المستشفى شهرًا متواصلاً.

الآن وهو في أول أيام **2014** يوشك على إنهاء فترة نيابته بعد أن اقترب من إتمام سنواته الثلاث كنائب في القسم، إضافة إلى عام قضاه في التجنيد بدأه بعد ستة أشهر من بداية نيابته.

"إيه يا معلم مكشر ليه؟"

كان زميله نائب التخدير يسأله عندما رأى تجهمه وأكمل أكمل كلامه:

- إيه يا عم نيمتلك الحالة رغم انها كان ممكن تخلص ببنج موضعي.

- هتستعبط، مش كفاية خليت الواد يشتغل التانية ببنج موضعي عاوزنا نشتغل قطع في الرسغ هيتصلح فيها شريان وعصب وست أوتار ببنج موضعي يا كافر.

ضحك بصوت عالٍ قبل أن يعيد سؤاله:

- لا صحيح إيه اللي مضايقك؟

- مفيش عندي جوز جناير عاوزين الحرق ومش مهنيين الواحد على خروجه.. الواحد كان فاكر نفسه هيرتاح طلع بيشيل من وراهم خوازيق للركب.

- ازاي يعني؟

- كل يوم الاقي مدرس مساعد ولّا أستاذ يناديلي ويبهدلني بسبب غلطة يكون حد فيهم عملها.

رنَّ ساعتها صوت تنبيه هاتفه الذكي مخبرًا برسالة فقام زميله قائلاً:

- أسيبك مع الواتس آب.. عيش يا عم وبلاش احنا.

فتح جهازه ورأى رسالة من دعاء الممرضة التي تعمل معه في مستشفى ابن رشد وهو مستشفى خاص يبيت فيه مرتين أسبوعيًا حين لا يكون نوبتجيًا في المستشفى الجامعي.

- مين يا سيدي الحلوة اللي كانت قاعدة معاك امبارح؟

- إنتي مال أهلك.

- بالراحة طيب.. معرفش إيه اللي ضايقني لما لقيتك بتضحك معاها.

- بقولك إيه مش عايز هطل، أنا وافقت نبقى اصحاب عشان اساعدك تبعدي عن الحمار بتاعك مش عشان تقرفي أهلي.

- طب آسفة.

- ما تتأسفيليش.. هو انتي هتفضلي هايفة كده وشخصيتك ضعيفة لحد امتى.

- مالك بس؟

- أهي هيافتك دي اللي بتخليه يبيع ويشتري فيكي براحته.. اقفلي دلوقتي عندي شغل.

لا يعلم سبب ثورته عليها على وجه التحديد.. حقا هو يمقت ضعفها المثير للغيظ أكثر من إثارته للشفقة. دعاء ذات ال27 عامًا والتي صارت أرملة منذ أن كانت في العشرين بعد أن مات زوجها سائق الميكروباص في حادث على الصحراوي.

ابتلاها الله بعدها برجل سيطر عليها تمامًا.. قصة حبهما تخلو من أي منطق؛ هو يكبرها بثلاثين عامًا ومتزوج.. يستغل حبها له بكل الطرق ولا يعدها بأي شيء وهي متمسكة به وكلما تركها كانت هي التي تسعى إليه.

كان الرجل اسمه عادل وكان من ضمن الشركاء المالكين لمستشفى ابن رشد الخاص الذي يذهب إليه حامد وتعمل به دعاء.. رجل واسع الثراء وطبيب باطني مشهور وجد فتاة شابة ذات قوام مغرٍ ينبئ بمذاق حرّيف يفتقده رجل في مثل سنه، رمى حباله حولها وأقنعها أنه يحبها فأسلمت له قيادها.

حار كثيرًا في فَهم قصتها وسبب حبها الشديد له ورضاها بأن تكون على هامش حياته في الوقت الذي تدور هي في فلكه.. هل السبب هو تلك الصدمة الاجتماعية التي عاشت فيها من مصاحبتها له وهو الطبيب الغني ذو السيارة الفارهة؟ وهل تخيلت نفسها تلك الفتاة الفقيرة التي ينتشلها الأمير وينقلها من الحضيض للقصور.. هل لأنها فقدت أباها منذ طفولتها وترى فيه الأب قبل الحبيب؟ أم لأنها لا ترى لنفسها حظوظًا في الرجال ثانية لأنها أرملة.. كل هذه المبررات في نظره لا تبيح لها كل ذلك الضعف والخضوع.

هل قَبِلَ هو أن يساعدها وأن يخرج معها ليسري عنها لأنها حقًا تثير شفقته أم أنه يمنّي نفسه بنيل نصيب من أنوثتها الفائرة.. ربما السببان معًا؛ فهو ليس ملاكًا لكنه يحزن من أجلها كثيرًا ويتمنى أن تخرج من تلك الدوامة.

خرج من أفكاره وقام ليتابع النائبين الجنيورين في عمليتيهما. دخل على محمد ووجده قد أوشك على إنهاء توصيل العصب المقطوع في رسغ المريض، فال له بفراغ صبر"

- فك الغرز المعفنة دي وخيَّط الوتر ده تاني.

- ليه يا د. حامد مش عاجباك؟

- بذمتك انت مقتنع بيها.. خلّص وما تتلامضش .

خرج من عنده ودخل للغرفة التي بها إبراهيم ووجد المريض يبكي وإبراهيم يواسيه أثناء خياطته لجرحه فقال متسائلاً:

- هو العيان ده بيعيط ليه هو حاسس.. متدلوش بنج كفاية ؟؟

- لأ ده أصل افتكر ابنه وبيعيط عشان...

- ركز يا دكتووور في شغلك وما تتكلمش مع العيان وتعالى المكتب بعد ما تخلص.

ذهب إلى مكتبه وبعد عشر دقائق دخل عليه إبراهيم قائلاً:

- تصدق إن الراجل ده ابنه هو اللي ضربه بمطوة وعوَّره.

- وانا مال أمي.. يا ابني قلتلك مييت مرة ركز في شغلك انت جرَّاح مش مطيباتي.

- حضرتك شُفت الشغل وقلت انه كويس.

- كونه كويس ميغفرلكش انك تتصاحب ع العيان وتندبله.. روح دخَّل العيانة حسنات للغيار واياك اجي ألاقيك بتتكلم وانت بتغيرلها.

*** * ***

- 4 -

وضعت دعاء هاتفها في جرابه بعد أن أنهت محادثتها على "الواتس آب" مع حامد. كانت تجلس في غرفة التمريض في مستشفى ابن رشد الدولي الذي تعمل به منذ عدة سنوات وبسببه استقالت من عملها الحكومي.

زفرت زفرة حارة من أعماقها تحاول جاهدة أن تعلم ما الذي جعلها تسأله عن تلك التي كان يجالسها، هي بالتأكيد لا تغار عليه فغيرتها على عادل من زوجته ترهق أعصابها وغيرتها من مغامراته الإضافية تستهلك ما تبقّى من مخزون الغيرة لديها؛ ما ضايقها حقًا هو أنها تخشى أن ينشغل حامد بفتاة أخرى فيتوقف عن الاستماع إليها والتواجد حولها.

يا لثقل تلك الأحاسيس المضنية على كاهلها.. إحساسها دومًا بأنها محتاجة لوجود رجل في حياتها؛ أدخلت حامدًا في حياتها بعد أن حكت له عن كل شيء في علاقتها مع عادل (مع إخفاء بعض التفاصيل التي لا تقدر على روايتها له) وبعد أن نصحها مرارًا أن تبتعد عن عادل وتعيش لنفسها.

يطلب منها دومًا أن تكفر بالحب وتحرر نفسها من سطوته. الحب بالنسبة لحامد كغضروف الظهر إذا تعارض مع أسلوب حياتك أو كما يقول بالإنجليزية (interfere with your life style) وجب استئصاله فورًا.

- لو سمحتي يا مِس دعاء المحلول عند ماما خلص ممكن تيجي تشوفيه؟

- حاضر ثانية واحدة.

قامت لتتابع المريضه وهي تتذكر حين عرض عليها حامد أن يكون جوارها وأن يخرجا معًا لتمضية الوقت في أي مكان تحبه. هي لا تسأل نفسها كثيرًا لماذا يفعل ذلك، فنظراته تنبئها أنه يخطط إلى ما هو أبعد من مجرد الجلوس في مكان مفتوح.

من داخلها لا تستبعد بل وتتمنى أن ينقلب السحر على الساحر ويكون هو بديل لعادل في حياتها إن انفصلت عنه، فالرجل حين يسعى وراء امرأة وقتًا طويلاً ويبني الكثير من الخطط للإيقاع بها ولاستقدامها إلى مخدعه غالبًا ما ينتهي به الحال للوقوع في حبائلها.

"بلا نيله أومّال لما أنا فالحة كده سايبة عادل ملطمني ليه " تمتمت بذلك لنفسها وهي تنهي تغيير المحلول للمريضة والتي تصادف أنها مريضة عادل. وعندما وجدت أن نتائج التحاليل الخاصة بها قد ظهرت، وجدت أنها فرصة لتكلم عادل بحجة إبلاغه بالنتائج.

تبًّا لضعفها؛ دومًا كانت تشبّه حالها معه بأغنية لطيفة "متحكم وانت بعيد" فكل ما يحدث حولها تترجمه إلى شيء يخص عادل. التقطت سماعة هاتف المستشفى لتطلبه:

- دكتور عادل، أنا دعاء تحاليل مدام ناهد ظهرت.

-أهلاً يا مِس، هو احنا كنا طالبين إيه؟

طريقة كلامه أنبأتها بأنه في البيت وأن المكالمة ستستمر رسمية.

- حضرتك كنت طالب بي تشى وبي تشي تشي.

- إنجليزي ده يا مرسي!

تهللت أساسيرها عندما قال ذلك لأنه لا يسخر من طريقة نطقها للpt) ، (ptt إلا إذا كان وحده.

- أقفل واطلبك من الموبايل ؟

- مش هينفع، هي في الحمَّام وخارجه دلوقتي.

- طب مش هتشيجي.. الحالة تعبانة أوي.

- ده انتي ولّا العيانة؟

- إحنا الاتنين والله.. بس انا كان قصدي عليها، الست الرعشة في إيديها زايدة خالص.

- هشوف كده.. سلام.

وضعت سماعة الهاتف وهي مبتسمة ابتسامة عريضة.

- مالك يا بت مبينالنا سنانك كده ليه؟

كانت أمل زميلتها في الشيفت وأقرب صديقاتها.

- أصل عادل احتمال ييجي.

- يا بنت الهبلة.. تلاقيكي انتي اللي طالباه رغم انك حلفتى لي انك هتستني هو يطلبك.

- والله الحالة بتاعته تعبانة وكلمته يشوفها.

- عليًّا أنا يا.. إن شاء الله ما يجيش.

رنَّ الهاتف فاختطفته سريعًا ومرت ثوانٍ قبل أن تضع السماعة ثانية وهي مكفهرة:

- نبرتي فيها يا بوز الفقر أهو مش جاي وهيبعت النايب بتاعه.

غيرت أمل مجرى الحديث بسؤالها عن حالة والدتها المريضة والتي تعيش معها دعاء وحدها بعد أن تزوج كل إخوتها.

- والله بقت حالتها أحسن.

قالتها بلهجة منكسرة بدا منها أنها ما زالت متأثرة لأن عادل لن يأتي، فقالت أمل:

- يا بنتي فكك بقى.. الله يخربيتك يا عادل إلهي يلموك من تحت قطر يا بعيد.

- حرام عليكي.. أنا بس نِفسي اعرف إيه اللي غيَّره عليا كده.

- أقولك بصراحة.

كانت أمل هي الحائط الذي تركن إليه ويساعدها كلما أوشكت على التهاوي.. استطاعت أمل حمايتها من نفسها والضغط عليها حتى استطاعت أن تجعل عادل يتزوجها سرًا ورغم شروطه المجحفة إلا أنها وافقت.

اشترط عليها أن يكون الزواج عرفيًا مع احتفاظه بنسختي العقد وأن لا تحمل منه وأن تُبقِي الأمر سرًا وقال إنه سيطلقها ويمزق العقد إذا

أخبرت أحدًا وكأن شيئًا لم يكن. استمرا على هذه الحال ما يقارب العامين حتى بدأ يهملها ولا يكلمها إلا نادرًا وهي لا تدري ما السبب.

كان تفسير أمل أن الرجل لم يكن يحبها أبدًا وأنه كان ينظر لها على أنها طبق من البسبوسة الشهية والرجال في مثل سنه يشبهون كثيرًا مريض السكر حين يشتهي البسبوسة، فقد يأكل منها مرة واثنتين وثلاث ويتحمل في سبيل ذلك زيادة جرعاته من الأنسولين. لكنه بعد فتره يُصَاب بالإرهاق وتهاجمه المضاعفات فيعاف البسبوسة ويبتعد عنها.

- فهمتي يا.. بسبوسة.. انتي حبتيه إنما هو كان عاوزك محظية، ولولا أختك كان نال مراده من غير جواز.

- طب ولما هو كده مطلقنيش ليه وقطع الورقة؟

- عشان تفضلي تحت رجليه يمكن نفسه تهفّه عليكي.. يا نهار اسود ده أنا سبت البوتاسيوم متعلق للعيان والمفروض أوقفه لما يخلص نصه.. إلهي تولع بجاز يا عادل.

لم تكن دعاء قد أطلعت صديقتها بعد على مقابلاتها مع حامد لأنها تخشى رد فعلها وستقول لها طبعًا إنها كالمستجير من الرمضاء بالنار فأمل لا تطيقه أبدًا فهي دائمة الشجار معه لأنها لا تسمح له باستخدام الصوت العالي معها بالرغم من أنه في غير العمل يتباسط معهن في الحديث ويعاملهن جيدًا.

أمسكت الهاتف وأرسلت إليه رسالة:

- منفسكش تروح سيما.

مضت دقيقتان قبل أن يأتيها الرد "مليش فيها خااااالص".

- طب نتقابل في اي حته.. أنا زهقانه موت.

- خلاص أنا بكره الصبح فاضي، ممكن نتقابل نفطر سوا قبل ما اروح.

ماشي يا برنس.. سلام.

- يا برنس!!! هتفضلي طول عمرك بيئة.

- مقبولة منك.. باي.

* * *

- 5 -

جلس محمد في مكتب النوَّاب يحتسي الشاي وهو يستمتع باللحظة بعد أن قادته الصدفة وسذاجة إبراهيم لأن يقوم بإجراء أول جراحة كبرى له منفردًا.. غريب هو ذالك الإحساس الذي ينتابه هذه المرة إحساس غامر بالسلطة والقوة حين تمسك أناملك بمصير إنسان وحين تحس في داخلك أنك اليد التي أرسلها الله لتصلح ما أفسده البشر في صنعته.

كان جالسًا على راحته ممدًا قدميه على كرسي صغير حين دخلت عليه شيرين.

- خد وقف المحاليل للعيان ده د. حامد بيقولك.

تناول منها ملف المريض وهو ينظر إليها بغيظ من طريقة كلامها، كانت فتاة سليطة اللسان لكنها معروفة باستقامتها وكان دومًا يقول في نفسه إن استقامتها هذه بسبب قلة جمالها ولسانها السليط.

كان في داخله يعتبر أن كل الممرضات من طبقة أقل كثيرًا وأنهن مليئات بالشر وقلة الأصل، وإن فعلت إحداهن شيئًا طيبًا فإنما يكون بسبب انتظارها لمقابل ما؛ لكنه كان يتعامل معهن بكثير من التزلف وينادي لأغلبهن بلقب "مِس" ويعتبر أن هذا نوع من التقيه في التعامل مع الشر الكامن فيهن.

أخذ يكتب في الملف و هي واقفة تنتظر انتهاءه حين دخل عليه أحد المرافقين قائلاً:

- لو سمحت يا ضاكتور قوم ادّي لاخويا مسكِّن.

- إيه قوم ادي لاخويا مسكِّن دي، اتكلم كويس.

- حاضر يا عم الباشا، المرة الجاية هعظّم وانا داخل اكلمك قوم بقى.

أحسَّ في داخله أن هذا المرافق من أصحاب السوابق وأنه إذا اعتدى عليه فلن يسعفه أفراد الأمن بالطبع فهدَّأ من لهجته معه.

- هبعت حد من الممرضات يديله حقنة مسكِّنة حاضر.

- طب يلّا يا أبلة تعالي انتي.. انجزي كده متبرقليش.

احمرَّ وجه شيرين وكشفت لمحمد في تلك اللحظة عن أهمية لسانها السليط وهي ترد عليه قائلة:

- نعم نعم.. روح يا اخويا من هنا ملكش فيها، خليك جنب اخوك وبعدين اقف عدل كده وانت بتتكلم.

- على فكرة مش هرد عليكي عشان عامل احترام للباشا، يللا بس انجزي. قالها وخرج من الغرفه ومحمد ينظر إليها وهو منبهر:

- انتي مش خايفة منه؟

- يا دكتور محمد دي عيال تخاف متختشيش.. لما كشّمتله كده أكيد فهم ان ورايا رجاّلة هيسنجفوه لو اتعرضلي.

نظر إليها متعجبًا.. ولأول مرة يرى الميزة في أن تكون من بيئة كبيئتها، حين تجد هناك سببًا يردع عنك أشخاصًا من تلك النوعية. محمد كان يتمتع ببنية جسمانية قوية، ولكنه يعرف أن التشابك مع هؤلاء سيقلل من قيمته وقد يترصد أحدهم له بمادة حارقة أو مطواة.

- طيب ادّي لاخوه واحدة ايبيكوتيل وريد وابقي هاتي تذكرته.

نادى عليه حامد وطلب منه أن ينزل إلى استقبال الطوارئ لمراجعة مريض في حادث وهو ينبه عليه قائلاً:

- الحالة فيها كسور في صوابعه والأوتار والجلد مهري.. انزل شوفه وخلّي العضم يحجزوه معاك.

- طب ما هو الكسر لو في الصوابع.. ممكن نشتغله احنا وبالمرة نمشّي إيدينا.

- إسمع الكلام، فذلكتك دي بتخليهم يلبّسوك في الحيط همَّا مبيحبوش يشغلوا بالهم بعيان وهيشيّلوهولك.. قول لنايب الاستقبال انك مش هتحجزه لوحدك.

- حاضر

أسرع الخطا نحو الطواريء وهو مغتاظ فهو يعلم أنهم قادرون على تثبيت الكسور في الاصابع وأن حجز المريض مشتركا ستجعله يقضى ليلته ما بين التخدير والعظام حتى الصباح ليتسنى له إدخال المريض وهم معه.

حين وصل للاستقبال وجد رجلاً يتعدى الستين من العمر وأصابعه مهترأة بمعنى الكلمه لكن اهتراء أصابعه هذا لم يشغل باله بقدر سِن الرجل الذي يعني أنه سيعاني في ترتيبات دخوله للعمليات، وصدق حدسه حين علم من المريض أنه يعالج من أمراض القلب والسكري.

خطر له ساعتها أن يتصرف منفردًا وأن يؤكد لمدير الاستقبال أن هذا مريض خاص بالعظام وانه كـ (تجميل) سوف يتكرم بالدخول معهم لغرفة العمليات لمساعدتهم في تنظيف الأنسجة وإغلاق الجلد، وحين طرح هذا الرأي كان رد نائب العظام عليه:

- نعم يا اخويا.. احنا مش هنعمله حاجه احنا هنحطه في جبيره وانتوا اللي تحجزوه.

- يا عم اتقي الله، الراجل صوابعه مفرومه.

- عشان كده هو عيانكم انتم مش عيانا احنا.

ذهب كلاهما لمدير الاستقبال الذي أصدر الحكم المعتاد في مثل هذه المسائل وهو حجز المريض مشتركًا بينهما ويتقاسمان مسئوليته ثم قال لهما:

- انتوا بصيتوا على صوابعه ومبصيتوش في وشه للأسف.. مش واخدين بالكم انه عامل فوق الستين وغلبان بيشتغل في مكبس وانه هيقعد شهر والا اتنين من غير شغل.. روحو احجزوا العيان وانت يا محمد خلّص عروضه وعصام هيدخّله العمليات ويرتب مع التخدير خلاص وأي واحد يتأخر في مهمته، التاني يبلّغني.

أومأ كلاهما رأسه بالموافقة فأكمل قائلًا:

-أنا عارف ان الشغل كتير عليكم بس صدقوني الناس دي غلابه وملهومش غيرنا واديكوا بتتعلموا من كتر الشغل هتفتقدوا أيام النيابة دي بعد كده صدقوني.

ابتسم محمد وقال له:

- يا باشا بس هي تخلص واوعدك مفتقدهاش ولا افتكرها من أساسه.

* * *

- 6 -

بعد التاسعة ليلًا بقليل، كان الجو في مستشفى النصر الجامعي معقدًا جدًا. انفجرت قنبلة بدائية محشوة بالمسامير بجوار أحد الفنادق الكبيرة وانقلبت المستشفى رأسًا على عقب كان محمد نائب التجميل في هذه اللحظة واقفًا حائرًا بين ثلاثة مصابين يعطي لهذا مسكنًا وينظف جرح الثاني ويطلب من الممرضة أن تعطي حقنة تيتانوس للثالث وبجواره طبيب المخ والأعصاب يفحص وعيهم ويسلّط الضوء على عيونهم.

كان استقبال المستشفى مضطربًا؛ فليس ثمة تنظيم لمثل هذه الحوادث الكبرى والكل يساعد الكل، حتى أطباء الجلدية الذين تصادف وجودهم في سكن الأطباء نزلوا للمساعدة.

-انت يابنى نايب تجميل؟

كان صوت احد أساتذة الجراحة، وكان محمد يعتبر وجودهم في هذا الموقف مقيدًا أكثر منه نافعًا بأي شكل "زي الخَيلَة الكدابة" كما تردد في ذهنه.

- أيوة يا بيه.

- طيب سيب الممرضة تكمل غيار وتعالى معايا.

ذهب معه جريًا إلى سرير به مريضة شابة أجنبية ليس بها إصابات سوى جرح بسيط في ساعدها أشار لجرحها وهو يسأله:

- تعرف تخيطلها الجرح ده ولا تجيب حد من المدرسين المساعدين اللي معاك.

- يا بيه حد من الامتياز يخيَّطه ده جرح خايب.

- لا انت اللي تخيَّطه وانا واقف جنبك.

يكاد ينفجر في وجهه لكنه تمالك نفسه.. حتى مع طبيعته المهادنة فقد كان الطلب مستفزًا له جدًا؛ أن يجعله يترك مريضًا مصابًا بجروح كبيرة ومتهتكة من أجل تلك الحالة وفي مثل هذه الظروف .

- زس إز بلاستيك سيرجيري ريزدنت هي ويل سيوتشر زا وونـد ويز برولين سيفن زيرو.

كان محمد ممتعضًا من طريقة نطقه للإنجليزية ومن اختياره تعبيرات طبية وهو يظن بسذاجة أن أجنبية تعلم الخيوط الجراحية وكأنه قرأ ما في رأسه فقال له إنها طبيبة وتفهم ما يقول.

"الله يحرقك يا إبراهيم كان لازم تروح للمشرف بتاعك الليلة"

رددها في سره وهو يخيط الجرح.. بعد قليل رأى حامد مقبلاً عليه وهو يصرخ فيه في حدة:

- انت بتنيل ايه.. خلى امتياز يكمل خياطة الجرح.

- دكتور سيد أستاذ الجراحة هو اللي قاللي اخيطه.

- سيبك منه.. انت نايب تجميل انجز فيه حالة هندخلها عندنا دلوقتي.

صك سمعه الصوت القادم من خلفه قائلًا:

- يسيبه من مين يا بني آدم.

كان ذلك هو دكتور سيد الذي كان يستمع إليه دون أن يلاحظ ورغم أن حامد كان عصبيًا وردوده انفعاليه إلا أنه تراجع فحتى هو مع طبيعته المتحدية لا يجرؤ على التناطح مع أستاذ.

- آسف يا بيه.

- همَّا مبيعلموكمش في التجميل تحترموا الأساتذة.

- مقصدش يا بيه والله أصل احنا مضغوطين ومتلخبطين زي ما سيادتك شايف.

تدخَّل محمد في الحديث قائلًا:

- بعد إذنك يا د. حامد اتصل على إبراهيم ييجي.. حتى يكتب التذاكر.

- جاي في الطريق.. وبعدين متقلقش صابر نايب الجراحة هو اللي ماضي عليها كلها يبقى يخللي الامتياز بتوعه يخلصوها.

أكمل محمد خياطة الجرح وبعد أن أنهاه نظر د. سيد للجرح بإعجاب ثم حرَّك ذراع المريضة أمام وجهها قائلاً:

- لووك هي ديد جود بروسيضر وي هاف جود سيرجيري ديبارتمنت زس از ماي استيودنت.

* * *

- 7 -

كان حامد واقفًا في غرفة العمليات مع طبيب عظام يتعاونان في معالجة إحدى ضحايا الانفجار حين دخل عليه النائبان الأصغر، استقبلهما بوجهٍ مكفهر وهو يقول:

- اتحركوا انتوا الاتنين، محمد هيخش مع خليل في أوضة العمليات التانية وإبراهيم بيه الرايق يطلع الرعاية ومعاه ممرضة.. فيه عيانة فرنساوية جاييلها دكتور من السفارة بتاعتهم عشان هيسفّروها دلوقتي.

دخل محمد لغرفة العمليات الثانية، كان فيها خليل وهو النائب السنيور الثاني في القسم. كانت ثنائية حامد وخليل دومًا تثير استغرابه فهما صديقان حميمان للغاية، ولكن طباعهما مختلفة تمامًا مثل اختلاف آرائهما السياسية فحامد يكره ثورة يناير ويعتبرها مؤامرة غربية شرقية صهيونية سلفية على مصر ويوقن أن نظام مبارك أفضل برغم فساده، أما خليل فإخواني الهوى ويعتبر أن مرسي كان الخليفة القادم الذي خانه العالم أجمع.

كان المريض المسجى على السرير مغطى بالكامل عدا ذراعه الذي تهتك أغلبه، وكان خليل ينظف الجرح من الأنسجة الميتة والمسامير المغروسة فيه، نقل نظره إلى فانوس الأشعة فهاله ذالك الكم من المسامير

المتواجدة داخل أنسجة المريض. أفاق من ذهوله على صوت خليل وهو يقول:

- يللا يا بني اتعقم.. انجز.

هزَّ رأسه بالموافقة ثم جرى ليعقم نفسه وينهمك معه في العمل.

في ذات الوقت توجه إبراهيم مع مايسة ممرضة القِسم الداخلي نحو الرعاية، كانت مايسة بالذات مقرَّبة منه ويعاملها معاملة جيدة، يعتبرها زميلَ عمل مقرب ووكالة أنباء في الوقت ذاته، تحكي له عن أدق التفاصيل فيما يخص حياتها وزميلاتها وما تسمعه من شائعات عن الأطباء والأساتذة.

كانت ترتاح إليه وتعتبره أخًا أكبر رغم أنها تكبره بعامين. كانت تفضفض معه عن همومها وترمي في حجره الكثير مما ينوء به كتفها المتعب من هموم حياتها.

- إيه آخر الأخبار؟

- النهارده أنا الأخبار.. فيه حاجة غريبة حصلت عاوزة احكيلك عليها.

- طب خليها لما الدنيا تهدى.

كانا قد وصلا إلى العناية المركزة ولم يكن الطبيب الفرنسي قد وصل بعد ومع ذلك أصرَّ أستاذ الرعاية المركزة أن يظل إبراهيم وممرضته في انتظاره وبينما هو منتظر رأى مريضًا مصريًا من المصابين عاجله قائلاً بتوسل:

- والنبي يا دكتور رجلي تاعباني قوي ومحدش معبّرني من ساعة ما جيت.

طمأن المريض بأن إصابته طفيفة، وأنه يتم خدمته بشكل أفضل كثيرًا من المعتاد لأن أغلب المصابين أجانب وبالتالي يتم اعتماد أفضل إمكانيات المستشفى لهم فنحن البلد الوحيد الذي يعتبر المواطن مريضًا أقل درجه من الأجنبي.

يذكر قصة حكاها له أحد أساتذته أنه كان يعالج مريضًا فلسطينيًا مصابًا بحروق مميتة لا أمل في شفائه منها وتصادف أنه مات في نفس اليوم الذي ماتت فيه شابة مصرية في نفس المستشفى مصابة بحروق طفيفة مما يؤكد أنها ماتت من الإهمال. أرسلت وزارة الصحة يومها لجنة للتحقيق في سبب وفاة المريض الفلسطيني رغم أن إصاباته كانت ستقتله حتى لو عولج في "كليفلاند"، ولم يفكر أحد في سبب وفاة الفتاة التي ماتت من الإهمال لأنها مصرية.

- ها يا ست مايسة احكي لك بقى على ما الخواجة ييجي.

«مايسة» زوجها يعمل بالخليج وهي تعيش مع ولديها، وهي زوجة مخلصة، ولكنها لجمالها ولقوامها ذي التفاصيل المرهِقة تجد نفسها مطمعًا للكثير من آكلي الجيف، وساعد على ذلك أنها تتباسط في الحديث وتضحك على أي مزحة يقولها أحدهم حتى لو ذات إيحاء جنسي ما، كما أن ضحكتها الرنانة مصيبة أخرى؛ كل ذلك قد يوهم من يكلمها أنها قد تكون سهلة المنال بشكل أو بآخر.

حكت له مايسة عن "مدام عنايات"، وهي امرأة أربعينية تعمل في وظيفة إدارية في المستشفى. أخذتها تلك السيدة لمقابلة صاحب مكتب تجاري

يريد امرأة للعمل في العلاقات العامة ولا يشترط تعليمًا بل الجمال واللباقة.

كان مكان المقابلة مريبًا فقد كان في منزله وتحججت لها عنايات بأن الرجل يعيد تجهيز مكتبه وكان ما أثار خوفها أكثر أن الرجل كان وحده في الشقة، لكنه أكد لها أن زوجته على وشك الوصول. جلس معها وتساءل عن كل تفاصيل حياتها في الوقت الذي لاحظت فيه أن عيناه تتجولان في تفاصيلها هي.. أخبرها أنه يريدها أن تقابل عملاءه من المحافظات الأخرى ومن الخارج وأن تبين لهم مزايا مكتبه والخدمات التي يقدمها.

كانت مضطربة فأنهت المقابلة سريعًا ولدهشتها لم يمانع الرجل وأنهى اللقاء معها بمنتهى الود ولم يخاطبها إلا بلقب "مدام". أصرَّ أيضًا على توصيلها وفي السياره أجلسها إلى جواره وأجلس عنايات في الخلف وظل يحدثها ويطمئنها وهو يربت على يديها بين الفينة والأخرى.

- عامل فيها مؤدب أوي بس أنا حسيت من بصاته انه عاوز حاجة غيرالشغل.

- أبدًا هو عاوز شغل وبس.

- أومال كان بيبص لي كده ليه؟

- تاجر شاطر وبيقلب البضاعة اللي هيتاجر فيها.

- يا نهار أسود.. يا بنت الـ.. يا عنايات.

لام عليها أنها هي التي وافقت على الذهاب لشقة الرجل وليس مكان عمله ثم إنها تعرف أن هذه المرأة سُمعتها ليست على ما يرام.

- أعمل إيه ما انت شايف بدوّر على أي شغل.. الراجل مسافر ومبعتش فلوس بقاله أكتر من 6 شهور.

- اشتغلي ممرضة في مستشفى خاصة.

- مينفعش كلهم بيشرطوا عليَّا اني أوافق آخد سهر وانت عارف ما ينفعش عشان العيال.

أوشك أن ينهرها أكثر لكنه تراجع وهو يتفكر في حالها وحال زميلاتها فرغم ما يبدو عليه أغلبهن من حِدة الطباع والجرأة إلا أن كم المآسي في حياتهن يفوق بكثير أي فئة أخرى من فئات المجتمع.

من حكايات مايسة عنهن ومن عشرة عامين وجد أن النسبة الأقل منهن تعيش حياة زوجية مستقرة. منهن من تجاوزن سن الزواج ويتلمس أغلبهن الأمل في قصص حب فاشلة مع شباب لا يأمل إلا في استغلالهن، والمتزوجات منهن يعشن غالبًا في ظروف سيئة أو يتعرضن للعنف من أزواجهن. هذا غير المطلقات وهن أتعسهنّ وأكثرهن تعرُّضًا لمضايقات الطامعين والباحثين عن مغامرة دنيئة.

قاطع أفكاره دخول الطبيب الفرنسي وممرضته الشقراء وبدأ في مساعدته في فك غيار المريضة للاطلاع على حالتها، وكانت الممرضة شديدة المهارة والتركيز، فهمس لمايسة:

- هي الممرضة اللي زي دي ينفع يتشخط فيها برضه؟

- اشمعنى يعني أحسن مننا ف إيه.

- انتي مبتشوفيش وللا إيه.. شطارة وحلاوة مش زيّكم.

انتهت الليلة على خير وقد تم سفر المرضى الفرنسيين لبلدهم والجنسيات الأخرى لمستشفى استثماري فخم وتبقَّى أصحاب البلد في مشفاهم الفقير.

ذهبوا جميعًا للنوم بعد تلك الليلة المضنية إلى أن استيقظ حامد على صوت هاتفه:

- انت فين؟ أنا بقالي نُص ساعة في الشارع؟

- دعاء!! ما تخلّي معادنا بكرة أنا نايم بعد الفجر.

- لأ، النهارده وبعدين عاوزاك في حاجة مهمة.

- مينفعش أنا هكمل نومي وبعدين اروح ع البيت.

- معلش اعتشبر عندك مرور الصبح ومش هتكمّل نومك، الموضوع مستعجل أوي.

أحس أن هناك شيئًا هامًا فعلاً.. أول ما رآها سلمته حقيبة ملونة فيها ربطة عنق فاخرة.

- كل سنة وانت طيب عقبال مية سنة.

- إيه دي.. اوعي تكون الكرافتة دي أم 120 جنيه اللي شفناها في المول.

- متشغلاش عليك.

- لا ياختي تغلى.. ال120 جنيه دول كنتى تجيبي بيهم كرفته وقميص من 26 يوليو.. انتي عارفاني كده كده هجيبلك هدية ع الأقل بنفس التمن.. يللا تسلم إيديك.

- بعد إيه؟!

- وبعدين هي دي مكانتش تستنى لبكرة؟

- مينفعش اروَّح بيها انت عارف.

جلسا في "الكوفي شوب" المعتاد وسألها عن عادل فأخبرته عن الليلة السابقة، انفعل عليها قائلاً:

- أعمل فيكي إيه مش هتعقلي أبدًا.

- عاوزة اعتشرفلك بحاجة.

أخبرته أنها متزوجة منه عرفيًا، انفعل أكثر لأنها كذبت عليه فانخرطت في البكاء كعادتها لكنه لم يعرها اهتمامًا ثم قال:

- يللا عشان اوصَّلك.

حاولت الاعتذار له لكنه لم يقتنع لإحساسه أنه قد خُدِعَ فاستجمعت شجاعتها في لحظة نادرة الحدوث وقالت له بحدة:

- شكلك مكنتيش بتخرّجني لله وكان في دماغك حاجة وحسيت انك مش هتطولها.

فاجأته صراحتها فانعقد لسانه ونظر إليها شذرًا:

- يللا ومتتكلميش دلوقتي.

- اتفضل انت أنا هاخد تاكسي.

كانت ثاني مفاجآتها له في نفس اليوم، فانصرف غاضبًا وهو يقول لنفسه إن هذا خطأه؛ أنه جعل لها قيمة.. ركب سيارته وأخذ يفكر مليًا ويستفسر من نفسه عن سبب ذلك الغضب، ليست أول الفتيات ولا أخرهن التي تخفي شيئًا من أسرار حياتها.

يبدو أن كلامها فيه شيء من الصواب وأن ذلك الحنان والاهتمام يخفيان رغبته فيها لأنها كانت في ظنه في علاقة كاملة مع الرجل وأنها كانت ستفتح له أبواب كنزها لينهل منه بديلاً عن ذلك الستيني الذي تحبه.

لم يكن يتخيل أن علاقتها مع عادل كانت زواجًا لأنها في هذه الحالة إذا انفصلت عن عادل فلن تعطيه شيئًا إلا بالزواج وهو الخط الأحمر في علاقاته النسائية.. ذات مرة لامه خليل صديقه على ذلك قائلاً: "انت متجوز وما بتبطلش عط.. لو مش مكفياك زوجة واحدة خليهم اتنين تلاتة".

كان حامد يجيبه بأنه يحب زوجته وطفله الصغير، وأنه لا يمكن أن يتزوج ثانية لأنه لن يسمح بتفكيك أسرته أو بتربية ولده بين زوجين منفصلين لكنه في ذات الوقت لا يمسك نفسه أمام أنثى، وكان لدهشته يدخل في علاقات بسهولة رغم صلعته البسيطة وشاربه الريفي وطباعه الحادة، وقد كان سِر ذلك أنه يظهر حنانًا جارفًا تجاه أي امرأة ضعيفة.

يؤمن أن أي امرأة لها مفتاح، قد يتشابهن أو يختلفن في شكل المفتاح لكن أهدافه من النساء يشتركن جميعهن في الاحتياج إلى من يستمع

إليهن. كان يوحي للواحدة منهن أنه يستمع جيدًا يتعاطف ويأخذ صفها، وأنه لا ينتظر مقابلَ ولا يطمع في مغامرة.

كانت انفعالاته مع أي امرأة مدروسة بعناية وتتطور لهجته واقترابه من المرأة مع الوقت، وفي مرحلة ما تصل هي إلى إحساس بأنها هي من تريده ولا تفكر لحظتها في العواقب ولا في مستقبل العلاقة.

كان خليل يقول له دومًا: "هتموت أعمى من اللي بتعمله في النسوان دول".

" أنا عمري ما وعدت واحدة بحاجة، بالعكس أنا بديهم اهتمام مفتقدينه".

"متبررش لنفسك في الآخر هي بتعاني لما بتسيبها.. ولو محدش عانى ده ميخليش الحرام يبقى حلال".

كان مع كل ذلك لا يسمح لنفسه بالوقوع في حب واحدة منهن، وكان بعضهن من الذكاء الذي يمكنهن من فهم ذلك والبعض الآخر لا، ولكنه لم يجد مثل منار في الذكاء. مع منار كانت قواعد اللعبة معكوسة، كانت فتاة تقارب العشرين لكن رأسها تعمل بكفاءة وخبرة امرأة عاصرت آلاف الرجال.

كان يسمعها تتحدث في هاتفها مع ثلاثة شبان في وقت واحد، وعندما سألها عن السبب أكدت له أنها تبحث عن عريس، وأن الشبان يستحقون التلاعب،وأنها تجيد اللعب بهم. حتى معه هو لم تكن تعطيه إلا ما تريد هي أن تأخذه في الوقت الذي تراه هي، وذات مرة قال لها أحبك

(و هو قطعًا لا يعنيها) فكان ردها صادمًا: "متشتغلنيش والنبي يا باشا، إحنا بنقضي وقت ظريف مع بعض إنما حب لأ.. انت مبتعرفش تحب".

مرة واحدة اعترف لخليل بأنه يشعر بالسأم من كل ذلك، وأنه يحس بالحقارة من ضعفه أمام شهوته، وأنه حاول أن يغيِّر من نفسه فلم يستطع".

كان أحيانًا يعزي اهتمامه الزائد بالمرضى لذلك؛ فهو يصر على القيام بالغيار على جروحهم شخصيًا في أغلب الأحوال بالرغم من أن تلك الأعمال يقوم بها النواب الجناير عادة. يعتبره رد فعل وطلبًا للمغفرة وانتهاز لفرصة دعوة من مريض تكون أبواب السماء مفتوحة فليس أكثر من دعوة إنسان في شدة تصادف استجابة من الله. المشكلة دومًا أن حِدة طباعة تجعل المرضى غالبًا ما يوجهون الدعوات لغيره.

* * *

-8-

- محمد.. عاوز اخرج ساعتين وارجع على المغرب.

تجهم وجه محمد عندما سمع هذا الطلب من إبراهيم، فقد كان اليوم مرهقًا منذ الصباح لأنه يوم اللقاء العلمي بالقسم وعدد المرضى الذين يأتون إلى القسم يكون فوق أي قدرة على التحمل علاوة على كم الضغط العصبي الناتج عن وجود هذا الكم من أعضاء هيئة التدريس. كل واحد منهم له طلب أو تعليق على شيء أو حالة يريد متابعتها والعبء كله على النائب وخاصة الجنيور. ردَّ محمد بضيق على طلب إبراهيم:

- ارحمنا يا عم الحاج.

- ما أنا كنت شايل يوم الخميس لوحدي.. وليك عندي يوم كمان.

- ده انت لُقطة.. صحيح الحب بهدلة، هتتغدى فين؟

- ملكش فيه بقى ومتشيلش هم حامد هو خرج وهيرجع بعد العِشاء.

انصرف إبراهيم على عجل ذاهبًا إلى موعده مع عُلا، كان متلهفًا كعادته وزاد من لهفته أنها ستحضِّر له غداءً من صنع يديها ليتناولاه معًا.. بالطبع لم يتوقع أن تعد له وجبة شهية فامرأة مثلها تدرس الماجستير في الفيزياء النووية من الصعب أن تكون خبيرة في قواعد المحشي

والمحمرات، ولكن إحساسه بأنها منذ استيقظت وحتى الآن منهمكة في إعداد غدائه كان إحساسًا رائعًا.

فى المستشفى كان محمد ذاهبًا لسكن الأطباء ليحصل على قيلولة صغيرة قبل معاودة العمل حين أمسك هاتفه وطلب زوجته:

-آلو، أيوة يا نهى عاملة إيه؟

- بنتك يا سيدي ما نيميتنيش طول الليل.

- خير تعبانة؟

- لا غلاسة كده، مصحصحة زي ماتكون شاربة مج قهوة.

- المهم بابا عامل ايه؟

- النهارده زي الفل وراح البلد كمان عشان يحضر فرح حد من قرايبكم.

كان والده مريضًا بتليُّف الكبد، ذلك الضيف ثقيل الوطأه على كل بيت في الدلتا تقريبًا، التهمَ من عائلته الكثير عم وخال وجد إضافة إلى عدد كبير من الأقرباء فبلده كفر الشيخ من أكبر حاضنات ذلك المرض.

كانت أسرته ميسورة الحال نوعًا ما، ولذلك فقد بدأ في التفكير في إجراء زراعة كبد لوالده نظرًا لأنه في الفتره الأخيرة كان قد بدأ في التدهور. مازال البحث جاريًا عن متبرع فأنسجته هو وشقيقه الوحيد غير متوافقة مع أبيه وعمه المتبقي على قيد الحياة يعاني من قصورٍ بشرايين القلب يمنعه من إجراء الجراحة.

رقد على سريره استعدادًا للنوم، حين جاء له استدعاء من الاستقبال لفحص حالة حروق، ودَّع سريره بحسره ونزل لرؤية المريض. كان طفلاً

في السابعة من عمره وقد احترق نصف جسده تقريبًا، وكانوا في المعتاد يقومون بتحويل مثل هذه الحالات لعدم وجود أماكن بالعناية المركزة مخصصة لمرضى الحروق التي تتجاوز الأربعين في المائة من مساحة الجسم.

ذهب لوالد المريض، كان رجلاً يبدو عليه الفقر وقلة الحيلة فاقترب منه بهدوء وشرح له حالة ولده وأخبره أنه يحتاج إلى الذهاب لمكان آخر.

صُدم الرجل من كلام محمد وقال له بتوسل:

- والنبي يا دكتور تتصرف، شوف حل.

- مش بإيدي والله أنا مقدرش احجزه.

- أنا بلفّ بيه على المستشفيات من الفجر، رُحت تمن مستشفيات ومحدش راضي يقبله.. أروَّح بيه وخلاص يموت في البيت

انهمر الرجل في البكاء وعندها تعالى صياح طفله باكيًا فتوجه إليه وحمله ثم جلس على الأرض يبكي والطفل في حِجره.

أحسَّ محمد ساعتها بالشفقة على الرجل وخطرت بباله فكرة فطلب من الرجل أن ينتظره قليلاً ليبحث له عن مكان في أي مستشفى وهو قد انتوى التكلم تليفونيًا لأحد الأساتذة بالقسم وهو الوحيد الذي يصر على حجز أي مريض حروق وعدم تحويله أياً كان السبب.

كان الاتصال بهذا الأستاذ مباشرة وتجاوز الأطباء الأقدم منه مخالفًا لطريقة العمل داخل القسم، لكنه قرر خوض هذه المخاطرة ابتغاء مرضاة الله أولًا ومرضاة هذا الأستاذ ثانيًا فهو يشرف على رسالة

الماجستير الخاصة به ويريد أن يريه أنه مهتم بمرضى الحروق الفقراء الذين لا يهتم أحد لحالهم كما كان يقول دومًا: "الكام واحد اللي حكموا البلد دي اختلفوا في كتير بس اتفقو ان عيانين الحروق دول يموتوا".

أمسك هاتفه وطلب رقم أستاذه "د. صلاح". وشرح له حالة المريض وكما توقع محمد فقد أخبره أن يحجز المريض على مسئوليته الشخصية وقبل انتهاء المكالمة قال محمد:

- بس يا بيه معلش أنا بس خايف دكتور حامد يزعل اني كلمت حضرتك علطول من غير ما أرجعله.

- متخافش انت اضطريت عشان الحالة عايزة قرار سريع لو قالك حاجة خليه يكلمني.

أنهى المكالمة وهو في قمة سعادته فقد كان دومًا يتطلع لتجاوز حامد والتزلف للكبار وكانت محاولاته تبوء دومًا بالفشل وفي ظنه أن هذه أول محاولاته الناجحة. قام بإدخال المريض وأخذ في مباشرة علاجه وهو يعلم أن حالة كتلك ستستهلكه حتمًا.

في ذلك الوقت كان إبراهيم قد وصل مع حبيبته علا إلى إحدى الحدائق العامة وأخذا مكانًا منزويا فيها.. فتحت الحقيبة الكبيرة التي أحضرتها وأخرجت أدوات الطعام واحدة تلو الأخرى.

- شكلنا هنقضيها شوَك وسكاكين من غير أكل.. يا ريتني اتغديت احتياطي.

ابتسمت وهي تخرج له الأكل الذي أعدته ولدهشته وجدها قد أعدت مائدة فاخرة.

- إيه ده.. ده أكل بجد..

- إوووعى.. وسّع يا ابني للشيف عُلا.

كان الطعام شهيًا فعلاً، وبعد أن أنهيا الغداء، أخرجت له مناديل مبللة ليمسح بها يديه.

- فاضل تطلّعي طاسة وإبريق.. انتي منسيتيش حاجة.

- لأ.. أنا عملت الجنينة دي بيتنا وانا عاملالك فيه الغدا وظبطت كل حاجة على كدا.

كان في قمة سعادته بحديثها. وبعد الغداء أمضيا ساعتين ثم ركبا سيارتها لتوصله إلى المستشفى، وفي الطريق قالت له إنها تريد وقتًا أطول معه، فقال لها بحماس:

- خلاص اطلعي بينا على كوستا وزي ما تحصل.

لاحظ وجود اللاب توب الخاص بها على الكرسي الخلفي فقالت له أنها تذاكر لأن لديها امتحانًا بعد عدة ايام.

- خلاص يا حبيبتي أساعدك في المذاكرة.

- انت إيش فهّمك في الفيزياء.

- هههههه.. يا بنتي مفيش أصعب من جراحة التجميل.

بالفعل بعد أن جلسا فتحت له ملفات مذاكرتها ولدهشتها تجاوب معها وبدأ في مناقشتها ومراجعة المواضيع ونسي تمامًا أن هناك مستشفى وأن

هناك حامد ينتظره ليذيقه من شجر الزقوم الذي يُزرَع خصيصًا للنواب الجناير في حديقة المستشفى.

- يا نهار احوس الساعة **8** ونص.

- آسفه اني أخّرتك.

انطلقت به في طريق المستشفى وهو يحس أن الوقت الذي قضياه معًا لم يكن كافيًا، نظر إليها وأحس أنها تفكر في نفس الأمر.. اقترح عليها أن يظلا معًا وقتًا أطول فوافقت على الفور لكنها سألته إلى أين يذهبان.

كان مترددا في اقتراح الذهاب للسينما فالموروث الشعبي لديه من بلدته أن أي شاب وفتاة لا يذهبان للسينما بنية خير.. بعد تردد سألها:

- دخلتي أفلام ثري دي قبل كده؟

ردت عليه ببساطة:

- قدَّامك فيلم حلو؟

- أه فيلم ذا هوبيت الجزء التاني.. روعه وهيعجبك.

- طب وحامد..؟؟

- ياكش يولع.

انطلق معها غير عابئ بشيء وهو لا يعلم أن غابة كاملة من شجر الزقوم في انتظاره عند عودته.

* * *

- 9 -

- أنا شايف بعد إذن حضرتك ان هو ده العقاب المناسب لأن الغلط ده لو اتكرر الشغل هيبوظ وكل واحد هيمشي على مزاجه.

- ماشي يا حامد بس ما تكلمش محمد خلاص لأني أنا اللي قلتله يحجز الحالة.

- بس يا بيه هو...

- ما بسش يا حامد اسمع الكلام.. إبراهيم يتعاب عشان زوَّغ من النبطشية إنما محمد اتصرف صح .

- حاضر يا بيه أمر حضرتك.

أغلق حامد هاتفه في غيظ بعد أن رفض "د. صلاح" الأستاذ المسئول عن النوَّاب على الإجراء العقابي الذي اتخذه بحق محمد بعد أن وافق على عقابه لإبراهيم. كان أغضبه بشدة ذلك الاستهتار الذي أبدياه اليوم ؛ الأول ترك المستشفى طوال اليوم دون استئذان والثاني تجاوزه وأبلغ د. صلاح عن حالة مريض دون الرجوع إليه وقام بحجزه.

كان العقاب الذي اتخذه هو حرمان إبراهيم من دخول العمليات لمدة أسبوعين كاملين وحرمانه من الإجازات أو الخروج من المستشفى أيًا كان السبب.

كان العقاب قاسيًا على إبراهيم؛ فدخول العمليات هو الشيء الوحيد الذي يجعل النائب يتحمل ساعات العمل الطويلة الشاقة، إضافة إلى تحمل التحكم والسيطرة اللذين يمارسهما عليه كل من هو أكبر منه، زاد على ذلك أنه سوف يُحرَم من مشاهدة عُلا أسبوعين كاملين وهو ما صار صعبًا علي قلبه بعد ان أدمن رؤيتها مرتين أسبوعيًا. قال له حامد بعد أن أخبره بالعقاب المفروض عليه:

- أنا مش هصعّد الموضوع أكتر من كده لو التزمت باللي أنا قلته.. اتفقنا؟

- ماشي يا د. حامد.

أومأ حامد له ثم وجَّه كلامه لمحمد محذرًا إياه من مغبة تكرار ما أقدم عليه من تجاوزه له ثم قال له بحزم شديد:

- العيان ده مسئوليتك في أي وقت أسألك عن حالته ألاقيك عارف كل حاجة عنه حتى لو انت مش نبطشي وابقى روح بقى اشتكي للدكتور صلاح.

هز محمد رأسه وهو يبتلع ريقه دون أن يتكلم. كانا يحترمانه بالرغم من طبيعته الاستفزازية، فلا يوجد أحد بلا عيوب، وكانت ميزته أنه مخلص جدًا في عمله.. كان يعلمهما جيدًا في غرفة العمليات ويعطيهم فرصة كبيرة في إجراء الجراحات بأنفسهم مثله في ذلك مثل خليل النائب السنيور الثاني، لكنه يزيد عليه في أنه يشاركهم في متابعة المرضى والغيارات على الجروح رغم أن ذلك ليس من مهامه.

كان إبراهيم يرى أن علاقات حامد النسائية أمر يخصه هو على النقيض من محمد الذي يتبنى وجهة النظر التي تقول إن شرف الإنسان يبدأ وينتهي عند حفظ فرجه من الحرام.

كثيرًا ما كانت تلك النقطة محلاً لنقاشات طويلة بينهما مثلها مثل آرائهما في الشخصيات السياسية التي ظهرت في مصر بعد ثورة يناير ك "البرادعي" و"أبو إسماعيل" مثلًا. إبراهيم يقدس آراء البرادعي، ويرى أن "أبو إسماعيل" أفَّاقًا في زِي شيخ ويرى محمد العكس فأبو إسماعيل عنده رباني يرى بنور الله أما البرادعي فبوذي يدعي الإسلام ويريد نشر الرذيلة حتى تصير الفاحشة دينًا يمارسه الناس على قارعة الطريق.

لم يكن محمد سلفيًا بالشكل الكامل ولا إبراهيم كذلك ليبراليًا خالصًا لكن أفكار كل منهما كانت مستقطبة للناحية التي توافق هوى نفسه. يذكر كلاهما أول يوم لهما في العمل حين اجتمع بهما أحد الأساتذة ذوى السطوة في القسم وسألهما: "حد فيكوا ليه في الحشيش أو النسوان الـ... أو السياسة؟"

وقبل أن يرد أحدهما عاجلهما قائلاً: "ميخصنيش.. اللي ليه في حاجة من دول يبقى بره باب القسم.. تخش من الباب تنسى التلاتة دول، مفهوم؟"

لم يكن لهما في الأولى ولا الثانية لكن السياسة كانت تفرض نفسها على الحياة اليومية، فكانت مجالاً لنقار يومي بينهما مثلها مثل خلافاتهما على الأولوية في الدخول للعمليات.

اتجه محمد إلى غرفة الطفل الذي قام بحجزه للاطمئنان على حالته فوجد الطفل يتنفس بصعوبة، طلب من الممرضة أن تعطيه أكسجين وذهب لتبليغ حامد.

- إلبس يا حلو الواد ده شكله هيموت لأنه محجوز متأخر وانت اللي هتشيل مسئوليته.. اطلع هات نائب الأطفال بنفسك متبعتلوش الممرضة.. وانا هَبُص عليه.

ذهب محمد لطبيب الأطفال بينما وقف حامد متابعًا الطفل حتى حضر طبيب الأطفال الذي قرر خطورة حالة المريض لتأخر حجزه وبقائه أكثر من 12 ساعة بدون محاليل وريدية.

- طب إيه الحل يا باشا؟

- هتعمله تحليل غازات في الدم كل ساعتين وتحسب كمية البول وتعدل كمية المحلول كل ساعة وتقيس معدل التنفس كل نص ساعة وتبلغني لو عدا 50 وإياك تطلع تنام الليلة.. الساعه دلوقتي واحدة لو الواد هيعيش حالته مش هتتضبط قبل 6 ساعات.

كان محددًا جدًا في طلباته ويعرف تمامًا ما يطلبه ثم أكمل قائلاً:

- الصبح بقى أول حاجه تعملها تروح للمدير تخليه يوافق على صرف البيومين بشري تديله منه مرتين في اليوم.

استسلم محمد للأمر الواقع وهو يعلم أن ذلك يعني أنه لن ينام قبل الرابعة من عصر اليوم التالي نظرًا لأن العمل الصباحي لا يمكن التخلف عنه حتى لو ظل مستيقظًا ثمانية وأربعين ساعة.

أحضر مكتبًا وكرسيًا وجلس في غرفة المريض ومعه ممرضة الحروق، وعند الثانية والنصف صباحًا، عرضَ عليه إبراهيم أن يأخذ مكانه ليريحه قليلًا لكنه رفض.

ظلت حالة المريض متقلبة بشكل كبير حتى أحس أن الليلة لا طائل منها وأن الطفل سيموت حتمًا. ظل على هذه الحال حتى الخامسة حين بدأ الطفل في الاستقرار وبحلول الثامنة كان الطفل يلعب مع والده .

أحس محمد ساعتها بلذة الانتصار، وأنه استطاع أن يقهر الموت وينتزع منه هذا الطفل انتزاعًا، ولكنه سريعًا ما استغفر وحمد الله على فضله.

جاءت إليه الممرضة المسئولة عن صرف الأدويه في التاسعه قائلة:

- هتشنزل معايا للمدير عشان يمضي ع الألبيومين.

- مينفعش تمضيه انتي، أنا مش قادر اتحرك.

- انت عارف انه مش هينفع ولازم تكلمه انت بنفسك.

هزَّ رأسه موافقًا فتركته وذهبت لإحضار ملف المريض. رنَّ هاتفه المحمول، كانت زوجته:

- محمد.. لازم تيجي دلوقتى باباك دخل في غيبوبة كبد وبعتنا جبنا د. محمود ابن عمتك وهو جاي في الطريق.

وقع كلماتها على روحه كان أشبه برمي الملح فوق جرح مهترئ أصلاً، فقد كان ما يجعله مطمئنًا لحالة والده أنه لم يحدث وأن تعرض لغيبوبة من قبل. أحس بالدم يتدفق كشلال نار في رأسه ورغمًا عنه فلتت دمعة من عينه لتستقر على وجنته.

- يا مصيبتشي.. انت بتعيط يا دكتور.

- انتى مالك روحي شوفي وراكي إيه.

تركها وذهب إلى المكتب الملاصق لغرفة العمليات والذي يجلس فيه الأطباء قبل بدء الجراحات وبينها.. استأذن في السفر من رئيس القسم الذي تصادف وجوده في ذلك اليوم والذي عرض عليه أي مساعده ونبَّه عليه بأن يبقيه على علم بما يحدث.

- إحنا كلنا هنا عيلة يا محمد، إوعى تحتاج حاجة وتتكسف تطلبها.

- حاضر يا بيه.

رن هاتفه فاستأذن للرد عليه، كان شقيقه "على" الذي يعمل في القاهرة هو الآخر، تقابلا في موقف سيارات المحافظات وبينما هما في الطريق خطرت ببال محمد فكره فطلب رقم عمه.

- أيوه يا عمي جهزوا عربية إسعاف عناية مركزة عشان اخد بابا وارجع بيه نحجزه في المركز الطبي العالمي.

- البقية في حياتك يا محمد.

- إيه؟!!

لم يكمل كلامه فقد خنقته عبرته، لاحظ شقيقه ذلك وفهم أن أباهما قد توفى، فاختنقت عيناه بالدموع، لكنه تماسك ثم نادى على سائق بصوت فيه حدة:

- بطَّل الاغاني اللي انت مشغلها دي يا اسطى.

- اللي مش عاجبه ينزل.

- مش هنزل وهتبطلها عشان مزعلكش.

- طب هركنلك بقه عشان توريني هتزعلنى ازاي.

- راجل اركن عشان انزل اطلع عين أمك.

و بينما هو في ذروة انفعاله نزلت من عينيه دمعتان دون قصد ولاحظ باقي الركاب الحال التي عليها هو وشقيقه فقال أحدهم:

- وحِّدوا الله يا جماعة.. معلش ياسطى اقفل وشغل قرآن لان الأساتذة عندهم حالة وفاة.

- وانا اعرف منين يا عم ما يقول كده م الأول.. معلش يا أستاذ حقك عليا.

- ولا يهمك..

وانطلقت بهما السيارة ليلقيا على والدهما النظرة الأخيرة.

* * *

- 10 -

دخل حامد بسيارته إلى مستشفى ابن رشد الخاص الذي يعمل به وتوجه سريعًا إلى مكتبه حيث وصل متأخرًا بعد أن خاض بسيارته في مستنقعات مرورية عديدة، سلَّم على محمود زميله الذي كان نوبتجيًا في الفتره السابقة .

- معلش اتأخرت عليك يا حودة.

- عادي يا ابو الكباتن، أنا أصلاً قاعد شوية عشان رايح اشتغل حالة برة، مش مروَّح

- الله يسهله يا سيدي .

- اتنيل دي حالة شفط جايهالي واحد بتاع جراحة هياكل نص فلوسها ومش هيطلعلي منها غير سبعميت تمنميت جنيه.

- طب ماتيجي تعمل سباكة الشقة عندي أكسبلك، ده السباك هياخد أكتر من كده.

دخلت عليهما دعاء في هذه اللحظة:

- حالة شد البطن حرارتها 38 ونص.

رد عليها محمود:

-عادي علقيلها بيرفالجان.

لكن حامد أوقفها وذهب معها ليطمئن على المريضة فهو لا يترك شيئًا للظروف فالحرارة المرتفعة بعد جراحة كبرى شيء معتاد لكن في بعض الأحيان القليلة تكون خطرًا، عاد لمحمود بعد قليل قائلاً:

- ما فيهاش حاجة.. دنيتها متظبطة.

- بقولّك يا حامد.. هي البت دعاء اشتكتلك مني؟ أصلي عارفكوا بتتودودوا كتير.

- لو حاجة في الشغل دوس ولا يهمك.

- لا دي بت بنت... عاملالي فيها الشيخة طاهرة وهي خارباها مع عادل.

و قصَّ عليه ما حدث من يومين حين عرض عليها توصيلها، وبينما هم في الطريق لمَّح لها بأن تأتي معه لشقته فغضبت وأصرت أن تنزل في وسط الطريق.

- هتفضل طول عمرك وسخ يا محمود.

- والنبي متعمليش فيها شريف، إحنا دفنينه سوا.. بس انت شغال معاهم بسياسة النفس الطويل عشان بتخاف ان أي واحده تغلط فيك عشان كرامتك الخشب، إنما أنا بخلّص من الآخر.

- لو أنا وانت في بلد زي أمريكا انت تتسجن لانك متحرش إنما أنا لأ.

- احنا في مصر والاتنين زي بعض، تعالى نحسبها بالورقة والقلم لو طلبت بشكل مباشر من عشرة.. تلاتة هيسمعو الكلام وواحدة هتعمل مشكلة ودي نسبة ممتازة جدًا.

- والستة الباقيين؟

- فيهم اللي هتسكت واللي هتهزأني والشتيمة مبتلزقش.

يئس منه فلم يكمل النقاش وهو يحس بالامتعاض منه كانت طريقة كلامه ومشيته وتعبيراته لا تنم عن طبيب أبدًا حتى حين يشرح للمرضى شيئًا يخص حالتهم يستخدم ألفاظًا أقرب للتي يستخدمها السمكرية في مدينة الحرفيين.

كان حامد لا يوافقه في رأيه أن فرصة أن تجد ممرضة لعوب أو "شمال" أعلى منها في أي فئة أخرى في المجتمع وكان دومًا يرد عليه بأن تلك الفكرة سببها أن كل مغامرات محمود النسائية كانت في هذه الفئة.

حامد كانت غزواته النسائية على كل الجبهات وفي كل المستويات الاجتماعية، وكان يرى أن الممرضات مثلهن مثل كل فئات المجتمع فيهن الصالح والطالح ويرى أن وراء كل ممرضة "شمال" دكتور "شمال".

تتخرج الفتاة منهن في الثامنة عشرة مراهقة ساذجة، تضع في يدها مصير مرضى وسلطة على العمال، تحس الفتاة أنها صارت شخصًا مهمًا يلجأ إليها جيرانها للتوسط في حجز مريض أو إجراء أشعة فتتضخم ذاتها وتتعامل بعجرفة مع عاملة في سن أمها.

يتزامن ذلك مع محاولات غزل من طبيب ما تدغدغ مشاعرها ويجعلها تصدق أنه يحبها وهكذا إلى أن يسقط الحاجز النفسي بينها وبين الوقوع في الخطأ، تتغير الفتاة التافهة البريئة إلى امرأة لعوب تستمرئ اللهو.

في رأيه لم تكن تلك هي القاعدة العامة بالطبع فكثيرات منهن يتزوجن في سن مبكرة، ولكن كان ذلك هو التتابع الذي يجعل واحدة منهن تبدو في

عين محمود ممرضة "شمال" وهي في الأساس ضحية لطبيب متلاعب استخدمها ليروي غروره المريض.

انصرف محمود وتركه، فبدأ حامد في مراجعة ملفات المرضى إلى أن دخلت عليه دعاء قاطبةً جبينها:

- أنا ماشيه بعد إذنك يا دكتور عشان ماما تعبانة.. هيام استلمت النبطشية.

- طيب تعالى عايزك في كلمة.

- خير؟

- ما تتلويش أوي كده بدال ما اطرقعلك.

- عادي ما أنا بقيت ملطشة.

- أنا عرفت اللي محمود عمله معاكي وهزأته.

- عرفتش ايه.. قالك انه اتنرفز ومسك دراعي عشان ما انزلش.. قالك انه طلّع من جيبه ألف جنيه عشان اروح معاه.. قالك انه شتمني وعايرني باللي بيني وبين عادل.

- الصراحة لأ..

- أنا قرفت من عيشتشي ومن الناس كلها مش عارفة اعمل إيه.

قالت ذلك وانهمرت دموعها ثم أخذت تبكي بصوت عالٍ، فأخذ يهدئ من روعها حتى سكتت وأخبرها أنها يجب أن تفعل شيئًا حيال ذلك، وأن حياتها لا يمكن أن تستمر هكذا، وأقسم لها (بخليط من الكذب

والصدق) أنه لم ولن يطمع فيها أو يعاملها على أنها جسد يريد أن يأخذ منه نصيبًا.

خرجت من عنده وهي تحاور نفسها ما بين غد تأمله وواقع تكرهه كانت تكره نفسها أحيانًا، وأحيانًا اخرى تقف أمام المرآه تتأمل تفاصيل جسدها بحنق وغيظ ولسان حالها يقول:

"ماذا لَقيتُ مِنَ الدُنيا وَأَعجَبُه.. أَنّي بِما أنا باكٍ مِنهُ مَحسودُ"

فقوامها الذي كان مثار حسد من كل النساء هو نفسه سر مآساتها، وهو ما يجعل أي رجل يكلمها لا ينظر لوجهها أو يستمع إليها بنفس القدر الذي يتأمل به انحناءات جسدها وبينما هي غارقة في أفكارها دخلت عليها أمل زميلتها.

- تعالي انزلي معايا، عادل في الاستقبال.

- معاه حالة.. ؟؟

- لأ جاله جلطة في القلب وحالته صعبة.

نزلت إلى استقبال المستشفى وهي تجري، فرأته في طريقها وهو على سرير متحرك متوجهين به نحو قسطرة القلب وبجواره زوجته تمشي باكية. انتظرت حتى مر سريره من أمامها وهي تتابعه بصمت ولا تجرؤ حتى على السؤال. وقفت شاخصة ببصرها قليلاً ولا تدري لأين تتجه ثم عاودت أدراجها نحو مكتب حامد.

- إلحقني عادل بيموت.

- معلش ربنا يشفيه.. بس ليه مموتة نفسك عليه كده؟

- حرامٍ عليك.. والنبي روح بُص عليه وطمِّني.

-و حياة امك.. بطّلي هبل يا بت انتي ودلوقتي يجيلنا خبره لوحده.

عاودت طلبها منه ثانية وهي تبكي وتتوسل إليه بكل غالٍ ونفيس.

- خلاص خمسة كده واتصل لك ع القسطرة اطمنلك عليه.

مرت بضع دقائق وهي تنتحب في صمت إلى أن تناول سماعة الهاتف وبعد أن أنهى مكالمتها:

- عمر الشقى بقي.. خلاص عدى منها وهيطلع العناية المركزة دلوقتي.

* * *

- 11 -

- معلش يا حاجة بقى إن شاء الله الإسبوع الجاي هاجي الأربع بدال الخميس.

- خلاص يابني ربنا يهديلك العاصي ويحبب فيك خَلقه ويسهّلك ما وليت عليه.

أغلق إبراهيم الهاتف مع والدته ثم توجه سريعًا إلى مكتب الأطباء ليبدأ المرور المسائي مع خليل النائب السنيور الثاني في القسم ومعهما دكتور طاهر المدرس المشرِف عليهما في ذلك اليوم.

بدأ المرور على غرف المرضى بالترتيب، كانت طريقة المرور على المرضى أن يقف النائب السنيور إلى جوار المريض ويشرح آخر مستجدات حالته ثم يقوم المدرس بتوجيه أسئلة أخرى وإعطاء ملاحظاته وتوصياته أو إعطاء النواب بعض المعلومات الطبية الجديدة.

وأثناء المرور رنَّ هاتف إبراهيم بنغمة تنبئ برسالة له على الفيس بوك فنظر إليها خلسة، ووجدها من علا "وحشتني.. هموت واشوفك دلوقتي حالاً".. " XOXO"

توقفوا أمام إحدى الحالات لرجل كان مصابًا بقرحة في ساقه وأُجريَت له عملية ترقيع جلدي ولم يعجب د. طاهر ما كان قد تم إجراؤه فيها.. بقدر

ما كان المرور على المرضى فرصة هامة للعناية بالمريض ولتعليم الأطباء، كان فرصة أيضًا لاستعراض العضلات والمعلومات الحديثة والتقليل من شأن الآخرين في بعض الأحيان.

لكن الحقيقة أن د. طاهر كان مهذبًا وعالمًا بحق وجرَّاحًا ماهرًا، وكانت له وجهة نظر محترمة في اعتراضه على تلك الجراحة، واحترامًا لقواعد العمل كان اللوم والنقد بالإنجليزية حتى لا يصل للمريض كثير مما يقولون.

- هل ترى يا خليل أن هناك إجراءًا جراحيًا أفضل من الترقيع في تلك الحالة.

- سيدي أنا مازلت صغيرًا وجاهلاً ولا يحق لي أن أنقد أستاذًا.

- أوف من خبث النواب، تكلم على اعتبار أن هذا مريضك ولا تعرف من الذي أجرى الجراحة له.

- أرى أن نقل شريحة من عضلات السمَّانة أفضل وسيمنع عودة التقرح.

هنا تدخل إبراهيم

- لو سمحت لي يا سيدي أليست ساق كهذه في رجل مصاب عدة مرات ستستهلك أكثر وتضعف وظيفتها لو استخدمنا عضلة من نفس الساق.

ردَّ عليه د. طاهر بحزم:

- لا تتكلم ثانية بدون إذن، فأنا أسأل السنيور ولم يأتِ دورك في الحديث.

ثم التفت إلى خليل طالبًا منه أن يكمل:

- هناك أيضًا حلول أخرى كنقل عضلة من الظهر وتوصيلها بشرايين الساق لتحمي العضام من التسوس، ولكنها عملية طويلة ومرهقة لرجل في الخمسينات.

- ما رأيك يا إبراهيم؟

رن هاتف إبراهيم ثانية فنظر إليه د. طاهر شذرًا وقال:

- طلَّع موبايلك واقفله ورد على سؤالي.

- آسف يا بيه.. رَدي على السؤال إن أفضل حل له هو الجراحة الطويلة التي ذكرها د. خليل إذا كانت وظائف القلب والتنفس لدى المريض بحالة جيدة وهي كذلك بالفعل.

- وأنا اوافقك الرأي، ولكن سنتابع حالة المريض حاليًا فقد يتحسن ولا نحتاج لجراحة ثانية رغم أنه احتمال ضعيف.

انتهى المرور على خير وبينما يوصلان د. طاهر لباب القسم قال لإبراهيم:

- انت كويس ويجي منك بس انت عيِّل خايب وتركيزك قليل ولو حد غيري كان مسح بيك بلاط العنبر لما يشوفك بتبص على رسالة في موبايلك في وقت المرور ع المرضى.

- معلش يا بيه أوعد حضرتك مكررهاش تاني.

بعد أن انصرف د. طاهر نظر خليل إليه قائلاً:

- أنا هطلع أناملي ساعتين تلاتة وعاوز انزل الاقيك خلَّصت غيار على كل الحالات اللي عندك عشان نشتغل عمليات الحوادث.. متصحنيش إلا لو فيه مصيبة بجد.

تركه وانصرف سريعًا، كان عيبه الرئيسي من وجهة نظر إبراهيم أنه لا يساعد في الرعاية اليومية للمرضى ولا يهتم إلا بغرفة العمليات وما يتعلق بها، كان جرَّاحًا ماهرًا ومعلمًا جيدًا وكان لطيف المعشر ليّن الجانب على خلاف حامد . كان أيضًا يعامل الممرضات جيدًا، ولكنه دومًا يضع مسافة بينه وبينهن.

أمسك هاتفه وكتب لعلا

"انا كمان تسعميت XO"

"عاوزة اشوفك اتصرف"

"أعمل إيه مينفعش اخرج"

"خلاص هجيلك اقعد معاك شوية"

"أنا قاعد دلوقتى لوحدي بس افرضي خليل شافك أقوله إيه"

"مش انت قلت ان ده شكري سرحان بتاعكم والتاني زكي رستم"

"أه بس اقوله إيه برضه"

"قولّه واحدة غلبانة وبعطف عليها.. والله غلبانة خالص وهموت لو ما شوفتكش النهارده.

"خلاص تعالي وزي ما تيجي بس انزلي بعد ساعة.

أنهى محادثته معها وقام ليبدأ الغيار على المرضى، مضى الوقت وأكمل عمله، ولم يتبقَ إلا حالة واحدة، جاءت له ليلى الممرضة وقالت له:

- شوفلك حل يا هيما في الست يسرية دي، مش راضية تقوم تغير.

- هيما إيه يا متخلفة احنا شغالين في ورشة.

- خلاص يا دكتور متزعلش تعالى بس كلمها بحنيتك دي.

قام معها إلى يسرية وهي مريضة مصابة بحروق عميقة في أماكن متفرقة وقصتها من المآسي المتكررة في مجتمعنا الرائع. كانت تحضِّر العشاء لها ولابنتها على نيران موقد يدوي الصنع يعمل بالغاز وهذه المواقد مسئولة عن نصف الحرائق التي تحدث في عشوائيات الدويقة وعزبة خير الله وما في حكمهما.. كان الناس من الفقر بدرجة لا تسمح لهم حتى باقتناء بوتاجاز بسيط.

احترقت هي وابنتها في الحادث؛ ماتت ابنتها وفقدت هي حملها ولم يتبق لها ولزوجها أبناء آخرون، مرَّ شهر وأكثر ومازالت تحت العلاج بعد أربع عمليات جراحية. ذهب إلى غرفتها وبدأ بالحديث إليها محاولاً إقناعها بالذهاب لغرفة الغيار وهي ترفض وتشترط حضور زوجها فقالت ليلى:

- يا بت مش جاي شوفي مصلحتك إلهى يولع هو كمان واغيرله بإيدي.

سألها إبراهيم عن معنى ذلك فقالت إن زوج المريضة لم يعد يأتي لزيارتها ولم يعد أحد يرعاها أو يهتم بها إلا أمها. كان الزوج في رأيها نذلاً؛ صحيح أن الرجل فقدَ ابنته وجنينًا كان ينتظره وتشوهت زوجته ولا يمكن أن تعود كما كانت، لكن ذلك لا يشفع له أن يفر بجلده ويتركها تواجه مصيرها وفواجعها وحدها.

ثم أضافت من حكمتها:

- صنف كله ندالة، الرجالة دول عايزين يتلموا كلهم في صفيحة واحده ويتقفل عليهم بحجر ويترموا في النيل ما يبانوش تاني صنف عايز ضرب الجزمة.

نظر إليها مشدوهًا وقال:

- الله يكرم أصلك يا مِس ليلى.

- لا يا يا دكتور انت مش م الرجالة.

- مش من الرجالة.. ؟؟؟؟؟

- يوه آسفه مش قصدي.. انت سيد الرجالة بس مش من الأشكال دي.

كان لسانها لا يكف عن الحركة، تتحدث بسرعة ألف كلمة في الدقيقة ثم تقول في نهاية حديثها "خليني ساكتة" لكنها كانت شديدة الإخلاص مع مرضاها وتعيش معهم مشكلاتهم الاجتماعية أكثر من الطبية. كانت أيضًا زوجة مصرية أصيلة تتحمل في زيجتها الكثير وتحضر للمستشفى أحيانًا بكدمة حول عينها أو أسفل خدها.

ذات مرة أصر أن يكتب فيها شكوى لأنها تحدثت إليه بشكل غير لائق لكن حامد نصحه بأن يسحب الشكوى وأن يؤدبها بطريقة أخرى وهو تحميلها أعباء زائدة في العمل وكانت وجهة نظره أنها إذا ذهبت لزوجها براتبها ناقصًا فسوف تنال منه علقة ساخنة ولن يصدق أنه خصم من راتبها نتيجة خطأ فعلته.

بعد أن أنهى غياراته صعد لغرفته في السكن، وبدَّل ملابسه وارتدى زي العمليات الذي يرتديه عادة أثناء النوبتجية لكنه انتقى واحدًا جديدًا ومكويًا بعناية، وحلق ذقنه وتعطر ونزل إلى القسم ثانية، وعندما أرسلت

له علا أنها عند باب المستشفى، نزل اليها كانت تركب سيارتها الجولف وأشار هو إلى حارس الأمن ليدعها تدخل وتركن سيارتها داخل سور المستشفى.

كانت عيناه تكادان تقفزان من مكانهما وقلبه يخفق بدوى خيل إليه أن الجميع يسمعونه، سلَّم عليها واحتضن يدها برفق ثم تركها قائلاً بطريقة مسرحية:

- اتفضلي يا هانم.. هلَّت أنوارك على المستشفى وأسعدتنا زيارتك السنية.

ضحكت بصوت عال فقال بسرعة:

- هششششش هتودينا في داهية خشي خشي.

صعدت معه إلى مكتبه وأجلسها فيه، وكان حريصًا على أن يفتح الباب على مصراعيه حتى لا يتكلم أحد أو تثار الظنون.

- تشربي إيه؟

- لما تاكل الأول أنا جايبالك ساندويتشات معايا.

- انتي جاية تزوريني في المدرسة.. مش هينفع ناكل دلوقتي.

- خلاص خليهم بعدين ابقى كلهم مع السنيور بتاعك.

قام وأعد لهما كوبين من النسكافيه وظلا يتجاذبان أطراف الحديث الذي افتقداه على مدار عشرة أيام، لكنها أكدت له أن اليوم الذي قضياه كان يستحق. تتمنى هي لو أنها معه في عالم موازٍ لا حدود فيه ولا حواجز ولا "حامد" ليتسنى لها أن تبقى معه حتى الصباح، كانا يتكلمان وعيونهما مصغية قبل آذانهما والأثير حولهما معبأ بموجات يبثها قلباهما.

دخلت عليه الممرضة ليلى قائلة:

- سوري يا دكتور.. يسرية عاوزاك.

- طيب ثواني.. ثم التفت إلى حبيبته واستأذن منها وتوجه إلى المريضة وهو يسأل ليلى:

- خير.. ؟؟؟

- مين العسل اللي معاك دي؟

- لمّى نفسك دي عضوة في جمعية خيرية وعاوزة تجيب تبرعات للعيانين.

- على طنط برضه.. دي قاعدة هتاكلك بعنيها وانت وِشّك احمر ع الآخر.

- خلاص متكتريش في الكلام.

ذهب لرؤية مريضته ثم عاد إليها ليجد خليل واقفًا عند المكتب.

- مين دي؟

- دي واحدة معرفة كانت معايا في شغل.

- طب اطلع البس واخرج معاها لو حابب بس قدامك ساعة 60 دقيقة تعمل منبه على موبايلك ساعة مايرن تيجي جري.

شكره وهو يطير من الفرح ثم أخبرها وقال لها إنه سيذهب ليغير ملابسه فقالت له:

- تعالى كده عشان منضيعش وقت.. اليونيفورم ده تحفة عليك.

- هينفع.. ؟؟؟

- أيوه عشان اترسم بيك وأقول أنا قاعدة مع أجمل واشطر جراح في الدنيا.

* * *

- 12 -

وصلت دعاء لبيتها بعد رحلة مرهقة من التبديل بين الميكروباصات وال"توكتوك" ترهقها أكثر من إرهاق العمل بعدة مراحل، ورغم أن ال"توكتوك" يقطع أقصر مسافة في رحلتها تلك إلا أنه كان أبغض جزء إلى قلبها فغالبًا ما يكون سائقة صبيًا دون الخامسة عشر من العمر يحاول أن يثبت رجولته بعدد المرات التي يكسر فيها قواعد المرور والأخلاق ومدى قذارة ما يستعمله من ألفاظ.

كان سائقها في تلك المرة رجلاً ثلاثينيًا لكن ملامحه كانت لا تريحها إطلاقًا، ولكن لأنه الوحيد الذي وجدته بعد رحلة مرهقة ويوم عمل شاق فقد ركبت معه وطمأنت نفسها أنها في منتصف النهار وأن مسكنها قريب وطريقها مزدحم لا يثير الخوف ومع ذلك فقد عدل الرجل من وضع المرايا امامه ليتسنى له النظر إليها وكان الحل المعتاد عندها هو تصنُّع اللامبلاة وأنها لم تلحَظ نظراته حتى وصلت.

استقبلتها عند الباب ابنة شقيقها الأكبر سعد واحتضنتها قائلة:

- عمتو دعاء وحشتيني.. العريس لسه ماشي.

- عريس إيه؟

تدخلت زوجة أخيها في الحديث قائلة:

- ده من بختشك يا حبيبتشي انك مشوفتشيهوش.. راجل مبعجر كده م الفلاحين وجلده أوي أخوكي قاله مع نفسك شوفلك عروسة في حتة تانية.

كانت بالطبع سعيدة برفض أي عريس يطرق بابها لكن تلك الطريقة والتدخل الفج في قرار يخصها كان يثير حفيظتها، تجاهلت رد زوجة أخيها وسألت أخاها عن سبب الرفض فأجابها أنه رجل "نطع" منذ أن بدأ في الحديث وهو يتساءل عن دخلها وراتبها وفي ما تنفقه وهل ورثت شيئًا من زوجها الراحل.

أحسَّت بأنه يبالغ وأنه يتحجج بأي حجة ليرفض من يتقدم لها. كان كل من يأتي لطلب يدها ترفضه هي وكان هو لا يعارضها أو يبدي حتى أسفه على ذلك الرفض حتى أحست بأنه مرتاح لرفضها لأنها هي من يرعى والدتها أغلب الوقت وحين تذهب لعملها تقتسم أختها مع زوجة أخيها التواجد مع أمها، ومعنى أن دعاء ستتزوج أن العبء سيزيد على زوجة أخيها (النحنوحة كما تسميها).

ذات مرة فكرت باختبار شكوكها فأبدت موافقة مبدئية على أحدهم وكان وجه أخيها بشوشًا ساعتها ما جعلها تلوم نفسها على ظنها به وبدأت في التفكير بحجة للرفض، ولكن ما لبث سواد الليل أن انقشع حتى جاء أخوها بحجة لرفضه. ساعتها تأكدت أن السبب لم يكن من أخيها وإنما كان من تأثير زوجته عليه وهكذا صار رفض من يتقدمون إليها بالتناوب حتى لم يعد يطرق بابها أحد إلا فيما ندر.

- إحنا ماشيين يا دعاء يا حبيبتشي.. الغدا عندك جوه سلام.

قبلتها زوجة أخيها قُبلَة باردة ثم غمزت لزوجها وأخذت طفلتها وسبقته إلى السلم، سلَّم أخوها عليها ثم قال بتردد:

- بقولك ايه يا دعاء معلش شوفيلي معاكي خمسميت جنيه لأول الشهر.

- لسه مقبضتش والله يا اخويا.

كانت لا ترد له سؤالاً رغم أنه كان لا يعيد لها نقودها كاملة في كثير من الأحيان، وكانت تعذره لأنها تعلم أن الغلاء الفاحش صار ينهش كل بيت وهي دخلها تحسن منذ أن تركت الحكومة وتفرغت للعمل في مستشفى ابن رشد الخاص.

كانت أحيانًا تعطي أختها الثانية رغم أنها لا تطلب منها وكانت تقسم كثيرًا أنها سترد جمائلها يومًا ما لكنها لم تفعل ولن تفعل فقد كانت حياتها هي الأخرى تمشي يومًا بيوم ولا تكاد تغير عباءتها السوداء إلا فيما ندر.

دخلت لأمها وسلمت عليها وجلست معها قليلاً.. كانت أمها لا تتحرك كثيرًا لسمنتها ولما تعانيه من الروماتويد الذي لم يترك مفصلاً لها على حاله، وكانت دعاء تتولى خدمتها وعرضها على أفضل الأطباء والذين يعملون معها في المستشفى، وكانت أمها تردد دومًا أنها لم تنجب إلا دعاء وأن دعاء هي قرة عينها ولا تنقطع دعواتها لها بأن يرزقها الله بمن يسترها.

كانت تلك الدعوات كثيرًا ما تبث في نفسها الأمل بأنه سيأتي يوم ويرق قلب عادل ويتزوجها رسميًا وأمام الجميع وهي تعلم أنه يخشى مثل تلك الخطوة التي ستفتح عليه أبواب الجحيم وأن أقل ما سيحكى عنه أن فتاة من عمر أولاده قد لعبت بعقله طمعًا في ماله.

لم يكن المال همها أبدًا بل إنها في أثناء واحد من أحلام يقظتها قررت أن تكتب إقرارا أنها لا تريد منه مالاً ولن ترثه وتعطي الإقرار لزوجته وأولاده إذا كان ذلك ما سيجعله يفكر أن يتزوجها في النور.

تناولت غداءها على عجل ثم جلست كعادتها لمشاهدة المسلسل الهندي الذي تتابعه يوميًا إلى أن رن هاتفها.. كانت أمل صديقتها.

- انتي فين؟

- في البيت بتفرج ع المسلسل الهندي.

-ارحمى أهلي بقى هو ان مكانش تركي يبقى هندي.

- اخلصي عاوزة إيه؟

- جايبالك خبر بمليون جنيه.

- إيه عادل خرج ؟

- يخرب بيت أم اللي خلّفت عادل، هو مفيش غير زفت.. لا يا ستي هناخدلك حقك ونمشّي الدكتور الـ... اللي اسمه محمود من المستشفى.

- ازاي؟

قصت عليها ما حدث اليوم حيث قام محمود بالتكلم مع ممرضة جديده بالمستشفى وظل يلمح لها طيلة النوبتجية، وفي النهاية طلب منها أن تأتي عيادته وعرض عليها نقودًا في المقابل.

- البت شبشبت له وخلته ميسواش وراحت لمشرفة المستشفى وقدمت فيه شكوى بعدها على طول طلعلها بتاع 6 بنات تانيين قدموا نفس الشكوى.

- امتى الكلام ده؟

-بعد ما انتي مشيتي علطول .

أكملت لها بقية الحكاية وهي تتكلم في حماس وحكت كيف تفاقم الموضوع وأن الفتيات هددن إدارة المستشفى بتقديم شكوى في النقابة إذا لم يتم إنهاء تعاقُد هذا الطبيب.

- طب وزمايله مش هيقفوا معاه.

- لاااا.. كلهم غسلوا إيدهم منه حتى حامد صاحبه بحكيله قالي أنا نصحته بس هو مصر واللي عاجبه الدح ميقولش أح.

ضحكت دعاء في فرح لكن ذكرتها سيرة حامد بموقفه منها عندما صارحته بزواجها من عادل فمهما حاول أن يبرر سبب انفعاله ساعتها فقد وصل لها إحساس عميق بأنه لا يخرج معها إلا لأن في رأسه خطط أخرى غير معلنة. كانوا كلهم وجوه مختلفة لعملة واحدة قد يسلك كل منهم طريقًا مغايرًا للآخر لكن كل هذه الطرق تنتهي إلى غاية واحدة. لم يفكر أحدهم فيها كإنسانة ولم يقدر أحدهم معاناتها أو احتياجاتها.

يتعاملون معها جميعًا على أنها قرص مسكن وهم أنواع مثلهم مثل المرضى الذين يأخذون المسكنات: فعادل العجوز الذي يأخذ المسكِّن ليريح آلام مفاصله ويمنحه الثقة والإحساس بأنه مازال قادرًا على المشي كشاب صغير وحامد هو الشاب الذي يأخذ المسكن ليلعب في ال"جيم"

ليستشعر رجولته متجنبًا آلام عضلاته لكنه يحتاط قبل أن يأخذه ليتأكد من أنه لن يصاب بأعراض جانبية، أما محمود فهو مدمن ال"كيميا" يحقن نفسه بأي مسكن في أي وقت دون التفكير في العواقب.

تشعر أن الرجال لم يُخلقوا في هذه الدنيا إلا لألم النساء وأنهم ذلك العقاب الأبدي الذي تقرر على بنات حواء وتعزي نفسها كثيرًا بما تراه في صديقاتها أو حتى في طبيبات يعملن معها وكثيرات منهن يلاقين الكثير من الرجال يفصحن عن بعضه ويكتمن أغلبه.

كانت حكمتها تلك ترشحها بجدارة لأن ترأس جمعية من جمعيات كارهي الرجال المتعددة بل إنها لو أوتيت حظًا من الثقافة لألّفت كتابة أسمته "ضرب الأمثال في ندالة الرجال" أو "سرعة الأجل في تصديق الرجل".. انتبهت من أفكارها على مشهد في المسلسل للبطل وهو يبكي على حبيبته المريضة فمصمصت شفتيها وهي تتمتم:

- جاتنا نيلة في حظنا الهباب.

* * *

- 13 -

اليوم هو أول أيام محمد في العمل بعد إجازة تجاوزت العشرة أيام. لملم شتات نفسه في تلك الفتره وبدأت غيامات الحزن الثقيلة في الانقشاع التدريجي.. كانت أطول فترة قضاها مع زوجته وابنته منذ تزوج حيث لم يكن يسافر إلا ثلاثة أيام في نهاية كل أسبوعين وكان ما يغضبه في إبراهيم أنه كان يصر على اقتسام إجازات نهاية الأسبوع بالتساوي معه برغم كونه أعزبَ.

كان أكثر ما شرح صدره هو أنه وجد ذالك الطفل الذي كان يرعاه ليلة وفاة أبيه يلعب في غرفته وقد تحسنت حالته. بدأ مروره الصباحي على المرضى بمعنويات مرتفعة محاوِلًا الاندماج ثانية في جو القسم.

استدعاه الدكتور عبد الحفيظ وهو أستاذ كبير في القسم وذو سطوة كان وجوده يبعث تيارًا كهربائيًا في المكان ويجعل الجميع ينتفضون من أماكنهم للبحث عن عمل لإنجازه وللابتعاد عن مرمى لسانه.

كان محمد معجب بشخصيته الحازمة وحضوره الطاغي رغم ذلك الضغط العصبي الذي يقع عليه وعلى زملائه طوال فترة تواجد الدكتور عبد الحفيظ. حاول أن يجد له مفتاحًا أو طريقًا يتزلف بها إليه لكنه لم يستطع، فالرجل مولع بإصدار أحكامه الشخصية على من يعملون تحت إمرته بغض النظر عن محاولتهم إرضاءه.

هرع محمد إلى المكتب لتلبية استدعائه وهو يبسمل ويحوقل ويدعو الله ألا يكون قد فعل ما يغضب هذا الرجل، دخل إلى المكتب فوجد الدكتور عبد الحفيظ يجلس وإلى جواره سيدة في الأربعينات من عمرها وتبدو عليها آثار النعمة.. بدأ الدكتور عبد الحفيظ بالكلام:

- ازيك يا محمد.. البقاء لله.

- ونعم بالله يابيه.

- ذا كان والدك اتوفى فانت لازم تعرف انك ابننا كلنا.. أي حاجة تحتاجها حتى لو شخصية إحنا كلنا مكان السيد الوالد الله يرحمه.

أسرته تلك اللهجة الحانية الأبوية التي يتكلم بها معه قبل أن يستطرد كلامه قائلاً:

- المهم.. انت مستعد ترجع الشغل وللا تروح تريح كمان يومين.

- أكيد يا بيه، أنا مستعد.

- عشان انت عارف أنا معنديش أعذار في الشغل مادام قبلت ترجع يبقى تشيل الشغل وملكش حِجة تغلط في حاجة.

كان يضع له النقط على الحروف ويغلق لديه باب الرجعة وفي نظر محمد كانت هذا إيذانًا بانتهاء عبد الحفيظ الأب الحنون وعودة عبد الحفيظ الأستاذ الصارم.

- بُص بقى.. هتاخد مدام تهاني أوضة الكشف عشان هبُص عليها هي عاملة تجميل في بطنها قبل كده ومش عاجبها.

هنا جاء دور عبد الحفيظ المرهِق كثير الطلبات؛ نفَّذ محمد ما أمره به واصطحب المريضة لغرفة الكشف. عندما كشفت المرأة عن بطنها اتسعت عينا محمد من الدهشة؛ فقد كان بطنها مشوهًا بمعنى الكلمة من أثر محاولة جراحية سابقة لتجميله وعندما رآها د. عبد الحفيظ ابدى امتعاضه قائلاً:

- زي ما قلتلك اللي عملك العملية دي مش جراح تجميل ده في تخصص تاني بس معاه شوية فلوس عمل بيهم مركزين تجميل ودفع عشان يطلع في التليفزيون وعشان ينصب بيهم على مخاليق ربنا.

هز محمد رأسه مؤمنًا على كلامه وهو يقول "تمام يا بيه".

- أنا بعلم تلامذتي زي د. محمد انه عمره ما يغلط في جراح زميله أو يعيب عليه إن حصل مضاعفات لأن دي وارد تحصل مع أي جراح إنما ده مش جراح ده نصاب ولسه فيه واحد زيه مسجون، عارفه يا محمد؟

- أيوة يابيه بس التاني حظه انه وقع في ممثله عشان كده خدت حقها وسجنته.

- عندك حق البلد دي محدش بياخد حقه فيها غير الرقاصات ولعيبة الكورة.. بس يعني مش كفاية عامل كده ده كمان فاتح عيادة في مول تجاري يعني قمة الإهانة للشغلانة بتاعتنا.

كان محمد يتضايق من تلك الطريقة في وصف الأشياء، ولكن الرجل كان محقًا فالكوارث التي يفعلها أمثال هذا المدعي كثيرة وتنعكس سلبًا على سمعة جراحة التجميل ونظرة المجتمع لها.

- هتاخد مدام تهاني وتطلع بيها قسم القلب تخلي نايب القلب يقيسلها الضغط بنفسه ويعملها رسم قلب وأستاذ يشوفه وتيجي تقولّي النتيجة.. خلي بالك منها دي عيانة VIP.

قالها د. عبد الحفيظ ثم تسمرت عينه على بقعة متسخة في أرض الغرفة، سأل إبراهيم:

- هو حامد هيخلّص نيابته إمتى؟

تفاجأ محمد بالسؤال، ولكنه أجابه أنه بعد شهرين أو ثلاثة.

- بعد كده هيبقى انت وإبراهيم السناير صح؟؟

أومأ محمد رأسه بالإيجاب رغم أنه لم يفهم مغزى السؤال بعد.

- طب روح هاتهولي من العيادة الخارجية.

غاب دقيقتين ثم عاد ومعه إبراهيم.. نظر إليهما د. عبد الحفيظ شذرًا ثم أشار إلى بقعة في الأرض تبدو فيها مادة سوداء تخرج من بين قطع السيراميك.

- إيه القذارة دي؟

- ده من زمان يا بيه.. كان هذا رد محمد.

- النهارده في النبطشية الأرضية دي تنضف وتصوروها وتبعتوهالي على الموبايل.

ردَّ محمد ثانية:

-بس دي يا بيه ممكن تعوز جاز أو تنر.

- مليش دعوة هتنضف ازاي أو مين هينضفها المهم تنضف.

دخلت عليهم إحدى الممرضات في تلك اللحظة تخبرهم أن هناك استدعاء لنائب التجميل من الطوارىء فقد استقبلت المستشفى عدة طلاب مصابين بطلقات نارية في مظاهرة في جامعتهم. نزل إبراهيم إلى الاستقبال مسرعًا بينما ذهب محمد للقيام بما كلفه به د. عبدالحفيظ.

عندما وصل إبراهيم إلى الاستقبال توجَّه إلى المريض الذي تم استدعاؤه له بينما المرضى الآخرين يتم معالجتهم بواسطة أطباء من تخصصات أخرى كان مريضه شابًا لا يتجاوز العشرين وقد تهتكت الأنسجة المحيطة بمرفقه وتكشفت عظمته.

سأل المريض عن ملابسات إصابته فأجابه بأنه كان في تظاهرة في الجامعة وأن الشرطة أطلقت النار عليهم وأقسم بأغلظ الأيمان أن الضابط الذي أصابه كان ينظر في عينه وهو يصوب على ذراعه.

- طب احمد ربنا انه طلع كويس ومداهالكش في دماغك.

- ده ظابط ابن.. وأمه.. هو فيه حد يضرب رصاص حي على مظاهرة وبينشن على دراعي كمان بـ.. أمه.

من طريقة سبابة تأكد إبراهيم أنه ليس إخوانيًا وأنه شارك في المظاهرة بدافع آخر غير عودة "المأفون مرسي" كما كان يسميه وأن القمع المبالغ فيه قد أدخل نوعيات أخرى من الشباب في الاحتجاج ربما كان أغلبهم ضد حُكم الإخوان وقبل أن يتكلم عاجله الشاب بتفسير آخر.

- على فكرة يا دكتور أنا الإخوان دول ما اقلعهمش من رجلي بس لما أنا وواحد صاحبي بننط من على السور الإسبوع اللي فات عشان نهرب بعيد عن المظاهرات وصاحبي يتنش طلقة ويقع قدامي ابقى مرة لو سكت.

غيَّر إبراهيم مجرى الحديث وأخبر الفتى أنه ينبغي حجزه في المستشفى فألحَّ عليه الفتى أن يتركه لأنه خائف من أن يتم القبض عليه لكن إبراهيم طمأنه ثم قام بالاتصال بحامد وإبلاغه بحالة المريض قبل الحجز. أنهى أوراق المريض ثم عاد للقسم ثانية وعندما قابله حامد سأله:

- حجزت العيان لوحدك وّلا انت والعظام؟

- لا لوحدي.. العضمة كانت سليمة قدامي بس مكشوفة.

انفعل حامد عليه ونهره لأن أي مريض مصاب بطلق ناري قد يكون فيه إصابات غير ظاهرة في البداية وغالبًا ما تكون العظام المجاورة لمكان الإصابة مكسور.

- انزل يا افندي صلّح العك بتاعك.. شوف العيان واعرضه على العضم والجراحة.

نزل إبراهيم للاستقبال مرة أخرى وترك حامد وهو يضرب كفًّا بكف بعد عدة دقائق عاد إبراهيم وهو مبتسم وأخبره أن المريض هرب وأنه قد أنهى مذكرة هروبه وبذلك انتهى الكابوس الذي أزعج حامد.

- يابنى قدامك شهرين وتبقى سنيور.. ركِّز شوية في عرض النبي.

و بينما هما يتحدثان ويعدان للعمل الذي سيتم إنجازه في النوبتجية دخل عليهما ضابط واثنان من أمناء الشرطة.

- مين حامد عبدالعليم؟

- أنا.. أي أوامر.

- انت اللي حجزت المواطن ساهر متولي الشربيني المصاب بطلق ناري في المرفق الأيمن.

هنا تدخل إبراهيم قائلاً:

- لا أنا اللي حجزته.

استوقفه الضابط قائلاً:

- أنا ليا الختم اللي على ملف المواطن.

- عادي احنا بنختم بختم أي حد فينا بس انا اللي حجزته.

هنا تدخل حامد بفراغ صبر قائلاً:

- ماشي أنا اللي حاجزه.. إيه المشكلة؟

- انت هتتفضل معانا عشان انت متهم بتسهيل تهريبه وهو متهم بإثارة الشغب وتكدير السِّلم العام.

انفعل حامد وقال له إنه طبيب ومسئولية مراقبة المريض تقع على عاتق التمريض وأفراد الأمن، ولكن هيهات اقتاده الضابط معه إلى قسم الشرطة ومعه نائب الجراحة ونائب الطوارىء .

أسقط في يد إبراهيم وأحس بالذنب تجاه حامد، أمسك هاتفه وطلب رئيس القسم مبلغًا إياه بما حدث؛ طمأنه رئيس القسم وأخبره أنه سيتخذ اللازم للإفراج الفوري عن حامد. بعد وقت قصير وصله الخبر أن مدير المستشفى ذاهب مع مسئولي الشئون القانونية لقسم الشرطة لمحاولة الإفراج عن حامد وزميليه.

* * *

-14-

أراد إبراهيم لهذا اللقاء أن يكون مختلفًا، كانت أغلب لقاءاته الأخيرة مع علا تتضمن الذهاب إلى السينما والجلوس في مكانٍ هادىء ولم يكسرا هذه القاعدة إلا مرات قليلة جدًا لعل أجملها كان منذ عدة أشهر حين ذهبا معًا إلى ملاهي مائية تقع على أطراف القاهرة، وكان أول يوم لهما يقضيان وقتًا بهذا الطول فقد ظلا معًا طوال اليوم تقريبًا.

رآها قادمة تجاهه بسيارتها حيث اعتاد أن ينتظرها.. كانت أروع لحظات لقائهما عندما يري تلك البشاشة والابتسامة العريضة التي تنير وجهها حين تقع عينها عليه وسط زحام الشارع.

كان يعشق تأملها، النظر إلى وجهها المستدير والحمرة التي تملؤه حين يخجلها من إطالته النظر في عينيها، النظر إليها وهي تمشي أمامه حين تتركه لشراء شيء ما، كانت تملأ قلبه بالبهجة. كانت مشيتها أكثر من عادية ولم تكن تمتلك قوام غادة هيفاء ولا قدًّا كغصن البان لكنه كان بتأملها ينعش روحه المرهقة.

-هنروح فين؟

- أنا عازمك النهارده هنلعب بولينج.

- بس أنا عمري ما لعبته.

- ولا أنا، ودي أحلى حاجة في الموضوع وبعدين النهاردة مناسبة خاصة.

كان سعيدًا جدًا لأنه تمكن من إجراء جراحة صعبة بمساعدة أحد أساتذته وقد ملأه ذلك نشوة وأحب ان يتشارك معها تلك اللحظة.

- أنا متأكده انك هتبقى جرَّاح ممتاز.. وبالمناسبة دي أنا هعزمك على العشا.. قالتها ثم توقفت كأنها تذكرت شيئًا.

- مقولتليش حامد عمل ايه؟

- كويس لسه في إجازة.. هو مقعدتش في قسم الشرطة غير حوالي 6 ساعات وبعدين خرجوهم كلهم ورئيس القسم قاله ريح بقية الإسبوع.

- بس والله طلع ابن حلال وكنا ظالمينه.

كان إبراهيم يشعر بالامتنان الشديد لموقف حامد الذي كان بإمكانه أن يقنع الضابط أنه غير مسئول ويلقي التبعة على إبراهيم لكنه كان رجلاً وتحمل الموقف عن طِيب خاطر.

عندما كلمه إبراهيم ليطمئن عليه ويشكره على موقفه أخبره أن ما حدث غباء شديد من شرطة لا تعرف عن الأمن إلا الاعتقال الجزافي لأول شخص يقابلونه أمامهم وأن الصدفة وضعت إبراهيم في هذا الموقف والصدفة فقط هي من جعلت حامد يتحمل تبعاته.

- هو مش وحش وعلمني كتير.. بس لو لسانه يخف ويبطل عط هيبقى مفيش زيه.

- ااه ربنا يكملك بعقلك يا حبيبي وتكون متعلمتش دي منه.. صحيح مايسة أخبارها إيه؟

- ههههههههه دي غيرة بقى.. قولتلك دي بت غلبانة وانا بكلمها عادي حاسس اني بحافظ على توازنها النفسي في وسط المشاكل اللي هي فيها.

ابتسمت وقالت :

-توازنها النفسي ماشي بس ملكش دعوة بتوازنها الجسدي.

انفجر ضاحكًا من جملتها وهو في قمة سعادته أن رأى الغيرة طاغية على كلماتها ولا يدري أن علاقتهما في هذه اللحظة محور حديث يدور في المستشفى بين محمد ود. هاني المدرس الذي يتواجد معه في القسم حاليًا للمرور على المرضى.

كان محمد لا يشعر بالارتياح أبدًا لهذا الرجل مثله مثل بقية زملائه فقد كان مصدرًا للإزعاج أكثر من كونه مصدرًا للعلم أو للعناية بالمرضى ولذا لم يثر دهشته حين سأله:

- صحيح يا محمد ما تعرفش مين الست اللي كانت بتزور إبراهيم هنا في القسم وخدته في عربية بي ام ومشيت.

- والله يا بيه أنا كنت في اجازة، وبعدين أنا وهو مبنحكيش لبعض على حياتنا الخاصة.

- يعني مسمعتش حاجة، ده فيه ناس بتقول انه مظبطها على الآخر وهيخليها تفتح له مركز ليزر.

- ازاي يعني يابيه ده لسه مخدش ماجستير حتى.

كان يجيد الرد على هاني ويفهم طريقته في محاولة استنباط أخبار الموجودين بالقسم عن طريق إلقاء أسئلة عشوائية عن أمور اختلقها

وألبسها رداء الحقيقة. رن هاتفه في هذه اللحظة فاستأذن من هاني للرد عليه كان شقيقه عليّ:

- ايوه يا محمد.. انت جاي الخميس ده أكيد؟

- اه إن شاء الله خير؟

- الحاج إسماعيل عاوز يشتري المحلات بتاعتنا بالبضاعة اللي فيها.

- ازاي يا علي.. ما ينفعش ده ابوك عاش عمره يكبر فيها.

قاطعه في هذه اللحظة صوت هاني يناديه فأغلق الخط مع أخيه على وعد باستكمال مكالمتهما، سببت له تلك المكالمة ضيقًا شديدًا، فقد كان أبوه يمتلك محلين شهيرين لتجارة الأدوات المنزلية في أكبر شوارع مدينته كفر الشيخ كان قد بدأهما بمحل صغير شاركه فيه "الحاج إسماعيل" الذي سرعان ما فض شراكته مع أبيه الراحل وتركه في ضائقة مالية شديدة بدأت بعد ذلك قصة كفاحهم جميعًا في تنمية تلك التجاره فكان هو وأخوه يقضيان معظم أوقاتهما في المحل وأبوهما يعمل في اتجاهات أخرى لدعم تجارته حتى نمت وصار المحل اثنين.

كان متعلقًا بهما فقد أخذ شهادتيه الإعدادية والثانوية وهو في محل والده، وكان أبوهما شديد الاعتزاز بهما ويعتبرهما إنجاز حياته ولذا فإن قرار بيعهما سيكون صعبًا على نفسه والأسوأ أن المشتري كانت علاقته بأبيه سيئة وبينهما ما طرق الحداد.

انتزعه هاني من أفكاره وهو يقول له مغيرًا مجرى الحديث.

- شِدّ حيلك يا محمد في الشغل أنا عارف ان حامد مقرف ومبيعلمكمش حاجة.

لو قيلت هذه الجملة من أحد غير هاني لتلقفها محمد ومضى يندب حالة لكنه يعرف أن هاني رجل "نابه أزرق" يتصيد الكلام والأخطاء ليستطيع أن يتحكم بها في النائب ويجعله عينًا له يبلغه بكل شيء. محمد كان متملقًا إلى حد ما إلا أن أخلاقه لم تكن أبدًا لتسمح له بأن يكون عينًا على زملائه أو أساتذته. وليقطع عليه المحاولة في هذا ويتجنب لومه أيضًا الاتجاه فقد رد عليه بأدب جم.

- والله يا بيه هو عليه حمل كبير في الشغل لأن أنا وإبراهيم كنا بنوقعه في مشاكل كتير بس الحمد لله الأمور أحسن وبقينا كويسين والبركة طبعًا في مجهود حضرتك وبقيت أساتذتنا في تعليمنا.

قلب هاني شفتيه بامتعاض وهو يقول:

- اتغيرت يا محمد ومبقيتش زي الأول.. فيه ناس مش كويسة قعدت معاك وغيرتك.

نظر إليه محمد بدهشه وكتم ضحكة كادت تفلت منه – نعم ضحكة – فقد تنبأ له حامد بهذا الحوار بنفس النص من قبل في أول تعيينه عندما كان مستغربًا من اتهام البعض لهاني بأنه شخص سيء رغم ما لمسه محمد من حسن خلقه في البداية وقال له:

- دي حركات.. بكره لما يفشل انه يخليك العصفورة بتاعته هيقلب عليك ويقولك انت سلوكك اتغير والناس الوحشة سممت أفكارك.

حاول محمد ساعتها تلطيف الجو بطريقته المعهودة :

-بس ألف مبروك لابن حضرتك يا بيه شفت ع الفيس بوك وحضرتك كاتب أنه خد بطولة القاهرة للناشئين في الجود.

فطن هانى لمحاولة محمد لكنه ابتسم قائلاً:

- طالع لأبوه وأنا في سنه كنت واخد بطولة الجمهورية.

- عقبال أخوه الصغير كمان يا بيه.

في ذلك الوقت كان إبراهيم وعلا يلعبان البولينج..

- والله يا إبراهيم انت بتهرج وشكلك بتلعب من زمان.

- والمصحف أول مرة، بس الرجالة عندهم إحساس بالاتجاهات أكتر من الستات عشان كده غلبتك.

بالطبع رفضت حجته وهي تؤكد أن المرأة أمهر من الرجل في كل شيء وأنها تتفوق على كل أقرانها من الرجال في مجال عملها وأن المشرفين على بحثها يؤكدون أنه سيكون بحثًا عالميًا.

- حبيبتي انتي مفيش منك غير واحدة بس.. باحثة لامعة وأم ماهرة وأنثى جذاااابة.

احمرَّ وجهها خجلاً من طريقة نطقه لكلمة جذابة وهي تسأله بدلال:

- بجد.. ؟؟

نظر في عينها بابتسامة هادئة وقال:

-جد الجد يا ام أنس

عبست ملامحها بشكل طفولي وخبطته بكفها على كتفه وهي تقول

- أم أنس في عينك.. طيرت الدماغ الرومانسية اللي عملتهالي بالكلمتين الحلوين اللي فاتوا.

ضحك وهو يؤكد لها أنه لم يقصد ولكن لحظات الرومانسية الشديدة التي تحدث بينهما تعصر قلبه وتضغط على رئتيه حتى يستطيع غير قادر على التقاط أنفاسه فيحاول تهدئتها بقليل من المزاح.

- بس إيه الدماغ الرومانسية دي لو ابن الملوح سمعك كان بطل شعر.

- طب يللا عشان نتعشى.

أمسك يدها وتوجها معًا إلى المطعم الذي سيتناولان فيه العشاء، جلسا في ركن قصي بعيدًا عن الأعين وطلبا العشاء وبينما هما يأكلان أمسكت بقطعة من اللحم المشوي في شوكتها وهي تقول:

- خد دي من إيدي.

اقترب بفمه ليأخذها فوضعت طرف قطعة اللحم في فمها ليأكلا منها في نفس اللحظة، تناول قضمته ثم تراجع سريعًا بعد أن تلامست شفتاهما وهو يقول:

-حد خد باله.

- لا يا اخويا.. إيه الرعب اللي انت فيه ده.

و قبل أن يرد عليها فوجئا بالنادل فوق رأسهما ووجهه مكفهر وهو يقول:

- الأكل عجبكم يا افندم.

أومأ إليه بالإيجاب وعندما انصرف نظرت إليه وانفجرا ضاحكين وبعدما كفَّا عن الضحك ظل ينظر إليها مليًا ثم قال فجأة:

-ما تيجي نتجوز.

* * *

- 15 -

جلس حامد في مكتبه في مستشفى ابن رشد الخاص وهو يسترجع ذكريات ذلك اليوم السيء الذي مر به حين تم اقتياده وزميلين له كالمجرمين إلى قسم الشرطة. كان حتى تلك اللحظة من أشد المدافعين عن التغيير الذي حدث في مصر في الأونة الأخيرة يبرر القمع العنيف وعودة سطوة الأمن ويرى أن هذا هو الحل الوحيد لاستقرار هذا البلد.

بعد تجربته تلك أيقن أنه لا عيش له في مصر وأن عليه أن يسافر بعد أن يكمل الشهرين القادمين وأن السفر أكرم له من بلد يتناوب على حكمه "اللصوص والحمقى والقتلة" كما يقول.

تضخمت في عينيه كل العيوب وكل الصعاب التي يلاقيها في بلده. صار أكثر حنقًا على نظام اجتماعي يسحق أطباء مثله ويعلّي من شأن السفلة. قارن بينه وبين ذلك الذي يرتدي زِي ضابط الشرطة وكيف يتعامل هذا الشعب بكل صلف وقلة أدب مع طبيب يداويه في الوقت الذي يكادون فيه أن يسجدوا لشاب أصغر منه تصادف أن اجتمعت فوق كتفه ثلاث نجوم.

لم تكن الست ساعات التي تم احتجازه فيها بالسوء الذي يراه في الأفلام السينيمائية، ولم يتحرش به المجرمون في الحجز كما كان يتوقع لكن طريقة التحقيق معه تركت في صدره جرحًا غائرًا، كمية السباب والقذارة

التي رآها كانت فوق احتماله وطبيعته العصبية كانت تجعله يرد عليهم فيتم ضربه بطرق شديدة الإيلام والإهانة.

حضر مدير المستشفى والمحامون من الشئون القانونية لإخراجه هو وزملائه لكن لم يتم إخراجهم إلا بعد حضور ضابط من الأمن الوطني، جلس معهم الثلاثة وأكد أنهم غير مقصودين بما حدث وأن القبض عليهم كان خطأً.

يذكر عودته لبيته واغتساله من آلامه وأفكاره ولم يخبر زوجته بما حدث إلا بعد أن جلس واستراح وتناول عشائه لأنه يعلم لهفتها الزائدة عليه. لم يحك لها الكثير من التفاصيل فقد كان يضايقه ذلك الحنان الأمومي الزائد الممزوج بالشفقة.

انتزعته من أفكاره دعاء وهي تفتح الباب وتدخل عليه باكية ثم تضع رأسها على كتفه ويتعالى بكاؤها بشكل هيستيري.

- يا بنت الهبله هتفضحينا اهدي.. لو حد شافنا يقول ايه.

جلست وأخذت تلتقط أنفاسها حتى هدأت فسألها عن سبب بكائها.

- عادل طلقني.

- ألف بركة.. و ده اللي مزعلك تصدقي انك بت فقرية.

- قاللي انه سابلي مبلغ في البنك وانه دول كانوا هيبقوا نصيبي لو كان مات في الجلطة دي ،بس أنا عاوزاه يخليني جنبه ومش عاوزه فلوس.

اتسعت عينا حامد وخُيِّل إليه أن الفتاة تهذي فخبط كفا بكف وهو يقول:

- فلوس ايه هي الحداية بترمي كتاكيت، اهدي كده واحكي اللي حصل بالحرف.

بدأت تحكي له كيف جلست في الغرفة المجاورة لغرفته حتى انصرف من عنده كانت لا تستطيع الاقتراب من غرفته أو المرور بجوارها في وجود زوجته فهي تعرف شكلها قاطعها حامد قائلاً:

- تعرف شكلك منين هي شافتك فين قبل كده؟

قصت عليه أن زوجة عادل ضبطتهما معا يجلسان في "كافيه" فاخر في المهندسين وكانا يجلسان في وضع يوحي أنهما عاشقان مندمجان وكيف قامت زوجة عادل بالواجب معهما.

- يخرب بيتك وكل ده وكنتي مستحملاه برضه؟!

لم تلتفت لمقاطعته وأكملت حكايتها، بعد أن انصرف الزائرون من عند عادل دخلت عليه واحتضنته برفق فقبَّل رأسها.. لمستها تلك القُبلة جدًا وأحست فيها حنانًا جارفًا لم تلمسه منه من قبل نظر إليها مليًا واعتذر عن كل ما سببه لها من آلام قال لها إنه حين كان يقترب من الموت أدرك أنه في حياته لم يظلم إنسانًا أو يهضم حق أحد إلا هي وأنه عاملها كأنها من سقط المتاع ولم يعطِ اعتبارًا لحياتها أو لمشاعرها.

بكت كثيرًا عندما سمعت منه هذا الكلام فربت على كتفها وأكمل كلامه، أكد لها أنه يعلم أنها أحبته بصدق وأنها كانت زوجة وفية رغم كل شيء وأن أكبر ذنب كان سيرافقه إلى قبره أنه سيموت وهي لن تأخذ حقها ولن تُعامَل كزوجة له.

أخبرها أيضًا أنه سيسافر للخارج لإجراء استبدال شرايين في قلبه وقد لا يعود، ردت هي بالطبع بعشر جمل على الأقل من عينة "بعد الشر عليك" و"إن شالله اللي يكرهوك".. إلى آخره.

بعد ذلك صدمها بقراره النهائي؛ فقد أخبرها انه سيطلقها الآن وأنه سيعطيها حقوقها أكثر مما تتخيل وسيعوضها عن كل الذل الذي رأته معه في سنين ارتباطها به وأن المال الذي سيعطيه لها يليق بامرأة كانت زوجة لعادل منصور.

اعترضت هي وطلبت منه أن تكون جواره ولو حتى خادمة ولا تريد أي مال؛ قاطعها مازحًا بأن صحته لم تعد تتحمل أن يكون إلى جوار امرأةٍ في عنفوانها ثم عاد إلى جديته وقال لها إنها لا تزال صغيرة وأن عليها أن تعيش عمرها. رمى عليها كلمة الطلاق وأخبرها أنه مزق أوراق زواجهما وأن المحامي سيتصل بها خلال أيام.

صمت حامد مصدومًا وغير مصدق لحديثها ثم قال:

- يا بن اللذينه عاوز يشتري مغفرة ربنا بفلوسه من ناحية وسكاتك من الناحية التانية وانتي ونصيبك شوفي بقى الفلوس اللي تليق تليق بطليقة عادل منصور يطلعوا كام.

نظرت إليه وهي لا تعرف هل تسعد وتنسى كل آلامها أم تحس أكثر بدونيتها وأن المال الذي سيتركه لها مهما كثر ما هو إلا أجر على الأيام التي قضتها معه. أفضت لحامد بما تفكر فيه فنهرها قائلاً:

- ده حقك وبعدين هو انتي بتعشقي الغم ليه ده لو صدق في كلامه هيسيبلك فلوس تعيِّشك ملكه.. ده انتي ممكن تفتحي مركز تجميل وتشغلينا عندك.

ضحكت من بين دموعها على كلمته قائلة:

- وديني لاخصملك في الراحة وفي الجاية.

- انتي هتزيطي يا روح امك ده أنا بهزر معاكي عشان تفكي بس.

ضحكت ثانية بصوت عالٍ هذه المرة ثم طلبت منه أن يحكي لها نكتة.

- بس انتي عارفه نُكَتي.

- قول مش مشكلة، أنا نِفسي اضحك.

قصَّ عليه نكتة ماجنة من مخزونه الغني ثم استغرقا في نوبة من الضحك الهيستيري حتى دمعت عيناه وانقلبت سحنته فجأة ولاحظت هي فسألته:

- مالك كفى لله الشر؟

- مفيش حاجة روحي على شغلك يللا.

ألحت عليه في البقاء ومعرفة السبب لكنه رفض بحزم وطلب منها أن تتركه وحيدًا، كان من الواضح أنه لم يتعافَ بعد من ذلك الجرحِ الغائر الذي ضرب أعماقه وتساءل بينه وبين نفسه عن حال زملائه المحبوسين إذا كانت خمس ساعات فعلت به ذلك فماذا يفعل من قضوا خمسة أشهر حتى اليوم هل تخف مرارة الاعتقال عنهم نظرًا "للوهم" الذي يعيشون فيه وظنهم "الزائف" بعدالة وقدسية ما يدافعون عنه.

إنهم في نظره لا يختلفون كثيرًا عن الحشاش الذي انفصل عن الزمان والمكان ويتحمل كل قبيح في حياته وهو يظن أنه يحلِّق في السماء، هم يظنون أنهم يعيشون لمرضاة الله وأن قتلاهم في الجنة وسجنهم محنة إلهية سيكافئون عليها كأبطال الأساطير أو كشهداء بدر وأُحُد.. يالسذاجتهم.

- د. حامد فيه واحد متعور في وشه في الاستقبال وعاوزين تجميل.

نظر بفتور لعامل الاستقبال قائلاً :

قولّهم نازل حالاً.

تناول البالطو الأبيض وارتداه سريعًا ونزل إلى الاستقبال فوجد شابًا صغيرًا مصابًا بوجهه ويبدو أنها بسبب مشاجرة.. عاجله والد الشاب قائلاً:

- عاوزين تجميل يا دكتور مش عاوزينها تبان وهدفع زي ما تقول.

هزَّ رأسه بالموافقة ولم يرد على الرجل ثم التفت إلى الممرض المساعد له قائلاً

- عاوز خيط برولين مقاس سبعة زيرو تدخلت والدة الشاب قائلة:

- بنقولك تجميل يا دكتور مش عاوزين خيط.

بنفاذ صبره المعتاد وبلهجة ساخرة رد عليها قائلاً:

-خلاص بلاش خيط.. أنا هرقيلك الجرح وهو هيقفل لوحده.

استنكرت المرأة رده وتساءلت في غضب عن سبب مزاحه.

- يا افندم حضرتك اللي بتهزري مش أنا، هو الجرح هيخف ازاي من غير ما اخيَّطه.

- احنا نسمع ان فيه لزق وليزر وكده.

كانت حالته المزاجيه سيئة للغاية لا تسمح له بالمجادلة ولا بالشرح أو محاولة تصحيح المفاهيم الخاطئة، فردَّ على الوالدين بحزم أن هذه هي طريقة العلاج الوحيدة.

- أنا طالع مكتبي وحضراتكم فكروا لو وافقتوا تخيطوه قولوا للممرض وهو هيتصل بيا.

* * *

- 16 -

مرت أربعة أيام على إبراهيم منذ أن طلب من علا الزواج كان في كل لحظة منها يكاد يعض لسانه عقابًا له على تلك الجملة، تمنى لو ترجع الساعة للخلف حتى يسحبها.

كان قلقه وخوفه من فقدانها هو المحرض الأساسي على تلك المقولة يزيد على ذلك أمنيته الشديدة أن يجلس معها وحدهما دون رقيب، أن ينهل من حبها أنى شاء ومتى شاء لكن حين يصل الأمر لاحتمال فقدِها فإنه سيكتفي منها بأي شيء. ليس في علاقته معها مكان لقانون الكل أو لاشيء كان يرضيه منها أقل القليل.

"إن لم يكن وصل لديك فعد به .... أملي وماطل إن وعدت ولا تفي

فالمطل منك لدي إن عزَّ الوفا .... يحلو كوصل من حبيبٍ مسعفٍ".

رنت كلمات ابن الفارض في رأسه وهو يسترجع كوابيسه التي رسم فيها السيناريو الأسوأ وهو اختفاؤها من حياته تمامًا.. كان سيكتفي منها ببقائهما كما كانا أو حتى بعودتهما للتحدث على الفيس بوك دون أن يلتقيا.

رغم كل تلك الهواجس إلا أنه تمسك بأمل بسيط؛ فهي حتى الآن لم ترد عليه سكتت تمامًا عندما سألها وغيَّرت مجرى الحديث وقبل أن يتركها

كرر سؤاله ثانية فقالت له إنها تحتاج فرصة للتفكير قبل أن تتركه مسرعة وتمضي في طريقها.

ظهر أمامه فجأة في تلك اللحظة د. أحمد المدرس المساعد قائلاً:

- فين يا إبراهيم العيانة اللي قولتلك فك الغيار بتاعها عشان اكشف عليها؟

نظر إبراهيم إليه بارتباك فقد نسي تماما ما أمره به

- ثواني يا بيه معلش انشغلت في ملفات المرضى.

- لا.. انت شكلك مشغول في حاجة تخصك.

نصحه بأن يفصل تمامًا حياته الشخصية عن عمله وأن ينسى كل شيء ولا يتذكر إلا أنه نائب جراحة تجميل لأن العمل هنا كثير ومرهق بطبيعته ولا يحتمل الخطأ ولن يتركه ضغط العمل في حاله.

- المثل بيقول.. تروح الشمس فين من على قفا الفلاح فهمت ؟؟

- ههههه صحيح يا بيه عندك حق.

تركه ومضى ليكمل باقي أعماله في القسم وهو يتمنى أن تمر الساعة القادمة مسرعة حتى يقابلها ويعرف رأيها.

وصل إلى المكان الذي اعتاد أن تمر عليه فيه لتأخذه بسيارتها وجدها تنتظره وعلى وجهها ابتسامة هادئة استبشر بها وطرب قلبه. كانت هي الأخرى قد أنهكها التفكير حتى وصلت لقرارها النهائي، لم يتحدثا طيلة الطريق حتى وصلا إلى مكان جلوسهما المعتاد.

- مقولتليش رأيك.

نظرت إلى عينيه بثبات ثم سألته:

-انت معاك كام في جيبك دلوقتي؟

سقط قلبه بين قدميه وأحس أنها تنوي رفضه بطريقة مقنعة طلب منها أن تجيبه مباشرة لكنها ألحت عليه أن يرد.

- فيه خمسين هنحاسب بيهم ع الكوفي ومعايا تاني خمسة وتلاتين جنيه.

طلبتهم منه فأعطاهم إياها ووضعتهم في حقيبة يدها وقالت بابتسامة عريضة:

- مهر خمسة وتلاتين جنيه.. مش مشكلة، أعتبر نفسي بتجوز في الخمسينات.

- بتتكلمي جد.

هزت رأسها بالإيجاب وقالت إنها فكرت كثيرًا ورأت أنه لا يمكن أن يستمرا هكذا إلى الأبد ولا يمكنها أن تستغنى عنه في حياتها.

- أنا خلاص أدمنتك يا إبراهيم وانا مش قد أعراض الانسحاب.. بس عندي شرط.

- إيه هو؟

طلبت منه أن يكتما خبر زواجهما مؤقتًا حتى تعرف نوايا طليقها وأنه لن يأخذ منها ولديها لأن فكرة فقدان ولديها غير قابلة للاحتمال وتركت له الاختيار في أن يخبر عائلته لكن بدون ذكر تفاصيل كثيرة عنها وعن

حياتها، شرحت له كيف حللت جميع الاحتمالات بخيرها وشرها وكيف رأت أن هذا هو الطريق الأفضل حتى تنقضي فترة كافية تطمئن فيها على قدرتها على الاحتفاظ بولديها.

بهت قليلاً بقدرتها الغريبة على أن تحلل موقفهما بذلك التفصيل الدقيق وفاجأته قوة شخصيتها فقد كان يظن أنها أضعف وأرق من اتخاذ مثل هذا الموقف ولكنها قالت وكأنها تقرأ أفكاره:

- أنا عمري ما كنت اتخيل ان هتجيني القوة واخد قرار زي ده وكمان أنا اللي اقترحه بس أنا زهقت من التردد والخوف، وأكتر من كده أنا بعشقك وبعشق كل لحظة معاك.

وافق على رأيها ثم طلب منها أن يشهد على عقد زواجهما اثنان من أصدقائه.

- لو واثق فيهم اتصل هاتهم دلوقتي.

- بجد انتي مجنونة.

- مجنونة بيك.

كان هو سبب جنونها من أول يوم خرجا فيه معًا، فهي لم تكن تتخيل نفسها في يوم من الأيام ستتزوج سرًا دون أن تخبر أحدًا لم يكن لها غير أخت واحدة وأب يعمل دبلوماسيًا وغير متواجد في مصر في أغلب الأحيان فلم تجد غضاضة في عدم إخباره. كانت آخر مرة زارها فيها منذ ما يقرب العام، وكان يلوم عليها دومًا قرار طلاقها، وكانت هي أيضًا تلوم عليه تعاستها، فزوجها السابق كان من اختياره.

سألها هو عن ما إذا كان زوجها السابق سيفتش خلفها لأنه لو فعل فمن السهل إن يصل إلى ما يؤكد زواجها.

- عمره ما هيدوّر.. مش هيتحرك إلا لو حد قالّه.

جرت الأحداث سريعا بعد ذلك فقد طلب إبراهيم من صديقين له الحضور وبالطبع طلب من أحدهما إحضار مبلغ من المال ليدفع مصروفات الزواج فلا يُعقَل أن يتركها تشارك في هذا.

بعد أن خرجا من عند المأذون وانصرف صديقاه نظرت إليه قائلة:

- إحنا اتجوزنا بجد..

- أه والمصحف ما أنا مصدق وحاسس اني بحلم.. تحبي نروح فين دلوقتي؟

- مش عارفة.

كانت مأخوذةً وكأنها غير مصدقة لما فعلته واقترح عليها أن يكونا في مكان وحدهما ثم استدرك سريعًا في كلامه مؤكدًا أن كل أمنيته في تلك اللحظة أن تكون بين ذراعيه وفقط لا أكثر ولا أقل، كان يريد أن يطمئنها ويريدها أن تعلم أن حبه لها خالص من أي شائبة.

- عارفة إيه أكتر حاجة نِفسي فيها.. إني ارقص معاكي سلو على أغنية ضميني.

ضحكت كثيرًا على كلمته وقالت له:

- شكلك غاوي أفراح شعبية.

- خلاص يا خوجاية خليها اندي ويليامز.

ضحكت ثانية وأكدت له أنها لم ترقص هذا النوع من قبل، وأنها متشوقة لأن ترقص معه لكنها لا تعرف كيفية الرقص.

- هيَّ كيميا.. خطوتين يمين وخطوتين شمال.

اقترحت عليه الذهاب إلى شقة يمتلكها أبوها في أطراف مدينة نصر، وافق على الفور وتوجها إلى هناك.. اقترح عليها شراء بعض المأكولات والفاكهة.

- إيه ده هو انت ناوي تبيت وإلّا ايه.

- خليها بظروفها يمكن ربنا يسهل وتمطر سيول منعرفش نخرج من الشقة.

- يا ماما.. شكلك شرير وانت بتقول كده.

- والمصحف أنا اغلب من الغلب.

حين وصلا إلى الشقة كان الغبار يغطيها، قضيا معًا بعض الوقت ينفضان الغبار عنها وضربات قلبه لا تهدأ وهو غير مصدق أنه معها وحدهما في عالم منعزل لا تقتحمه نظرات ولا فضول.

بعد أن انتهيا أخرج اللاب توب الخاص به من حقيبته واختار أغنيته المفضلة وأشار إليها، وقفت أمامه بشيء من الخجل وهي لا تدري ماذا تفعل، وضع يديه على خصرها ووضعت ذراعها على كتفيه وبدأت رقصتهما.

-أقولك كلمة في ودنك زي ما بيعملوا؟

- قول.. همس في أذنها ثم قال بصوت عال:

- لو عرفتي حل الفزورة تاخدي جنيه.

ضربته بكفها على كتفه ناهرة إياه لكنه قال لها:

- والله مش اللي في بالك دي حاجة بريئة خالص.

ثم همس لها بالحل فقالت له :

- يا سلاااام طب عيني في عينك كده؟

أعادا الرقصة مرة تلو الأخرى وكان يقترب منها أكثر فأكثر كان يقترب ببطء شديد يخاف أن يكسر روعة اللحظة بتعجله، كان يصعد معها السلم درجة درجة ببطء، لا ينقل قدمه لدرجة إلا بعد أن يتأكد من ثبات قدميه على سابقتها.. كان عشقه لها أعلى بمراحل من صبوته وكان حِرصه على مشاعرها يتحكم في إيقاع شهواته.

شيئًا فشيئًا انصهرا معًا واتحدا أكثر، تفتحت له ورودها واحدة واحدة.. كشفت له فيكتوريا عن أسرارها سرًا تلو الآخر.. أخيرًا بعد سنين من الرسو في مرافئ كاذبة اهتدى البحَّار إلى مرفئه الأخير.. شرب التائه في صحراء الحياة ماء الحقيقة بعدما رشف السراب مئات المرات.

* * *

- 17 -

اليوم يوم الجراحات الكبرى والنواب موجودون في المكتب المجاور لغرفة العمليات من قبل الثامنة صباحًا، الكل يبدّل ملابسه ويستعد. كانت قائمة الجراحات في هذا اليوم لا تشمل إلا حالة واحدة فقط لكنها ستستغرق ما يقارب العشر ساعات. كانت لرجل في الثلاثين من عمره أصيب برصاصة من النوع الثقيل نسفت جزءًا كبيرًا من فكه السفلي وكانت الجراحة تتضمن نقل جزء من العظمة الصغرى لساقه مع الجلد المغطى لها وإعادة تشكيلها لبناء فك جديد للمريض.

خلع إبراهيم قميصه ليرتدي زِي العمليات فعاجله حامد بالسؤال:

- إيه يا ابني الخربوش اللي في دراعك ده.. انت كنت فين امبارح؟

- مفيش حاجة يا دكتور حامد ده واحد اتخانقت معاه في الأتوبيس.

ابتسم حامد غير مصدق له وهو ينهى ارتداء ملابسه قائلاً:

- ياض دي حاجة متكسفش ده ختم جودة.. السهن اللي زيك بيطلع منه بلاوي.

تحسس إبراهيم مكان السحجة في أعلى ذراعه وهو يبتسم في أعماقه وهو ما يزال يعيش نشوة اللحظة التي حصل فيها عليها حين دخل محمد فجأة قائلاً:

- قشطه يا معلم بي إم وحركات طب مش تعرفنا.

نظر إليه إبراهيم مستغربًا فأخبره محمد بما قاله له د. هاني عن أن امرأة أخذته من المستشفى في سيارتها البي إم.

- بقالي تلات ايام عايز اسألك ومفتكرتش إلا دلوقتي.

- حد يصدق البنى ادم ده برضه.. دي واحدة معرفة وعربيتها جولف مش..

قاطعه دخول الدكتورعبدالله الأستاذ الذي سيقوم إجراء جراحة اليوم قائلًا:

- إيه يا ولاد صوتكوا عالي ليه ومين فيكوا ناوي يشتري عربية.

قال له محمد بسرعة:

- مفيش حاجة يا بيه أصل إبراهيم كان..

قاطعه إبراهيم بلكمة في كتفه وهو يقول:

- متخدش على كلامه يا بيه هو أصلا رايح يستعجل دكاترة التخدير.

ضحك د. عبدالله ولم يعلق فهو ما زال يذكر أيام كان نائبًا وأن النواب بينهم الكثير مما لا يُحكَى للأساتذة، وبدأ في تبديل ملابسه هو الآخر قائلاً:

- يا إبراهيم.. انت ومحمد وخليل هتشتغلوا في الحالة وحامد خليه بره دلوقتي.

أثار هذا القرار فضول إبراهيم فهو يعلم أن الأولوية لدخول مثل تلك الجراحات للنواب الأكبر لكنه طبعًا لم يسأل فطبيعة عمله تتطلب التنفيذ دون مناقشة. كان د. عبدالله متعهدًا لذلك النوع من الجراحات الصعبة وكان إبراهيم يعشقها بخلاف محمد الذي كان ملولاً وكان يرى أن هذه الجراحات المجهرية تسحب النظر مبكرًا وتقصم الظهر.

يبحث محمد دومًا عن فرصة لتعلُّم الجراحات التي ينطبق عليها تعبير "ما خف حِمله وغلا ثمنه" فعملية شفط الدهون تستغرق ساعتين ولا تحتاج إلى ضغط نفسي ولا متابعة ويحصل فيها على أجر مقارب لجراحة كتلك التي تستغرق عشر ساعات ومتابعة أسبوعًا.

استسلم حامد لأمر د. عبدالله وبدأ في عمله في متابعة المرضى وهو يحس بالغيظ الشديد ويعتبر ما حدث وإخراجه لمتابعة المرضى ودخول النواب الجناير لغرفة العمليات عقابًا أو إهانة. كان مستغربًا لما حدث فالدكتور عبدالله معروف عنه عدله وأنه لا يفضل أحدًا على أحد.

رفع صوته الجهوري مناديًا على مشرفة التمريض:

- يا مِس عبير.. الساعة بقت تسعة ونص ولسه مفيش حالة دخلت الغيار.

جاءت إليه مسرعة وهي تتحجج له أن الممرضات المكلفات بصرف الشاش والأربطة قد تأخرن في مخزن الصرف نتيجة ازدحام المكان بممرضات جميع الأقسام اليوم. انفعل عليها بشدة وعلا صوته أكثر وهو

يقول إن هذا لا يخصه وأنها لا تعرف كيف تدير القسم وتجعل الممرضات يؤدين عملهن في وقته.

امتصت هي غضبه ببعض من الاعتذار وهي تتحجج بغباء إدارة المستشفى التي جعلت كل الأقسام تصرف مستلزماتها من مكان واحد بعد أن كانوا ثلاثة أماكن.

- طيب خلي حد من العمال يعملي شاي على ما الهوانم بتوعك ييجوا.

- من عينيا ده أنا اللي هعمله بنفسي واجيبهولك.

كانت علاقته بالتمريض في قسمه غريبة بعض الشيء، كان يراهن في منزلة رعاياه فأغلبهن يعملن في هذا المكان من قبل أن يدخله هو، كما أن هذا المكان كان أقرب إلى بيته منه إلى محل عمله ولذلك فإن مغامراته النسائية المعتادة كانت أقل ما يكون في المستشفى الجامعي.

أحضرت عبير له الشاي بسرعة، وجلست إلى جواره تسأله عن أحواله وعن السبب الذي يجعله في القسم اليوم بدلًا من غرفة العمليات، غيَّر هو دفة الحديث وسألها عن أحوال أولادها في المدارس.. كانا يتكلمان بود وكأنه لم يرفع صوته عليها منذ قليل ويتهمها بأنها مشرفة فاشلة لأن هذه هي طبيعة علاقته بهن مزيج من التشاحن والود.

- البنت الكبيرة بتمتحن نُص السنة.. خلصت الماس والإنجيليش وفاضلها العربي والساينس.

ابتسم ابتسامة عريضة فقد كان يعجبه في عبير اهتمامها بتعليم أولادها وتسخير أغلب دخلها للإنفاق عليهم بل كانت تأخذ عددًا إضافيًا من النوبتجيات لتمويل الدروس الخصوصية.

بالرغم من شخصية زوج عبير المسيطرة إلا أنه لم يكن له أي رأي في تعليم أولاده، كانت تتحمل منه أن يشتمها أو يضربها لكن إذا حاول التدخل أو التقليل من ميزانية تعليمهم تنقلب نمرة شرسة ويعلو صوتها عليه ولذا كف تمامًا عن التدخل في هذا الأمر.

كانت أحيانًا كثيرة تحضر معها كتب أبنائها الخاصة بمدارس اللغات ليشرح لها النواب ويترجمون لها الكلمات الإنجليزية لتستطيع متابعة دراستهم وكانوا يساعدونها كثيرًا على ذالك فهذا الطموح يثير الإعجاب.

مسحة من بقايا جمال كانت تكسو وجهها وجسدها، جمال طحنته دوامة الحياة وأنهكه العوز. مع حياة كتلك كادت تنسى أنوثتها التي كان يذكرها حامد بها حين يداعبها ويؤكد أنه لو كان تعيينه نائبًا مبكرًا عشر سنين لما تركها تفلت من يده وأن بقايا عطر أنوثتها لا تزال فواحة.. كان يقول هذا مجاملاً لا يطمع منها في شيء، وكانت تطرب دومًا لهذا الكلام.

انتهى من كوب الشاي وبدأ الغيار على جروح المرضى المحجوزين معه استغرق ما يقرب الثلاث ساعات، في أثنائها رن هاتف مرتين وكانت دعاء هي من يحاول الوصول إليه، بعد أن انتهى طلبها هو، كانت تلح في رؤيته ولم يكن هو في حالة مزاجية تسمح له بذلك طلبت منه أن يحاول الوقوف إلى جانبها في تلك الأيام فقد كانت تشعر بخواء رهيب في داخلها.

لو أن ذلك الحدث الذي طرق حياتها وتخلى عادل عنها كان من شهر واحد لما أضاع تلك الفرصة من يده، لكنه يعيش في اكتئاب وفقد الرغبة في أي شيء حتى حين أمره د. عبدالله في العمل خارج العمليات كان مرحِّبًا جدًا لأنه لا يرغب في العمل اليوم.

في داخل العمليات كانت الجراحة في منتصفها تقريبًا وقد أنهى د. عبد الله فصل العظمة من الساق وجلس يشكلها لتتناسب مع شكل الفك السفلي كانت خطوة حساسة جدًا؛ فمطلوب منه أن يقطع العظام ويشكلها دون أن يؤثر على الشرايين التي تغذيها شيء أشبه بقطع قشرة الموز فوق سطح الماء دون تحريك الماء. استغرق تمامًا في تلك الخطوة ويساعده فيها خليل ومحمد بينما ترك إبراهيم مع حاتم وهو مدرس مساعد ليقوما بخياطة مكان الساق.

حاتم هو المساعد الأول مع د. عبدالله في أغلب جراحاته. كان شابًا طيبًا يعامل الجميع بأدب جم وكان إبراهيم لا يحب فيه العبوس الذي يكسو وجهه أغلب الأحيان، ساعده حاتم في إغلاق الجرح وكان هذه حركة طيبة منه في إعطاء إبراهيم نصيبًا من العمل في حالة كتلك لكن ما حدث بعدها أن د. عبدالله رأى ذلك فانفعل بشدة لأنه أمر حاتم أن يغلق الجرح بنفسه.

- ده استهتار يا حاتم، أنا لو عاوزه هو يعملها كنت قلتله.. الظاهر إنك لسه متعلمتش حاجة.

احمرَّ وجه حاتم وأخذ في الاعتذار والتأكيد على أنه لم يكن يقصد وهو مندهش من ذلك الانفعال الزائد الذي يصدر من رجل غير معتاد على الانفعال بهذا الشكل. أعجب إبراهيم جدًا بهذا الموقف الذي يدل على السطوة التي يعطيها العلم لمن يحملونه وأعجبه أكثر أن حاتم كان يتقبل هذا بصدر رحب وهو من عائلة كبيرة وشقيقه الأكبر يشغل منصبًا هامًا في جهاز سيادي.

سأله ذات مرة بدافع الفضول لماذا يتحمل تعنت البعض في العمل رغم أن مكالمة واحدة من أخيه كانت كفيلة بأن يتحرك عميد كلية الطب شخصيًا، فالجهاز الأمني السيادي الذي يعمل به أخوه هو من يحكم

مصر ويسيِّر مورها فعليًا (في رأي إبراهيم). أخبره حاتم أنه يريد أن يكون جرَّاحًا ماهرًا وليس ظلاً لعائلته وأنك لن تتعلم جيدًا إلا إذا ذقت ذل التعلم.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة، وما زال العمل في تلك الجراحة قائمًا. تبادلوا فيها الخروج لتناول غداء خفيف وللصلاة، تبقت الخطوة الأخيرة والهامة جدًا وهي توصيل الشرايين الموجودة بالعظمة بشريان الوجه ليغذيها بالدماء. توقف د. عبدالله قائلاً:

- نادولي حامد عشان هو اللي هيوصل الشرايين.

اتسعت عيونهم في دهشة فقد كان دائمًا يقوم بتلك الخطوة بنفسه لكن الجميع أدرك أنها كانت خطوة محسوبة من البداية لأن د. عبدالله في الغالب يريد أن يخرج حامد من الحالة التي هو فيها والطبيعي أن أكثر تسرية عن قلبه هو أن يقوم بإجراء خطوة جراحية هامة كتلك.

انتهت الجراحة على خير وكان أول ما فعله إبراهيم أن اختلس لحظة صغيرة ليكتب فيها لعلا كلمة "Done" مع رسمة وجه مبتسم مبشرًا إياها بانتهاء الجراحة، ردت عليه برسالة في لحظتها: "عارفة انك قدها وقدود يا حبيبي تسلم إيدك"

كان د. عبدالله قد أكمل تغيير ملابسه ثم جمعهم سائلاً إياهم:

- تحبو نتعشى فين؟

كان كثيرًا ما يعزم فريقه الجراحي على العشاء بعد انتهاء جراحة كتلك، وبالطبع شكروه جميعًا مؤكدين أنهم سيتناولون عشاء المستشفى.

- مش هتقولوا؟؟ خلاص نخليها مشاوي عند أبو شقرة.

* * *

- 18 -

كانت دعاء تمشي في أحد شوارع وسط القاهرة ومعها صديقتها أمل في اليوم الذي قابلت فيه محامي عادل، كانت رأسها تدور منذ أن عرفت حجم المبلغ الذي تركه عادل لها وكانت لا تزال تشعر أنها في حلم ستستيقظ منه على واقعها اليومي الكئيب.

- أمل، أنا مش مركزة النهارده خالص، وحاسة انى لو نقيت معاكي أي لبس هيطلع زبالة.

عذرتها أمل بالطبع وقالت لها إنه من الممكن أن تعودا أدراجهما لكن طلبت دعاء منها أن يذهبا إلى الكورنيش لتجلسا ولتحكي لها عن آخر المستجدات، وافقت أمل وقالت لها إنها هي الأخرى تريد أن تأخذ رأيها في قرار مهم تفكر في اتخاذه.

استقلتا "تاكسي" توقف بهما عند بداية كوبري قصر النيل وحين جلستا بدأت دعاء بالحديث حكت لها عن لقائها الصباحي بالمحامي، وعندما نطقت بالرقم الذي أبلغها به المحامي، صمتت أمل وانتابها الذهول ولم تتحدث لبرهة ثم قالت:

- انتي بتشتغليني يا بنت الجزمة؟؟

أقسمت لها دعاء بكل عزيز لديها أنها تقول الحق وأنها منذ أن عرفت بالتفاصيل وتأكدت أن المبلغ في حوزتها وهي غير قادرة على التفكير

وتحس أن جبل المقطم بأكمله يبرك فوق صدرها، قاطعتها أمل مكررة رأيها المعتاد في دعاء وأنها تعشق الكآبة وتبحث عن الغم في كل شيء حولها:

- يا بنت الكئيبة الفلوس دي تخليك تعملي اللي نِفسِك فيه كله وتستغني عن جنس الرجالة ده خالص.

- مش عارفة.. نفسي اعمل بيهم حاجات كتير بس حاسة اني متلغبطة.

كانت تشبه حالها في تلك اللحظة بالصيام في أول يوم رمضان حين تكون مائدة الإفطار عامرة بمختلف الأطعمة لدرجة تجعل حيرتها تمنعها من الأكل جيدًا وتبقى جائعة بعد انتهاء الإفطار، هي في حيرة شديدة، تفكر بمساعدة إخوتها والانتقال بأمها لشقة أفضل و.. و..

قاطعتها أمل وأخرجتها من تلك الاحتمالات جميعًا ونصحتها أن تفعل مثلما فعلت منى زميلتهما السابقة حين ورثت أخاها (الذي يعمل في الخليج ومات دون أن يتزوج) فقد شاركت طبيبًا كبيرًا واستأجرت باسمه مكانًا في مستشفى وافتتحته حضانة للأطفال حديثي الولادة وأصبح صغار أطباء الأطفال الذين يناوبون عندها في الحضانة هم من يعملون عندها وليس العكس، أصبح لها دخل ثابت يكفل لها حياة ميسورة.

تذكرت دعاء مزاح حامد معها واقتراحه أن تفتح مركز ليزر فقالت لأمل:

- أنا عاوزه اصارحك بحاجة.. أنا كنت ساعات بخرج مع حامد وحكياله على كل حاجة، وكان بيهزر يقولى ان الراجل ده لو بيتكلم جد هيبقى عندي فلوس تكفي افتح بيها مركز ليزر.

- استني استني.. إيه حكاية سي حامد ده كمان.. يعني تطلعي من نقرة تقعي في حاااامد.

استغرقت في لومها على اقترابها من حامد وأكدت لها أنه مدمن للنساء لا يفرغ من واحدة حتى تكون الأخرى جالسة بين يديه. كانت تراه طبيبًا جيدًا إذا كانت تعرف مريضة تحتاج لجراح تجميل فستنصحها به طبعًا لكنه كرجل لا أمان له.

- الله يكون في عون الغلبانة مراته معرفش بتلاحقها عليه منين والّا منين.

أكدت لها دعاء أنها لم ولن تتورط معه عاطفيًا، لكنها كانت تحب وجود رجل آخر تسمع منه نصيحة في علاقتها بعادل فالرجل يعرف كيف يفكر الرجل مثله وماذا يريد.

- وانتي طبعًا زي الهبلة كنتي فاكراه بيخرج معاكي لوجه الله.

- لا كنت عارفة نيته، بس كنت عاملة نفسي مش عارفة عشان اخليه جنبي.

- والنعمة انتي دماغك تعبانة.. مش قادرة أفهم بتفكري ازاي.

غيرت دعاء مجرى الحديث وسألتها:

-بس أنا مش عارفة أقول إيه لماما واخواتي.

- متجيبيش سيرة لأي حد دلوقتي خالص لما نشوف هتعملي إيه.

ثم كررت اقتراحها بأن تدخل بهذا المال في مشروع يؤمِّن لها مستقبلها فالدنيا متقلبة ولم يعد فيها أمان لأحد.

- ربنا ميحرمنيش منك يا أمل طول عمرك ضهري ومرايتي مش عارفة من غيرك كنت هعمل ايه.

قالت ذلك وترقرقت عيناها بالدموع فاحتضنتها صديقتها، كان يجلسان على واحدة من الدكك الخشبية على الكورنيش حين قاطعهما صوت يقول: "طب ما احنا موجودين اهوه ونعرف نطبب برضه.. إدونا فرصتنا طاه".

كان أحد الشباب المراهقين الذين يعج بهم كورنيش النيل، نظرتا إليه بغضب ولدهشتيهما كان الفتى لا يتجاوز الخامسة عشرة من العمر وعاجلته أمل برد من قاموسها الغني بالألفاظ والشتائم ما جعل الفتى يضع ذيله بين فخذيه ويمشي مسرعًا، نظرت دعاء لها وانفجرت في الضحك على رد فعل الفتى ثم سألتها:

- مقولتليش قرار ايه اللي انتي عاوزة تاخديه.

- عاوزه افسخ خطوبتي.

كانت دعاء على علم بمشاكل أمل مع خطيبها فقد كان أصغر منها بعام، وكان يعمل بائعًا في الموسكي، كانت أمل تشكو لها من طريقته معها ومن ذلك الإحساس الذي يعطيه لها دومًا بأن خطبته لها كانت جميلاً فعله فيها، وأنه كان بإمكانه اختيار فتاة أصغر منه ليست على أعتاب الثلاثين مثلها.

كانت تتنازل كثيرًا وتغدق عليه بالهدايا لكنه كان يجرحها أحيانًا بتلميحاته ويطلب المال منها وكأنه ماله هو وكانت تتساءل بينها وبين

نفسها إذا كان الحال هكذا في فترة الخطوبة فماذا سيكون عليه بعد الزواج.

مضت على خطبتها أكثر من عام وتحملت منه ما لا يطاق، وأنفقت عليه الكثير وكانت دعاء (بطبيعتها الخنوعة) تنصحها دومًا بالصبر عليه وأن حاله سوف يعتدل يومًا ما وأن هذه هي الخطبة الثالثة لها وسوف يكثر الكلام عليها بعد ذلك لكن أمل كان لها رأي آخر فالفتاة إن لم تجد رجلاً حقيقيًا بمعنى الكلمة لتتزوجه فلا داعي للزواج أصلاً.

- على رأي المثل: قعدة الخزانة ولا جوازة الندامة.

ثم استطردت قائلة:

- عارفة يا بت مصيبتنا ان نُص اللي بيتقدمولنا عينيهم على المرتب بتاع الممرضة والنص التاني بيعتبر إن المرتب ده ورث امه اللي سايباهوله.

ضحكت دعاء على مزحتها وهي تؤمِّن على كلامها وأضافت أنها من المهن القليلة جدًا في مصر التي يجد خريجوها وظيفة بعد التخرج مباشرة، وأن شهادة دبلوم التمريض ذات قيمة في سوق العمل أكثر من شهادات عليا كثيرة.

- برضة الشهادة العالية قيمة ومتخليش حد يعمل بيه عليكي.. أنا أصلاً بفكر أقدم جامعة مفتوحة السنه الجاية.

- حلو واهو توقعيلك عريس في الجامعة معاكي.

مطت أمل شفتيها في امتعاض وهي تحاول أن تقنع دعاء أن الرجال ليسوا هم محور هذه الحياة وأن المثل الذي يقول "ضِل راجل ولا ضِل حيطة"

لم يعد ينطبق على رجال هذا الزمن، فقد ضاع الظل وتبقت الـ"حيطة" ولكنها مشروخة وعادة ما تقع فوق رأس الواحدة منهن فلا ينوب المرأة من الرجل إلا وجع الرأس.

كانت أمل تحظى بقدرٍ معقول من الجمال، وكان قوامها متناسقًا لكنه لا يشبه من قريب أو بعيد قوام دعاء الفائر. كانت الفتاة معتزة بنفسها جدًا رغم أنها يتيمة الأبوين وتربت في بيت خالها وكانت تحاول دومًا أن تبث هذا العتزاز في نفس دعاء لكن دون جدوى.. رن هاتفها، كان خطيبها على الطرف الآخر.

- أيوة يا حمادة أنا مع دعاء ع الكورنيش.

- ...

- استأذن ليه إن شاء الله هو انا رايحة طنطا.. أنا خارجة مع صاحبتي.

- ...

- متكترش في الكلام يا حمادة، أنا معدتش مستحملة.. انت عاوز ايه؟

- ...

- وانت كمان.. سلام يللا لما اروح هكلمك.

- ...

- فلوس إيه.. مفيش فلوس انت مبتشبعش.

- ...

- متغلطش يا حمادة لِمّ نفسك أنا معدتش ساكتة لك.

- ...

- في ستين داهية انت فاكر نفسك إيه، إنت حتة عيِّل معفن.

- ...

- يللا يلعن.. مش عاوزه اشوف وش أمك تاني.

أغلقت الخط وعلى وجهها علامات الانفعال الشديد وأنفاسها تعلو وتهبط ثم نظرت للهاتف وبصقت عليه بغضب كأنها توجه البصقة إلى وجهه، نظرت إلى دعاء وقالت بغضب:

- يللا في كسحة.. راح كلب بكرة ييجي غيره.

هزت دعاء رأسها وهي تنظر إليها بشفقة دون أن تتكلم ثم أمسكت يدها وربتت عليها فانفجرت أمل في البكاء، أخذتها دعاء في صدرها وضمتها وهي تربت عليها ودمعت عينها هي الأخرى فقد صعب عليها أن ترى زميلتها القوية الشكيمة تنهار أمامها هكذا وبينما هي تهدئها تعالي صوت الفتى الذي ضايقهما من قبل: "عليا الطلاق انتو بتشتغلونا وفيه واحدة فيكوا واد ولابس بت".

قامت إليه أمل واقفة فولّى بعيدًا ثانية.. هنا قالت دعاء:

- عيال تخاف متختشيش.. ايه رأيك اعزمك على حواوشي؟

- حواوشي إيه يا بنت المعفنة انتي تعزمينا على أكلة سمك ده انتي لسه قابضة.

* * *

- 19 -

جلس محمد مع أخيه علي ووالدته بعد الغداء يوم الجمعة إجازته النصف شهرية يتناقشون موضوع بيع المحال التي تركها والده.. كان رأي محمد أنه يمكن بيع الأحدث منهما لكن المحل القديم لا يمكن بيعه لأنه يحمل تاريخ حياة أبيهم وكفاحه وكان يرى أنه حتى في حالة البيع فإن المشتري لا يمكن أن يكون الحاج إسماعيل لكن علي كان رأيه مختلفًا.

- يا ماما.. يا محمد.. اسمعوني، الكلام اللي بتقولوه ده معدش ياكل مع حد اليومين دول، واحنا الاتنين دكاترة كل واحد ليه شغله وحياته وعامل خطط لبكرة أكيد مفيهاش إنه يقف يبيع أطقم صيني وبايركس.

اعترض محمد على منطقه ورأى ان المحل يمكن إدارته بالعمالة الموجودة وأن أقدم هؤلاء البائعين هو رجل طيب ويحمل لهم الكثير من الودّ.

- انت اللي طيب يا محمد.. محدش بيخلي باله من فلوس حد والمال السايب يعلم السرقة.

- بس برضه مش الحاج إسماعيل يا علي.. إنت ناسي المشاكل اللي عملها مع بابا الله يرحمه.

رد عليه على بمنطقه الذي يرى أن البيع والشراء ليس فيه صداقة ولا عداوة وأنه حتى الدول التي بينها حروب يكون بينها تبادل تجاري، كان منطقًا أقرب إلى الواقعية من منطق محمد لكن محمد كان قلبه متعلقًا أكثر

منه بالمحل القديم لأنه قضى فيه ذكريات صباه ومراهقته ولأنه عاش معاناة والده في تنميته.

الحقيقة أن محمد لم يكن رومانسيًا على الإطلاق بل كان نفعيًا ويجيد التخطيط بواقعية لكل أمور حياته لكن لكل شخص نقطة ضعف يتعلق قلبه بها وتتغير أمامها شخصيته فيصير البخيل سخيًا والمادي عاطفيًا والعنيف هادئًا، قد تكون نقطة الضعف تلك إنسانًا أو مكانًا أو شيئًا أو حتى حدثًا ما. لذلك يشعر محمد بمرارة في حلقه عندما يحس بأن هناك من سيأخذ المكان الذي يحمل جزءًا عزيزًا من تاريخه ويقلبه رأسًا على عقب وأن اسم والده سيتم استبداله باسم أكثر إنسان كان يكرهه وسعى لإيذائه.

استمر جدالهما بضعة دقائق أخرى حتى رنَّ جرس الباب مؤذنًا بقدوم ضيفهما الثقيل، قامت أمهما وتركتهما ليتحاورا مع الرجل. بدأ لقاؤهم معه بالسلامات الباردة وبتعازيه السمجة وبتبادل المجاملات الزائفة التي تخفي أقبح السباب خلف عبارات منمقة.

كان الحاج إسماعيل يحمل ملامح وجسم التاجر الكبير ببدلته التي يلبس فوقها عباءة صوفية مفتوحة تغطي كتفيه وبالطبع يرتدي خاتمًا فضيًا كبيرًا وبيده السبحة وتزين جبهته زبيبة الصلاة. كان تاجرًا ماهرًا.. والحق يقال استطاع أن يبني تجارة كبيرة هو الآخر، لكنه دومًا كان يضع نفسه في نزال مع والدهم ويتمنى له الشر بأي طريقة.

بعد انتهاء الافتتاحية الباردة الممطوطة للقائهم بالحاج إسماعيل دخل الرجل في الموضوع مباشرة وأخرج من جيبه شيكًا وأعطاه لمحمد قائلاً:

- أنا راجل دوغري وفلوسي حاضرة ده تمن المحلين والبضاعة اللي فيهم.

نظر محمد إلى المبلغ المكتوب في الشيك وعلت وجهه ابتسامة ساخرة وكأنه يقول لأخيه إن هذا ما توقعه، فالرجل كتب رقمًا لا يساوي سعر محل واحد من الاثنين فضلاً عن البضائع الموجودة فيها، نظر عليٌّ للرقم واحمرَّ وجهه غضبًا وقال:

- ايه ده يا حاج.. انت مستصغرنا والَّا إيه، شايفنا لسه عيال بنلعب بِلي قُدَّام المحل زي زمان.

لم يعجب الرجل طريقة عليّ في الكلام، فقال له إنه من العيب أن يتكلم بهذه اللهجة مع رجل في مقام والده وأنه يبدو أن بقاءهما كثيرًا في القاهرة قد غيَّر من أخلاقه وأنساه تقاليد بلدته.

- مع احترامي يا حاج، احنا بنتكلم في بيع وشرا مش بناخد دروس.. السعر اللي انت حاطّه ده تضحك بيه على عيِّل صغيَّر.. دي البضاعة اللي في المحلين لوحدها سعرها قريب من كده.

احتدم الجدال بينهما ومحمد صامت لا يتكلم إلى أن نظر الرجل إليه وطلب منه التدخل لأنه الكبير.

- أنا مش راضي اتكلم يا حاج لأني لو اتكلمت حضرتك هتزعل.

انفعل الرجل وقال لهما:

- مشكلتي الكبيرة اني جاي اتكلم مع شباب صغير لسه مش فاهم يعني إيه كبير ويعني إيه اسلوب بس اعمل إيه ما باليد حيلة .

كان الرجل ماهرًا في التفاوض والأخذ والرد وتاجرًا ذا باع طويل فقام برفع العرض قليلاً قليلاً لكنه لم يلبِّ القليل من طموحات عليِّ. وبالطبع محمد كان رافضًا من الاساس وكان متوقعًا تلك الطريقة من الرجل. في النهاية وضع لهما الرجل عرضه النهائي وفيه سيف المعز وذهبه قائلاً:

- بصوا يا أساتذة ده اخر كلام عندي والمحلات دي هاخدها هاخدها بالذوق أو بالعافية.

-إيه يعني بلطجة ؟؟؟

- البلطجة موجودة ومصطفى باشا ابن خالي برضه موجود وسهل أي واحد فيكوا يتّاخد بمكالمة تليفون.

كان يلمح لهما بنفوذ ابن خاله الضابط الكبير في الأمن الوطني وبالطبع تهمة الانتماء لجماعة إرهابية كان من السهل ترتيبها وإلصاقها بأي منهما. انفعل عليّ بشدة نتيجة هذا التهديد وقام واقفًا معلنًا انتهاء المقابلة.

- شرفت يا حاج المحلات مش للبيع.

لملم الرجل عباءته وابتلع إهانة عليّ وانصرف غاضبًا وهو يتوعد. طمأن محمد أخاه بأن هذه التهديدات جوفاء لكن عليًا كان يحس بأن الوضع ليس على ما يرام وأن الرجل لم يكن ليضع مثل هذا المبلغ الزهيد إلا إذا كان واثقًا من قوة تهديده. وقال إنه سوف يبقى قليلاً وسيأخذ إجازة من عمله للبقاء إلى جوار والدته ولمتابعة المحلات حتى يهدأ الوضع.

ترك محمد شقة والدته وصعد إلى شقته في الدور الذي يعلوها ليبقى قليلاً مع زوجته وابنته قبل أن يسافر. كانت زوجته مصدر راحة نفسية له في أغلب الأحيان اللهم من نوبات ال"زن" المتقطعة التي تحدث بين الحين

والآخر أحيانًا بسبب والدته، وأحيانًا أخرى بسبب غيابه الطويل، وكثيرًا ما ألحت عليه في الذهاب معه إلى القاهرة لكنه كان يؤكد لها أنه لن يأمن عليها أن تبقى في شقة وحدها ويبيت هو في المستشفى أغلب الأسبوع.

كان يحكي لها عن مايحدث في المستشفى وهي تستمع له مبهورة بالتفاصيل لكنه كان يزين الحكاية بإخفاء معالم القهر التي يتعرض لها باعتباره "نائب جنيور" بل كان يقول لها إنه يراجع الأساتذة الكبار في قراراتهم أحيانًا وأنهم كثيرًا ما يأخذون برأيه.

كانت كذبة بيضاء لها، ما يبررها في رأيه فهو نفسيًا لم يتقبل حتى الآن الطريقة التي يعامل بها النواب داخل المستشفى وكأنهم تلاميذ أو أطفال يتعلمون الحبو فهو رجل مسئول ورب أسرة ويغضبه كثيرًا أن ينادي له رجل أكبر منه بثلاثة أو أربعة أعوام فقط بلفظ "يا ابني" لكنه لا يظهر غضبه لأن هذا من قواعد التعليم الطبي وخاصة الجراحي منه.

في المساء لملم حقيبته وبقايا نفسه والمشاكل التي تحيط به وبعائلته وأخذ طريقه عائدًا إلى القاهرة ركب الباص المكيف الذي لا تكييف فيه وحاول النوم عبثًا في ظل الفيلم الرخيص المعاد للمرة الألف والذي يتم تشغيله أثناء الرحلة.

* * *

- 20 -

جلست علا على الأريكة التي اعتادت النوم عليها في طفولتها في بيت والديها ممسكة بهاتفها الذكي وهي تنظر بابتسامة عريضة إلى أبيات أبي القاسم الشابي التي شاركها إبراهيم على الفيس بوك:

أنتِ تُحيِينَ في فؤادي ما قد .... ماتَ في أمسي السعيدِ الفقيدِ

وَتُشِيدينَ في خرائبِ روحي................. ما تلاشى في عهديَ المجدودِ

بعد أن عانقتُ كآبة ،أيّامي .... فؤادي، وألجمتْ تغريدي

كانت تقرأ الأبيات وهي تتمنى لو أنها تكتب تعليقًا عليها وتقول له "أنت أيضًا شيدت في خرائب روحي كل ما هدمته الأيام وأحييت كل ركن مات في قلبي".

- أكيد بتتفرجي ع الفيس بوك.. يا بنتى البتاع ده بلوة بيقضي على الحياة الحقيقية والمشاركة بين الناس.

- بيتهيألك يا ماما والله بالعكس.

- أنا هروح اصحي الولاد عشان وحشوني وانتي خليكي قاعدة كده.

ابتسمت علا ومددت جسدها على الأريكة وهي تتذكر ما حدث بالأمس وهي تقدم عرضًا لما أنجزته في بحثها، استطاعت أن تقطع فيه شوطًا كبيرًا ونال إعجابًا شديدًا من المشرفين عليها وكان رأي أقدمهم أنها يجب

أن تمضي في هذا البحث إلى اتجاه أبعد من الذي تم التخطيط له مبدئيًا وأنها يجب أن تسافر لإكماله في الخارج، لكنها لم تُعر هذا الاقتراح أي انتباه فقد كان حبها الجديد يملأ حياتها.

الحب في حياتها الآن صار محسوسًا وملموسًا، صار واقعًا لا خيالاً بِيد أن الدنيا لا تعطينا السعادة الكاملة دون أن تضع عليها بعض الرتوش التي تنال من جمال الصورة فتضفي عليها واقعيتها التي لا تسمح بالمثالية. الواقع أنها تعيش اللحظة بلحظتها وتستمتع بها حقًا دون التفكير في المستقبل أو في عواقب ما أقدمت عليه فقد اقتنعت بقاعدة هامة وهي "أن تعيش حياة رائعة مليئة بالبهجة ولو كانت محفوفة بالمخاطر خير من أن تعيش حياة آمنة لا روح فيها".

كان توأمها قد استيقظا وجاءا جريًا لاحتضانها ثم تركاها سريعًا ليعيثا في بيت جدتهما فسادًا ومربيتهما تجري خلفهما لمحاولة إثنائهما عن إفساد هذا أو العبث بذاك.

هناك هاجس ما يقطع رأسها جيئة وذهابا أنها قد ارتكبت خطأً في حقهما عندما تركت نفسها تعيش قصة الحب بأكملها لكنها عندما تزن الأمور بعقلانية أكثر وتتدخل قشرتها المخية المبرمجة على الحسابات المنطقية تجد أن ما فعلته انعكس على طفليها بالإيجاب وأن ارتياحها النفسي واختفاء التوتر الذي كان يصبغ سلوكها كان أفضل لهما.

مرَّ أسبوع منذ لقائهما الأول كزوجين التقيا خلاله مرة ثانية واليوم سوف يكون ثالث لقاء لهما وأول عيد حب يمر عليهما. لقاءان لم تهيء

نفسها لهما بل تركت الأمور تجري في مسارها وحسب. كانت مضطربة وتترقب ما سيسفر عنه أول لقاء يكون لهما خلف باب مغلق.

فهمت في ذلك اليوم معنى نصيحة ماركيز الشهيرة التي قال فيها "لا تترك نفسك تموت دون أن تعرف روعة (فِعْلها) مع من تحب" وأحست تلك الروعة حقًا فقد كان امتزاج روحيهما أجمل كثيرًا من امتزاج جسديهما في تلك اللحظة. اتسعت ابتسامتها وهي تتذكر كيف كان إحساسها مختلفًا تمامًا مع إبراهيم وكيف صبغ الحب هذا اللقاء بألوان لم تعهدها من قبل كيف كان رائعًا في هدوئه وأروع في عنفوانه.

قطعت أفكارها رسالة من إبراهيم نظرت لشاشة الهاتف كان يعتذر لأنه سيؤجل لقاءهما ساعتين ليكون السابعة بدلاً من الخامسة لوجود ضغط في العمل وافقت فقد كان ذلك مناسبًا لها أكثر لترتب لهذا اللقاء كما كانت تتمنى.

في ذلك الوقت كان إبراهيم في المستشفى والوضع مشتعل نظرًا لحدوث حريق في بيت قريب وقدوم عدد كبير من المرضى للمستشفى مما اضطره للبقاء مع محمد لمساعدته في العمل حتى تهدأ الأمور.

كان العدد يتجاوز العشرة مرضى وكان إبراهيم ومحمد فقط الطبيبان المتواجدان في قسم جراحة التجميل، قاما بإبلاغ المدرس المساعد النوبتجي للحضور وإبلاغ رئيس القسم الذي أكد لهما أنه سيحضر بأسرع وقت.

كان أولويتهما إعطاء المرضى العشرة جرعات من المورفين لتسكين آلامهم حتى يتسنى لهم فرز الحالات وبدء العلاج المناسب لكل حالة على حدة.

استدعى محمد عددًا أكبر من التمريض لمساعدتهم في العمل وبدأوا في تقييم حالات المرضى.

لفت انتباه إبراهيم مريضٌ قد احترق ذراعاه بشكل كبير وقد تعلم أن مثل هذه الحروق قد تمنع وصول الدماء إلى يديه بشكل طبيعي مما قد يؤدي إلى فقدانهما.. نادى على محمد قائلاً:

- بُص معايا ع الحالة دي كده يا محمد.

نظر محمد للمريض وقال له:

- أنا عندي عيان زي ده برضه وبلَّغت د. عمر وقال منعملش حاجة لحد ما يوصل.

لم يعجب إبراهيم ذلك القرار وكان يرى أنه لابد من أن يتدخلا فوريًا بعمل إسكاروتومي وهو شق بطول ذراع المريض في الجزء المحترق ليخفف الضغط على الشرايين التي تنقل الدم لليد والأصابع.

طلب د. عمر المدرس المساعد لاستئذانه لعمل ذلك لكنه لم يسمح له وطلب منه ألا يقوم بعمل أي شيء حتى وصوله. نظر لمحمد وقال له إنه لن ينتظر وأن الدكتور صلاح الأستاذ المشرِف على وحدة الحروق أخبره مرارًا أن حالة كهذه هي حالة طارئة لا ينفع معها الانتظار ويمكن إجراؤها دون استئذان، فردَّ محمد قائلاً:

- براحتك بس انت اللي هتلبس مش أنا انت عارف ان عمر مقرف وشكّاي.

هزَّ إبراهيم كتفيه بما يدل على عدم اكتراثه وأرسل أقارب المريضين لشراء أربطة ضاغطة من صيدلية خارجية (لعدم وجودها في المستشفى) ثم أدخل المريض الأول بعد أن أقنعه ومن معه - بصعوبة - بأهمية عمل شق طولي على جانب ذراعه. بدأ في إجراء هذا الشق (أو ما يسمونه إسكاروتومي) وفي داخله قلق لأنها أول مرة يجريه منفردًا والقرار قراره هو ومسؤليته وحده.

مع أول قطع بالمشرط تدفق دم غزير من ذراع الرجل مما هزَّ ثقته قليلاً لكنه استعاد سريعًا رباطة جأشه وطلب من الممرض المساعد له أن يضغط على أماكن النزف حتى ينهي عمله، بعد أن انتهى وجد أن أصابع المريض لا تزال باردة فقام بعمل شِق ثانٍ في الجانب الآخر من الذراع.

أنهى إبراهيم عمله واطمأن على المريضين، في الوقت الذي كان ينهي فيه محمد إجراءات حجز المرضى الآخرين. بعد دقائق فوجيء كلاهما بالدكتور صلاح قادمًا وهو ما أثار استغرابهما فقال لهما إن مدير المستشفى اتصل بهما واستأذنه في أن يحضر لرؤية الحالات بنفسه.

كان أول ما سألهما عن المدرس المساعد النوبتجي فأكدا له أنه في الطريق وإن لمّح محمد إلى أن غيابه مؤثر وأنه كان من الأفضل تواجده وهي طريقة خبيثة في التحدث ستؤدي إلى تحميل عُمر اللوم شكل أو بآخر.

بدأ الدكتور صلاح بالمرور معهما على المرضى وأثنى على حُسن تصرفهما وأعطاهما بعض التعليمات الإضافية لعلاج المرضى إلى أن توقف عند المريض الأول الذي أجرى إبراهيم له شق (إسكاروتومي) في ذراعه:

- مين اللي عمل الإسكاروتومي ده؟

أجاب محمد بسرعة:

- إبراهيم يا باشا.. أنا كنت بحجز الحالات التانية.

نظر إليه إبراهيم بغيظ لكن د. صلاح سأله عن سبب هذا الإجراء فشرح له وجهة نظره فسأله ثانية:

- استأذنت من حد قبل ما تعمل كده؟

- أيوة بلَّغت د. عمر.

دهش محمد من كذب إبراهيم وهو يعلم أن عمر سينكر ذلك لكن إبراهيم كان يراهن أن الإجراء الذي اتخذه كان هو الصواب وأن من مصلحة عمر أن يكون هو من أذنَ به وليس العكس.

فحص الدكتور صلاح يد المريضين ثم نظر إلى إبراهيم مبتسمًا وحيَّاه بشدة قائلاً له إنه اتخذ القرار الصحيح وأنقذ أيدي المريضين.

- برافو عليك يا إبراهيم طلعت واد جدع وبتفهم اللي بيتشرحلك.. أنا هقعد شوية في المكتب ولما عمر ييجي ابعتوهولي.

مرت مدة قصيرة وجاء عمر وقابله إبراهيم وشرح له حالات المرضى وما قام بفعله فغضب عمر ولامه بشدة، شرح إبراهيم له ملابسات الموقف وما اضطره لفعل ما فعل دون الالتفات إلى أوامره وأخبره أنه قال للدكتور صلاح أنه قام بإجراء شق الذراع (الاسكاروتومي) بعد استئذان عمر.

- أنا هقوله انك كذبت عليه وانك ما استأذنتنيش في حاجة.

- براحتك يا بيه بس أنا شفت انه هيزعل منك لو عرف انك مرضيتش تخليني اعمل اسكاروتومي وانا عملت كده عشان احميك من انه يلوم عليك.

- خلى حنيتك لنفسك.

تركه وذهب إلى دكتور صلاح في المكتب وأول ما رآه دكتور صلاح عاجله قائلاً:

- عارف الحاجة الوحيدة اللي هتخليني اعديلك التأخير ده انك قلت لإبراهيم يعمل اسكاروتومي للحالات والواد عمله كويس.

بهت عمر لما قاله أستاذه ولم يجد أمامه من مفرٍ سوى أن يساير الموجة فردَّ عليه:

- طبعًا يا بيه ما هي دي حاجة ما تستناش وانا عملتها قُدَّام إبراهيم قبل كده واتأكدت انه هيعرف يعملها لوحده.

دخل عليهما إبراهيم بعد قليل واستأذن في الانصراف حيث أنه لم يكن نوبتجيًا وكان موجودًا فقط للمساعدة، تركهما وذهب في طريقه إلى علا آخذا معه حقيبة "هاندباج" أعدها بمناسبة عيد الحب.

سألته اول ما ركب معها في سيارتها عن الحقيبة فابتسم في غموض قائلاً إنها مفاجأه فردت عليه "أنا كمان عاملالك مفاجأة" وقالت له إنها قد رتبت أن يقضيا معًا الليلة حتى الصباح في شقتها .

- طب والأولاد والناني بتاعتهم؟

- ماما شبطت فيهم سبتهم لها همّا والناني وقلتلها اني هبات في شقتى عشان جنب الشغل وبكرة شغلي بيبدأ بدري.

كاد يقفز من السعادة لاقتراحها ذالك وأخذ يحكي لها عن مغامرته الصغيرة في العمل وهي تستمع بسعادة وبابتسامة متفاخرة، ثم حكت له بدورها عن ما حدث في تقديمها لبحثها إلى أن وصلا إلى شقتها فطلب منها أن تنتظره في صالة الشقة وقال:

- متدخليش إلا لما اناديكي.

انتظرت خارجًا مايقرب من نصف ساعة وهي على أحرِّ من الجمر حتى أتاها صوته مناديًا إياها بالدخول، ما إن فتح الباب حتى كاد قلبها يتوقف من مفاجأته، وجدته متأنقًا ببدلة كاملة وراكع على قدمه وبيده باقة ورد.

ما أبهرها أكثر هو ما فعله بالغرفة.. كانت الورود مرصوصة بعناية على جوانب السرير وفي وسطه كتب بورود أخرى كلمة أحبك، وكانت هناك شمعتان فوّاحتان بعطرٍ فخم على جانبي السرير وانبعثت من آخر الغرفة صوت أغنية هادئة ورائعة لم تسمعها من قبل.

دمعت عيناها من الانفعال وتناولت الورد منه وانحنت عليه تضمه وتقبِّله. وقف على قدميه وأطفأ الإضاءة وغاب معها في نوبة من نوبات العشق الصافي استغرقتهما حينًا طويلاً وعندما أفاقا منها قالت له:

- نفسي مرة أغلبك.. دايمًا بتفاجئني.

- انتي مفاجأتك أحلى.

- انت مش متخيل.. اللي انت عملته ده مجاليش في أجمل أحلامي، إنت معيّشني بره الدنيا الحقيقية .

- انتي اللي معيشاني أجمل أحلامي.. بس أنا جعان.

ضحكت على كلامه وهي تعلم طريقته في استخدام المزاح لتخفيف جرعة العواطف المفرطة التي دومًا ما تجتاح لقاءاتهما.

تركته وقامت لتعد العشاء ثم قام هو خلفها بعد دقائق أخذ يتأملها وهي واقفة تحضر له عشاءه، التفتت خلفها كأنها أحست بوجوده فوجدته ينظر إليها مليًا:

- متبصليش كده.. بتكسفنى بجد.

- حاضر مش هبص شوفي اللي بتعمليه وانا هبص على المطبخ.

ابتسمت له وأكملت عملها تظاهرا بأنه خرج ثم عاد ثانية واقترب منها، أمسكها بين ذراعيه وضمها بقوة ونسيا معًا ماذا كانت تعد للعشاء.

* * *

- 21 -

جلس حامد ومعه خليل يحتسيان الشاي في انتظار بدء الحفل الذي تم ترتيبه لهما بمناسبة انتهاء فترة نيابتهما. كان هذا اليوم إيذانًا بانتقالهما إلى مرحلة جديدة من حياتهما يحلّقان فيها بمفردهما ويبني كل منهما عشه، يتخذ كل منهما خياره في الحياة ليتحمل تبعاته ما تبقى له من العمر. أخذ حامد رشفة من كوبه ثم قال لصاحبه بابتسامة عريضة:

- مش أنا قلت لهاني على الحالة اللي احنا اشتغلناها لوحدنا في المستشفى الخاص.

- الله يحرقك.. مش لاقي غير ده تقوله ده نابه أزرق وهيقرفنا.

- ياكش يولع.. ده أنا قايله مخصوص عشان احرق دمه وقال عامل نفسي باخد رأيه.

كانت جراحة كبرى وصعبة ولم يسبق لاثنين في مثل سنهما إجراؤها منفردين، جاءت المريضة لحامد راغبة في إجراء جراحة لتصغير الثديين فوافق رغم المبلغ الضئيل الذي وافقت المريضة على دفعه، كان يرغب في الإحساس بالاستقلالية في مهنته وبأنه "بلغ أشدُّه واستوى" استعان بخليل وقاما بإجرائها معًا. كان الإحساس مختلفًا هذه المرة رغم أنهما أجرياها من قبل عدة مرات، فالإحساس مختلف حين تتحمل المسؤولية كاملة عن عملك.

مع انتهاء الجراحة وبعد لصق آخر قطعة من الضماد فوق جرح العملية نظرا لبعضهما ببهجة واحتضنا بعضهما وكأنهما لاعبي كرة قد أحرزا هدفا للتو. كانت سعادتهما بالغة وإحساس حامد بالنشوة مرتفع قال لخليل إنه لو كان على جزيرة وحده مع قبيلة من الفتيات الأوكرانيات لما أحس بنشوة كنشوته تلك. ضحك خليل على التشبيه لكنه أكد أن هذا الكلام قد ينطبق على أي جرَّاح إلا حامد.

- انت لسه مُصرّ على السفر يا حامد؟

- انت عارف ان أنا مليش تعيين في الجامعة.. انت هتقعد عشان هتتعين مدرس مساعد هقعد اعمل إيه؟

- طب استنى لما تسجل دكتوراه.

- والله أنا هقعد كام شهر لحد ما ألاقي عقد عمل كويس والإجراءات تخلص لو سجلولي ووافقوا على موضوع رسالة ماشي ما وافقوش ابقى انزل أجازة من هناك أسجل.

كان منطقه عقلانيًا فعقود السفر للخليج متوافرة بكثرة وراتبه هناك يفوق خمسة أضعاف دخله هنا، لو قضى أغلب أيامه في التنقل بين المستشفيات غير أنه لو جعل المقارنة بين ما يستطيع ادخاره في مصر وخارجها فسيزيد ذلك إلى عشرة أضعاف.

كان المرور على المرضى في نفس اللحظة يشهد تطورًا من نوع آخر فقد صار إبراهيم ومحمد هما النواب السناير وقد انضم إليهما نائبان حديثا التعيين ونائب آخر عائد من الخدمة العسكرية. انبرى إبراهيم يشرح لهم

طريقة العمل في القسم والتعامل مع المرضى ويتدخل محمد في الحديث لإضافة ملاحظاته ووضع قائمة بالواجبات والمحظورات.

- خلّوا بالكم أنا ود. إبراهيم سنايير خفاف وطيبين.. مش هنعمل فيكوا ربع اللي د. حامد كان بيعمله فينا بس نسمع الكلام ونلتزم

هز الثلاثة رؤوسهم وبدأوا الانتشار في القسم لأداء المهام المنوطة بهم بينما همست مايسة الممرضة في أذن إبراهيم.

- النواب الجداد دول شكلهم غلابة.. خف عليهم انت وصاحبك ومتعملش معاهم زي حامد.

نظر إليها مبتسمًا وقد ملأه الإحساس بالسلطة الجديدة:

- ده كاس وداير يا ريسة، وكل واحد بياخد منه نصيبه.

تركها ونظر في هاتفه وكأنه تذكر شيئًا فكتب لعلا:

- بقيت سنيور أخيييييييييراااااا.

أرسلت إليه عدة وجوه مبتسمة تبعتها برسالة تؤكد أن هذه مناسبة مهمة للاحتفال ابتسم من كل أعماقه وهو يذكر ليلتهما السابقة ومبيتهما معًا ثانية. اكتسب جرأة معها أكثر وأكثر وبات حديثه معها في أمور الحب صريحًا بطريقة لم يكن يتخيلها. أخذ يراجع تاريخ رسائله معها وتوقف عند رسالتها التي أرسلتها ‘ليه يوم وفاة صديقة عزيزة لديها.

كان في هذا اليوم نوبتجيًا وكان حزينًا لأنه غير قادر على مواساتها، ظل يرسل لها الرسالة تلو الأخرى وفي النهاية ردت عليه برسالة بالإنجليزية تحمل معانيَ أروع من شعر عربي قديم.

"صدقني انت الإنسان الوحيد الذي أتمنى أن أضع رأسي فوق صدره عندما أود البكاء. يومًا بعد يوم يتأكد لي كم كنت محظوظة حين قابلتك وكم كنت على صواب حين اخترتك لتكون رَجُلي، إحساسي بلهفتك على الوجود معي في وقت حزني وطريقة شعورك نحوي تجعلني أحس أنني ملكة متوجة"

قطع حبل أفكاره وتأملاته صوت محمد:

- ارحم أمي العيانة وسيب الموبايل شوية.. معدش فيه غيرنا واحنا اللي هنشيل الطين ورا العيال الجناير دي.

ضحك إبراهيم وهو يكرر تعبير "العيال الجناير" قائلاً:

- ده احنا لسه كنا جناير لحد 8 ساعات فاتوا.

زفر محمد في ضيق وهو يحس أن تحملهما المسؤولية عن القسم جاء في توقيت سيء يشعر فيه أن عائلته مهددة. أخبر إبراهيم عن ما يجول بخاطره فقال له:

- يا عم ما تقلقش الراجل ده كان شكله بيهددكم وخلاص ومش هيعمل حاجة.. فات شهر تقريبًا، لو كان هيعمل كان عمل.

هزَّ محمد رأسه غير مقتنع وهو يتمنى أن يكون كلام محمد صحيحًا. كانت علاقتهما مليئة بالشد والجذب ومحاولة اقتناص الفرص في العمل بل والوشاية المتبادلة أحيانًا، في الوقت الذي لم يكونا يضمران لبعضهما شرًا ويعرفان أن تلك مرحلة من حياتهما ستمر ولن يتبقى منها إلا ذكريات.

محمد كان مطاردًا كثيرًا بهاجس تهديدات الحاج إسماعيل ويرسم في رأسه سيناريوهات عديدة للفعل والفعل المضاد، وبعد مرور شهر قلَّ الهاجس حتى إن أخاه عليًّا سافر إلى عمله في القاهرة بعد ما رتب أمور المحلات وإدارتها.

بدأ الحفل وتناوب الجميع الحديث عن مزايا حامد وخليل ومدح اجتهادهما في القسم وتمنى مستقبلاً طيبًا لهما في مشوارهما القادم في حياتهما وأكد رئيس القسم أنه سعيد بقبول تعيينه في وظيفة مدرس مساعد. بالنسبة لحامد فقد أكد أنه سيحظى بالدعم الكامل من أساتذته في حياته القادمة وفي دراسة الدكتوراه.

- القسم هنا ما بينساش ولاده وأنا شخصيًا مسؤول عنك يا حامد في أي حاجة تعوزها في دراستك للدكتوراه أو في شغلك.

شكره حامد وبدا على وجهه التأثر الشديد وهو يحس بأن جزءًا منه سينتزع انتزاعًا. حين يصل النائب إلى الأيام الأخيرة في فترة نيابته يكون قد وصل لإحساس أن القسم الذي يعمل فيه صار بيته الثاني وصار جزءًا لا يتجزأ من كيانه، ولذا يكون وقع اليوم الأخير له في هذا المكان ثقيلاً على نفسه.

بعد انتهاء الحفل وانفضاض السامر، جلس معهما د. عبد الحفيظ قليلاً وأخذ في تقديم النصح فيما يتعلق باختيارهما للمستقبل، كان يتعامل هذه المرة بودٍّ غريب وبحنوٍّ فوق المعتاد وأثناء حديثه انضم لهم د. هاني (قاسم السماوي كما يسميه حامد) ود. عبد الله وبالطبع لم يفُت هاني تلك الفرصة فقال موجهًا كلامه للدكتور عبد الحفيظ:

- بس برضه يا بيه لازم نفهمهم ان ميفتحوش صدرهم في الشغل، أنا سمعت انهم عملوا حالة تصغير ثدي لوحدهم.

رد عليه عبد الله في قائلاً:

- اومال يصرفوا على بيوتهم ازاي يا د. هاني.. ممكن حضرتك تتبرع وتعمل صندوق نصرف عليهم منه ويقعدوا ميشتغلوش شغل خاص.

تدخل د. عبد الحفيظ في النقاش قبل أن تتصاعد حدته مؤكدًا أنهما لم يعودا صغارًا، وأن عندهما قدرًا من المسؤولية والحكمة يجعلهما ينتقيان الجراحات التي تدرَّبا عليها جيدًا لإجرائها في عملهما الخاص.

- ولو واحد فيكوا جاتله حالة صعبة عليه يكلم أي حد من أساتذته يشتغلها معاه.

انتهى اللقاء وانصرف الكبار وتبقى حامد وخليل قليلاً وعاجله خليل قائلاً:

- كان لازم تقول لزفت هاني.

- طبعًا أنا قاصد لأني عارف انه هيفتح الموضوع في وجود أساتذة أكبر وعاوز الكل يعرف اننا بدأنا نشتغل حالات كبيرة لوحدنا بعلمهم.. اللي بيزمَّر مبيخبيش دقنه.

فوجئا لحظتها بعودة دكتور عبدالله فقد كان يمر على مريض أجرى له جراحة في وقت سابق، دخل عليهما مبتسمًا وهو يقول:

- انتوا لسه لازقين في بعض.. صحيح البطيخ الأقرع بيتدحرج على بعضه.

طمأنهما بأنهما من حقهما العمل كما يشاءان بشرط أن لا يجريا إلا الجراحات التي تدرَّبا عليها جيدًا وأن هاني يحاول دومًا الاصطياد في الماء العكر للجميع.

- المهم يا حامد عاوزك تبقى تعدى عليا في العيادة في أي يوم لو فاضي.

- أمرك يا بيه.

تركهما وانصرف، قاما بدورهما لكي يتوجه كل منهما في طريقه فرأى حامد أحد النواب الجدد وهو يمر من جوارهما مسرعًا. استوقفه حامد لسؤاله عن سبب إسراعه:

- د. إبراهيم قالّي ابلّغ دكاترة التخدير بحالة وقالّي بسرعة.

- د. إبراهيييييم.. شايف يا عم خليل العيال كبرت.

ضحك خليل مؤمِّنًا على كلامه وهو يقول:

- الصغيَّر بيكبر والدنيا مبتفضلش على حال.

* * *

- 22 -

انشغلت دعاء بتدوين ملاحظاتها في ملفات المرضى بعد أن أنهت المرور المسائي عليهم وما يزال هاجس حيرتها يصبغ كل تصرفاتها وأفكارها ولا تزال آلام فراق عادل لها تعاودها في نوبات تزيد حينا وتخفت حينًا. عاد هو من رحلته العلاجية سليمًا معافى وعاد لممارسة عمله بالمستشفى. صار قليل الكلام معها ومع غيرها، ولم يعد يمزح معها بأي طريقة.

كان أكثر ما يؤلمها منه هو مخاطبته لها بلقب "مِس دعاء" لم يكن هو معتادًا على ذلك معها أو مع غيرها، لكن يبدو أنه يريد أن يرسم حدودًا أقوى وأثبت للتعامل معها وكأنه يقول لها "أعطيتكِ أجرك على الوقت الذي قضيناه معًا وكفى".

أمل كان لها رأي آخر وهو أن الرجل أدرك خطأه وأحس فعلاً بمقتضيات عمره وأنه قد عوضها عن خطئه في حقها ليعود إلى رشده دون أن تطارده ذكريات طيشه.

تصدقها دعاء وتؤمِّن على رأيها فأمل هي الأعقل والأكثر إدراكًا لحقائق الأمور، ودعاء ترى نفسها ساذجة لا تقدر على التحليل أو اتخاذ القرار، تقول لنفسها آه لو كان للقلب إعدادات مثل هاتفي لجعلته صامتًا ولأوقفت كل التنبيهات والاهتزازات ولقمت بمحو كل التطبيقات التي تجعله يقلق روحي ولحظرت ذكرى عادل من الوصول إليَّ.

تقلب في صفحات الفيس بوك وتنتقي كل الصور التي تتحدث عن ألم الفراق ولوعة الهجر وإهمال الحبيب وتشاركها على صفحتها، ولترضي الله (حسب ظنها) تنتقي صورة أو اثنتين بهما أذكار لنفس الغرض. تهز قلبها بحّة أم كلثوم وهي تقول "يا حبيبي كل شيء بقضاء" ويُدمِع عينيها مطرب شعبي يغني "اعتبره قلب وراح".

رنَّ الهاتف الداخلي فرفعت السماعة:

- دعاء.. أنا حامد تعاليلي المكتب بسرعة ومعاكي كرسي بعجل.

ذهبت إليه على الفور وجدته واقفًا وإلى جواره فتاة جالسة على كرسي وتتنفس بصعوبة وقد علا صوت شهيقها بما يدل على أنها تعاني من نوبة حساسية صدرية، نظرت باستغراب وهي تستفسر منه عن ما حدث لكنه احتدَّ عليها وطلب منها أن تسرع بالفتاة للطوارىء لإعطائها جلسة أكسجين مخلوط بموسع للشعب الهوائية.

أخذت الفتاة وذهبت بها إلى الطوارئ، كانت الفتاة مرافقة بالمستشفى مع أختها وتعرفها دعاء جيدًا وتعرف أنها مصابة بحساسية تنفسية. لفت نظرها أن ملابس الفتاة غير مرتبة وتعطي إيحاءً بأن شيئًا ما كان يجري بينها وبين حامد وأن الفتاة لم تتحمل انفعالات اللحظة الحميمة ودخلت في نوبة تنفسية.

عدلت من وضعية ملابس الفتاة وهي في المصعد إشفاقًا عليها وبعد أن وصلت الطوارىء أخبرتهم أن الفتاة كانت تجلس معها هي. تعافت الفتاة وشكرتها بامتنان وحاولت التأكيد على أنها كانت تتحدث مع حامد بخصوص حالة أختها، ابتسمت دعاء بطيبة وقالت:

- أنا عارفة يا حبيبتشي بس قولت ان الأحسن اني أقول انك كنتشي قاعدة معايا.

أوصلتها إلى غرفة أختها وذهبت إلى حامد وقالت له:

- هو انت مبتعتقش مش شايف البت أزماتشيك (أي مصابة بالأزما وهي حساسية الصدر).

ابتسم لكلامها ولكنه أكد لها ساخرًا أن ما فعله مع الفتاة كانت بدافع إنساني لأنها مريضة وتحتاج إلى إشباع نفسي، وأنه أخذ حذره وجعلها تأخذ بختين من موسِّع الشُّعَب الهوائية الذي تستعمله قبل أن يقترب منها لكن يبدو أنها لم تتحمل سطوته الرجولية.

- أنا مش فاهمة انت قلبك ده إيه.. موقف ميكروباظ.

- وإيه اللي دخَّل قلبي في الموضوع؟؟

كانت غير مستوعبة لمنطقة المعوج، ورغم أنها أحيانًا تحس باحتياج شديد إلى وجود رجل وإلى إشباع رغباتها الجسدية إلا أنها لم تتخيل أبدًا أن تفعل مثله وتشبع رغبتها مع أي شخص تستظرفه أو تطمئن له دون وجود حب. كان رده المعتاد أن التركيبة النفسية تختلف في الرجل عن المرأة وأن الرجل كان في الأزمنة القديمة يقتني الجواري من النساء للتسرية عنه ولم نسمع أبدًا أن العكس قد حدث.

- بس فيه رجالة كتير عنهم مش زايغة كده.

- سيبك مني أنا واحكي لي عملتي إيه وأخبار حسابك في البنك إيه.

أخبرته أنها في حيرة شديدة؛ أول أسبابها أنها لا تعرف كيفية إخبار إخوتها وأمها بأمر تلك النقود أو بمصدرها ولا تزال في حيرة كيف تستخدمها أو تستفيد بها.

السبب الآخر أيضًا أنه قد انتابها إحساس غريب؛ فعندما تأتيك ثروة لم تعمل لها حسابًا وتفكر ماذا تفعل بها، تتزاحم في داخلك كل رغباتك السابقة التي كبتها الفقر وقلة المال وتتفاجأ في النهاية أن مجموع ما يحتاجه تنفيذ تلك الرغبات يتجاوز كثيرًا حجم الثروة التي هبطت عليك وتحس بصعوبة التخلي عن أي أمنية فكرت فيها فتصاب بالإحباط.. ولذلك فإن الإنسان لو أُعطيَ جبلين من ذهب لتمنى الثالث.

أمَّن حامد على ما قالته واستغرب كثيرًا من الفلسفة التي طرأت على فكرها، وقال لها إنه كان حين يرى أساتذة له يعملون فوق المعتاد داخل مصر وخارجها يتساءل كثيرًا عن ما يريدونه من الدنيا أكثر من الحياة المرفَّهة التي يعيشونها، وبمرور الوقت وحضوره لنقاشات بعضهم رأى أن الشخص كلما صعد درجة في سلم طموحات المال والرفاهية ظهرت له درجات أخرى لم يكن يفكر في محاولة صعودها من قبل واتسعت مطالبه لدرجة تتضاءل أمامها كل الأحلام التي حلم بها حين كان صغيرًا.

- نويت تشعمل إيه بعد ما خلصت فترة نيابتك.. هيعينوك في الجامعة؟؟

- تعيين إيييه.. هي دي بلد بتقدّر حد، أنا خلاص هسيبها واهج.

تغيَّر لون وجهها حين قال ذلك وأحست بثقل شديد يهبط على صدرها وهي تسأله عن السبب.

- البلد دي ملهاش خير في الدكاترة.. أقعد اعمل إيه، أنا لسه لا شقة ولا عربية ولا تحويشة.

- بس انت هنا شغال اهوه وممكن تشفتح لك عيادة.

ضحك بسخرية على اقتراحها فمن أين له بايجار عيادة وتجهيزها وراتب مساعدة تعمل معه فيها، يحزنه حقا قرار السفر ويرى انه سيعطل الكثير من الخطط التي بناها لدراسة الدكتوراة ولتعلم مهارات جراحية جديدة.

يرى حامد أن أحد أسباب مآسي المنظومة الصحية في مصر هو سفر الأطباء في مثل سنه، فالطبيب في بداية الثلاثينات يكون في أزهى فترات منحنى صعوده فيوقف هذا المنحنى ويسافر إلى الخليج ويأخذه السفر سنة فسنة حتى يعود وقد أوشك على منتصف الاربعينات لا رغبة له في التطور، وكل ما يريده أن يفتح عيادة يعالج المرضى فيها بالقطعة ويستثمر أمواله في أي شيء ويموت داخله الموهبة والطموح.

- طيب أنا قايمة اشوف ورايا ايه.

- مالك يا بت اتقفلتي كده ليه؟

- مفيش.

- طيب واربي الباب ده وتعالي.

توجست منه خيفة لكنه طمأنها بأنه لا يضمر لها شرًا وأنها بالنسبة له (حتى الآن على الأقل) مجرد صديقة، واربت الباب وهي قلقة فجذبها إليه واحتضنها برفق وربت على ظهرها بحنان أبوي استكانت له وقد اطمأنت

حقًا أنه لا يقصد شرًا وأنه يحاول في هذه اللحظة أن يتجرد من رغباته وأن يواسيها ويجعلها تحس أن حنوه عليها بدون غرض.

أدمعت عيناها على كتفه ثم سحبت نفسها وجرت نحو مكتبها وبداخلها تتلاطم أمواج من المشاعر المتباينة، لقد أشعرها تصرفه ذلك بالكثير من الارتياح وبأمان لم تكن تتخيل أن يبثه فيها رجل مثله. لم ينقل لها في تلك اللحظة إلا حنانًا صافيًا لمس أعماق وجدانها.

بدأت الفكرة صغيرة جدا في رأسها فاستنكرتها بشدة، بدأت الفكرة تكبر وتنضم إليها أفكار أخرى وتتبلور أمامها كخطة متكاملة لها عيوب ومميزات. بدأ الصوت المستنكر في أعماقها يخفت شيئًا فشيئًا، وبدأت تناقش مع نفسها بصوت عالٍ تبعات فكرتها وكيف تتصرف وكيف تبدأ وإلى أين تنتهي. انتبهت فجأة من أفكارها وأحست أنها قد ذهبت بعيدًا:

- يا نهار اسود.. انا اتهبلتش ولا إيه؟!

فكرت أن تطلب أمل، ولكنها وجدت هاتفها مغلقًا، حاولت مرة ثانية وثالثة دون جدوى في النهاية قالت لنفسها أنها ستنتظر إلى الغد حتى تقابل أمل وتتحدث معها.. كان ذلك أفضل في رأيها فأمل هي التي ستفنّد فكرتها وترى الصالح وتخطط معها، بدأت تشغل نفسها بالعمل وقررت أن تقوم للمرور على اثنين من المرضى لتلهي نفسها.

تلك هي الخطة الأمثل فما تفكر فيه جنون بلا شك.. حامد هو آخر رجل يمكن أن تفكر في الزواج منه. إنه لعوب لا يترك فتاة تعجبه تمر من بين يديه مرور الكرام.. كيف يخطر ببالها أصلاً أن تطلب منه أن يتزوجها

ولم يمر وقت طويل على موقف الفتاة التي كانت معه وأصابتها الأزمة التنفسية.

دخلت عند المريضة الأولى، وقامت بقياس ضغطها وتكلمت معها ثم خرجت من عندها لتدخل للمريضة الأخرى. وقفت لحظة تفكر، نظرت في هاتفها ثم نظرت للممر الذي يقع في نهايته مكتب حامد ثم تسارعت خطواتها نحوه حتى وصلت وفتحت الباب عليه وهو جالس على مكتبه، رفع بصره إليها متسائلاً:

- عاوز اقتشرح عليك حاجة.. إيه رأيك لو نتشارك في مركز ليزر وتبقى مديره؟

- يا ريت.. أولاً معاييش اشاركك وثانيًا ترخيص الليزر ده عاوز دبلومة مكلفة وانا مخدتهاش.

أعادت صياغة اقتراحها، وأنه من الممكن أن يشاركها بمجهوده مبدئيًا وتقرضه جزءًا يشارك به ويرده له فيما بعد.

- ممكن بس نشوفلنا استشاري جلدية يشاركنا ونرخص باسمه.

- يعني كده متسافرش صح؟

- واسافر ليه بقى هو أنا غاوي قرف.

- بس ليا شرط واحد. قالتها وابتلعت ريقها واستجمعت شجاعتها قائلة:

- انك تشتجوزني.

- بصي.. انا لو رديت عليكي هسمّعك كلام مسمعتيهوش قبل كده.. انتي نسيتي نفسك يا بنت الجزمة هو عشان جالك قرشين هتتهبلي.

- لا طبعًا منسيتش نفسي ولا افكر اني اشتريك بمال الدنيا.. أنا عاوزاك تشتجوزني لو حتى ع الورق بس ونفهّم أهلي انك كتبتشلي نصيب في المركز مهر ليا.

كانت تقترح ذلك وهي تعلم أنه بمجرد أن يكتب العقد وتترك له نفسها فلن يستطيع أن يمنع نفسه عنها ولن يبقى زواجهما على الورق أكثر من دقائق فهي تعلمه جيدا. هدأت حدة اعتراضه وبدا وكأن الموضوع بدأ يروق له.

- ااااه كده وكده يعني.. بس أنا متجوز ومراتي لو عرفت هتبقى كارثة.

اقترحت عليه أن يكتب في عقد الزواج عنوانًا وهمياً فلا يتم إخطار زوجته بشيء.

- بس القرار ده صعب جدًا، سيبيني افكر ومفيهاش زعل لو قلت لأ.

وافقت على كلامه مبتسمة، واقترحت عليه أيضًا أن يبدآ في التفكير في المكان الذي سينشئون به المركز والاتفاق مع دكتور الجلدية الذي سيشاركهما.

- طب وافرضي قولتلك لأ واني هسافر.

- تبقى ساعدتني انى افتح المشروع ويبقى ليك جميل في رقبتي هيتردلك أول ما ترجع من السفر والمكان مكانك.

خرجت من عنده وهي تكاد تطير من الفرح، وأحست أنها لأول مرة تتصرف بشكل صحيح وأن الدنيا ستبتسم لها أخيرًا.

- 23 -

- قفِّل الجرح يا محمد وحط الغيار على الجرح.

- تسلم إيدك يا بيه.

أخذ محمد يخيط الجرح ويضع اللمسات النهائية على العملية الجراحية التي استعان به أستاذه ليكون مساعده فيها في إحدى المستشفيات الخاصة. كان سعيدًا للغاية بتلك الفرصة فعمليات تكبير الثدي بالسيليكون نادرة في المستشفى الجامعي الذي يقصده في الغالب مرضى فقراء لا يقدرون على دفع ثمن حشوات السيليكون، وبالتالي ففرصته في تعلم مثل تلك الجراحات لا تأتي إلا في المستشفيات الخاصة.

خرج من الجراحة وأنهى ارتداء ملابسه وقابله أستاذه وأعطاه أتعاب مساعدته، وبالطبع أقسم محمد أنه يكفيه التعلم وأن المال آخر شيء يفكر فيه لكن أستاذه أصرَّ على أن يأخذ أتعابه. أنهى مهمته وركب "تاكسي" ليعود به إلى المستشفى الجامعي ليلقى جسده على أول سرير يقابله في سكن الأطباء.

قبل أن يخلد إلى النوم طلب زوجته ليتحدث إليها قليلاً:

- وحشتيني موز موز موز.

كان معتادًا أن ترد عليه بمزحة يكررانها منذ أيام خطبتهما لكن أتاه صوتها منقبضًا وهي ترد التحية بمثلها، سألها ماذا حدث لم ترد عليه تهربت من الإجابة، أقلقه ذلك أكثر وتحت ضغط من إلحاحه قالت:

- خد ماما معاك اهيه.

ردت أمه عليه قائلة إنها كات تنتظر عودته لتخبره بما حدث فاليوم الثلاثاء وهو عائد غدًا ولا داعي لقلقه.

- يا ماما والنبي قوليلي أنا اعصابي مش مستحملة.

حاولت طمأنته بأن هناك مشكلة بسيطة سببها لهم الحاج إسماعيل، وأن أخوه عليّ موجود ويحاول التصرف، ألحَّ عليها كثيرًا فقد كان الأمر فوق تحمله.

- الحاج إسماعيل بعت بلطجية ضربو العمال بتوعنا وطردوهم وقاعدين في المحلات دلوقتي بيفتحوا ويقفلوا زَي ما يكونو اصحابها.

أدهشه كلامها أكثر مما صدمه وسألها عن ما يعنيه هذا وهل صارت أملاك الناس مستباحة هكذا.. أخبرته أن أخاه ذهب وقدَّم بلاغا وجاءت الشرطة فوجدت المحال مغلقة وكأن شيئًا لم يحدث وقاموا بتمكينه من المحال، ولكن في اليوم التالي تكرر ما حدث سابقًا وأعاد هو الكرة واتهم الحاج إسماعيل صراحة ولكن لم يصل لشيء لأن الشرطة حين عادت للمعاينة لم تجد أحدًا ووجدت المحال مغلقة.

- كده يبقى ليهم حد في القسم بيبلغهم.. طيب سلام يا ماما أنا هكلم علي كده واشوف.

أغلق معها الهاتف وطلب رقم أخيه. مر وقت ولم يرد عليه وضع الهاتف جواره وانتظر قليلاً وهو مستغرق في أفكار متضاربة وقرارات متخبطة. كان يعلم أن الحاج إسماعيل نابه أزرق وأنه سيحاربهم بوسائل قذرة لكنه لم يكن يخطر في باله أن يضع يده على المحال هكذا وكأن البلد صارت موقفًا لسيارات الأجرة يحكمه بلطجية الكارته ويعطون فيه ما يشاءون لمن يشاءون.

بعد قليل رنَّ هاتفه وكان أخوه عليّ الطرف الآخر.

- أيوة يا محمد، أنا مش عارف هم قالولك ليه بس؟

- كبَّر دماغك.. إيه آخر الكلام؟

لم يكن كلام عليّ مطمئنًا على الإطلاق فقد ذهب علي| إلى القسم للمرة الثالثة ولكنهم لم يعيروه انتباهًا وحذروه بأنهم إذا ذهبوا معه للمعاينة مرة أخرى ولم يجدوا أحدًا فسوف يتم حبسه بتهمة البلاغ الكاذب، وحين ذهب محاوِلاً إقناع بعض الجيران بالذهاب معه للقسم والشهادة في بلاغ رسمي لم يذهب أحد معه.

- ليه محدش رضي ييجي.. إيه الوساخة دي؟

- الناس خافت.. البلطجي اللي مأجره الحاج إسماعيل أكبر بلطجي على مستوى المحافظة واللي معاه فيهم اللي شايل فرد واللي معاه آلي

- طب وهنعمل ايه دلوقتي؟

- أنا رحت للأستاذ مأمون المحامي وقالّي هيشوف بس الموضوع مش سهل والراجل ليه ناس تقيلة سانداه ونصحني احاول اتفاهم.

- لأ طبعا سيبك منه.. متعملش حاجه لحد ما اجي.. أنا هتصرف.

طار النوم من عينيه ولم يعد له سبيلاً، وجسده المكدود أجبره على أن يظل ممددًا على سريره بلا حراك تتصارع ألف فكرة وفكرة في رأسه ما بين أفكار تحلل ما حدث وأفكار تتخيل ما يحدث وأفكار تتحسر على الإجازه التي سيقضيها في مشاكل بدلاً من أن يريح اعصابه. قد يبدوا ذلك التفكير لأول وهلة غريبًا، ولكنه يتحمل الكثير في الأسبوعين الذين يقضيهما في المستشفى ويعتبر أن إجازته هي الواحة التي يلجأ إليها وهو على وشك الانهيار.

انقضت ليلته في شد وجذب بينه وبين النوم وكان اليوم التالي يومًا مشحونًا بالعمل والمشاحنات مع التمريض والعمَّال والنوَّاب الأصغر؛ فلا أحد يقوم بعمله على خير وجه والكل في عينه يبدو متكاسلاً وإبراهيم يلعب دور "المطيباتي" بجدارة ولو وجد الجميع نائمين بلا عمل لما رفع صوته ولو قليلاً.

اضطر هو منذ رحيل حامد أن يلعب دور "الشرير" فقد بدأت الترهلات تظهر في العمل بعد رحيل حامد لولا أن بادر هو بضبط الأمور والتكشير عن أنيابه.

انتهى اليوم ووصل بلدته بعد مشوار شاق. ذهب من فوره إلى صديق له كان مشهورًا بمعارفه من العالم السفلي. كان لصديقه هذا فلسفة خاصة في مصاحبة البلطجية؛ فهو يرى أن كل إنسان فينا يكمن في داخله الخير والشر لكن ظروفهم أظهرت الشر فيهم وحجبت خيرهم وكان يؤكد أنك ستجد في مجتمع البلطجية الشهم والنذل والكريم

والبخيل والطيب والحقير بنسب تقترب من نسبهم في مجتمع للأطباء أو للمهندسين. لا يدل مثال على ذلك كالذي تراه حين تتأمل النخبة في بلد كمصر وترى فيهم كل أمثلة القبح كما ترى فيهم أحيانًا أمثلة للخير.

وصل إلى بيت صديقه ووجده يعلم بالمشكلة التي حدثت.

- يا ابني دي البلد كلها بتتكلم.

- طيب عاوزين نشوف حل.

-مفيش غير انك تخلص معاه.. كل حاجة معاه، الحكومة والبلطجية ومجلس المدينة.. ريَّح دماغك المعركة خسرانة.

لم يقتنع محمد وسأله إذا كان يستطيع أن يوصله إلى أحد الأشقياء الذين يعرفهم وسيدفع له ما يريد فالشر لا يجابه إلا بالشر.

- إنسى.. الراجل اللي معاه ده اسمه لوحده يرعب أي حد يفكر يقرب من المحلات بتاعتكم.

انصرف من عنده لا ينوي على شيء وإحساس العجز والقهر يملأ نفسه ويجعله يتساءل عن جدوى أي شيء. كيف يكون رجلاً أمام نفسه أو أمام امرأته وهو لا يستطيع الدفاع عن إرثه وذكرى أبيه.

وصل إلى بيت والدته وقبل أن يجلس رأى أخاه وقد لفَّ رأسه برباط من الشاش، تساءل عن ما حدث:

- مفيش روحت لاسماعيل وشتمته وسبيت لعيلته كلها عشان افشّ غِلّي اتلموا عليا العمال بتوعه ورنوني علقة محترمة.

وبعد تلك المعركة الخاسرة حاول أخوه ان يقوم بعمل محضر في القسم، ولكن كالمعتاد في مثل هذه الأمور فقد كان المحضر المضاد جاهزًا ما جعله يسحب بلاغه ويعود أدراجه.

- يعني ايه.. ما قدامناش غير اننا نوافق بعرضه؟

- ده عند امه.. لو وقف على حواجبه.

بقي سؤال محمد وماذا بعد، هدأ علي من روعه وطلب منه أن يقوم لتناول العشاء أولاً لأن لديه خطة سيطلعه عليها. قام محمد وصعد إلى شقته رمى نفسه بين ذراعي زوجته فقد كان أروع ما فيها قدرتها على احتواء همومه مهما كبرت، تحس دومًا بما يعتمل في نفسه، تجبر انكساراته وتظهر انبهارها الدائم بإنجازاته.

عندما اجتمع ثانية بأخيه بدأ يفهم سر التغيُّر في طريقة تفكيره فقد وصل عليٌّ إلى قناعة أن التنازل ليس في صالحهم وأنهم ببيع أملاكهم بثمن بخس يكسبون شرعية لهذا الرجل ويتنازلون عن حقوقهم بشكل قانوني. مهما طال الوقت ستظل المحلات ملكهم والسطوة التي يملكها هذا الرجل اليوم قد تأتي لهم غدًا، وهما ليسا في حاجة ماسة للمال الآن علاوة على ذالك فإن عنده خطة لاستنزاف الرجل.

- ازاي يا ناصح؟

كانت الخطة تتلخص في محورين الأول أن يركز هو وأصدقاؤه ومعارفه على زبائن الرجل ومحاولة إقناع الناس بمقاطعة محلاته والشراء من غيره وهو على يقين أن بعض التجار المنافسين قد يساعدونهم في ذلك.

- كلام فاضي الناس يهمها البضاعة الكويسة الرخيصة وهو ممكن ياخد البضاعة بتاعتنا ويبيعها بنص التمن.

- ده في صالحنا لأننا هنفهّم الناس انها بتشتري بضاعة مسروقة.

هزَّ محمد رأسه في غير اقتناع فحُسن الظن بالناس والاعتماد عليهم هو أسهل الطرق للخسارة المؤكدة، ثم استطرد سائلاً:

- والمحور التاني يا عم الاستراتيجي؟

- حملة ع الفيس بوك نجرسه فيها.

ضحك محمد ساخرًا وهو يؤكد أن أخاه يعيش في الأوهام وأن الفيس بوك لم يعد ذالك السلاح الذي يعول عليه. لم يرَ في كلام أخيه شيئًا مقنعًا إلا اقتراحه بعدم التسليم وعدم إضفاء وضع قانوني على بلطجة إسماعيل لكن الاعتماد على مساعدة الناس والفيس بوك هذا هراء وأوهام شاب في مقتبل العمر لم يواجه حقائق الحياة بعد.

- بُص يا علي أنا مش هحوشك رغم اني مش مقتنع باللي هتعمله بس خلينا نشوف.

* * *

- 24 -

اليوم ليس إجازة بالمعنى المفهوم، ولكن نظرا لانشغال أطباء قسم التخدير في مؤتمر خاص بهم فقد تم تأجيل العمليات الجراحية المخطط إجراؤها في ذلك اليوم، ولأن إبراهيم لم يكن نوبتجيًا فقد خطط لبقاء اليوم بأكمله مع علا يريد في هذا اليوم أن يزيل راسبة في علاقتهما تسبب فيها بغبائه.

كانا قد خرجا معًا منذ يومين في إحدى الحدائق، وكانا يقضيان وقتًا سعيدًا.. هو كان مستمتعًا بالمكان وكان يداخله إحساس عجيب سيطر عليه ذلك اليوم وهو الخوف من انكشاف علاقتهما. كان يدرك في أعماقه أن علا برغم حبها الشديد له سوف تضحي بكل شيء لو أحست أن خطر ما يتهدد علاقتها بأطفالها وأن غريزة الأمومة لديها تفوق بمراحل حبها له وتمنّيها القرب منه.

في ذلك اليوم مضى الوقت بهما مسرعًا، وكان يحس من داخله أن علا تريد منه أن يطلب هو أن يذهبا للشقة لكنه تجاهل إحساسه إلى أن قالت هي "إيه رأيك ما تيجي نروَّح" قال لها إن الوقت قد تأخر. تغيرت ملامحها ووصل له منها إحساسها بالضيق وبأنه قد خدش جزءًا من كبريائها. علا معتزة بنفسها أيما اعتزاز، وكثيرًا ما كانت تقول لابراهيم إنها معه هو فقط قد تخلت عن هذا الكبرياء وتركت نفسها له بلا حواجز ولا حدود، سلمت له روحها وقلبها وخفضت معه أسوار كبريائها.

صارحها بمخاوفه وأكد لها أن وجودها إلى جواره وحديثها اليومي معه صار جزءًا لا يتجزأ من حياته، صار روتينه اليومي أن يستيقظ فيرسل لها قُبلة صباحية أو تسبقه هي وترسلها أولاً. ينهي عملية جراحية فيرسل يخبرها تنجز عملاً فتكتب له ما فعلته.

كانت تملأ يومه حتى عندما يمزح مع أحد أو يضحك على نكتة، كان أول ما يفكر فيه هو شكل ضحكتها حين تستمع إليها. كانت علا حرفيًا مرسومة على جدران يومه وفي طرقاته وكان لا يتخيل أن يختفي ذلك الرسم أو حتى أن يبهت.

وبرغم ما قاله لها إلا أنه لاحظ أنها لا تزال متغيرة. كانت تحكي عن نفسها دومًا أنها حين تتضايق من شخص فإنها لا تحب العتاب والاستماع وكانت تلك أول مرة يراها عليها. بعد مجهود منه على مدار اليومين السابقين أحس أنها قد لانت وبدأت في تفهم ما دفعه لذلك وليزيل ما تبقى من رواسب في نفسها قرر أن يقضي معها اليوم بطوله محاوِلا نيل رضاها.

- يللا عازمِك على فطار استثنائي.

- فين؟

- خليها مفاجأة.

أخذ يدلها على الطريق حتى ركنت السيارة إلى جوار عربة.. فول أشار للرجل فجاء إليه مسرعًا، قال له إبراهيم:

- والنبى اتنين حار وطبق بتنجان مخلل وشوية جرجير وظبطهم لنا كده.

نظرت إليه بابتسامة واسعة، وأحس أنها قد أعجبت بالافطار الذي فاجأها به، وتأمل وجهها وهي مبتسمة ثم أمسك يدها وفجأة انقلبت سحنتها وعبست وهي تصيح باستنكار، وجدها تنظر إلى ما خلفه فنظر ووجد بائع الفول يضرب صبيًا صغيرًا يبدو أنه صبيه.. نزل مسرعًا للرجل وما إن وصل له حتى وجده قد كف عن ضرب الصبي.

- الواد باعته بقالي ساعة يجيب عيش ومش عارف اشتغل بسبب لكاعة أمه.

عاد إليها وبعد دقائق أحضر لهم الصبي مائدتهما، كانت صينية صغيرة ارتصت عليها الأطباق وحزمة جرجير وضعاها بينهما في السيارة وبعد أن انتهى الإفطار، طلبت منه أن يعطي الصبي بقشيشًا كبيرًا.. كان وجهها منشرحًا وقد لوثت شفتاها بقايا من الدقيق الذي كان يغطي الخبز فمسحها بأصابعه فلثمته له برقة.

- عاوزين نحبس بشوية شاي.

- ودينا بقى قهوة بلدي عشان يبقى اليوم شعبي كله.

جلسا على مقهى قريب، وطلب لها شايًا بالنعناع، وجلسا يحتسيانه وهو ينظر إليها بطريقة فيها شيء من الخبث وعيناه تركزان على مفاتنها. احمرَّ وجهها من طريقته وقالت:

- متبصليش كده.. الناس تاخد بالها.

- انتي مسمعتيش الشاعر اللي بيقول.. (فقلت وعيني على نهدها أَفَقرٌ وعندك هذي الدرر".

- سافل.. قصدي ع الشاعر طبعًا.

- كده ظلمنا الراجل واتشتم بدون مناسبة هو بيقول وعيني على دمعها بس الموقف خلاني غيرت الكلمة لأني شايف درر بس من نوع تاني.

ضحكت على كلامه وقد أسعدها غزله الصريح، من داخلها كانت تعرف كم يحبها ولكن أي علاقة حب يعتريها أحيانًا تساؤلات تفرضها ظروف اكتشاف كل منهما لجوانب الآخر، لنقاط اختلاف جديدة وأفكار لم يتصادف أنها قد طُرِحت من قبل، عاجلها بقوله:

- ما تيجي نروح شقتنا يلّا.

لا يمكنها أن توافق هكذا، فالمرة السابقة ضايقتها جدًا وأقسمت من داخلها أن ترفض طلبه هذه المرة:

- مش هينفع لأن الظروف النهارده مش مناسبة.

- آه ياني يا غلبان ياني.. اعمل ايه دلوقتي أنا خلاص هموت.

- من إيه سلامتك؟

- عندي أعراض انسحاب وبدأت يجيلي صداع وضيق تنفس.

ابتسمت وهي تطلب منه الكف عن هذه الطريقة الصبيانية فأكمل مترجيًا:

- والنبي يا ست الضاكتورة عايز اتعالج.

- أنا مش دكتورة يا حاج روح المستشفى.

- ده أنا كمان طلعلي طفح جلدي في صدري وبطني.

-انت كداب يا حاج.

- أبدًا والله طب حتى شوفي.

ثم قام وهمَّ بخلع قميصه وكأنه سيكشف بطنه فعلاً لها، فقالت وهي متفاجئة:

- انت هتعمل ايه اقعد.

- لازم اوريكي.. عشان تصدقي اني عيان بجد.

- مصدقاك من غير ما تكشف.

- طب يللا خديني على المستشفى.

أسقط في يدها بعد أن قام بكل تلك المسرحية وأحست أنه يرغب بها حقًا، وأن ما حدث كان استثنائيًا فقامت معه قائلة:

- أنا هوافق بس عشان صعبت عليا.

حين وصلا للشقة وما إن اقفل الباب عليهما حتى أدركت كم كان مشتاقًا ومتعطشًا لها.. لم يسمح لها بالكلام ولم يتكلم هو كان مشغولاً بها وتحركا معًا كجسد واحد نحو أوى عشقهما تتساقط الأشياء حولهما ومن فوق جسديهما.

كان يحتسيها كمدمن خمر وقعت بين يديه قنينة نبيذ معتق يرتشفها على استعجال أولاً ثم حين تلذعه قوة طعمها يكمل ارتشافها على مهل.

وصلها إحساسه وغمرتها لهفته فمحت ما تبقى في قلبها من رواسب.. تركت نفسها تذوب بين يديه حتى آخر نفس، كانت ترى الانشطار

والاندماج وكل قواعد الفيزياء التي تدرسها تحدث بينهما، تحس أنهما صارا نواة لذرة واحدة والكون كله يسبح من حولهما. لم تشعر بالدنيا ولا بنبض قلبها ولا تسارع أنفاسها إلا حين وجدت كفه تمسح العرق من فوق جبينها وشفتاه تقبّلان خدها.

لحظتها أحست بأنها قد أنهت لتوّها سباقا ماراثون متتاليين، وضعت رأسها على صدره وراحت في نوم عميق أفاقت منه فوجدته مبتسمًا ابتسامة عريضة فسألته عن السبب فقال لها :

- افتكرت الشاعر اللي بيقول..

- شكلك هتعك.. ابتسم وأكمل قائلاً:

" ملاكي يغفو وعيناي ولهي

تلوذ بأهدابه النائمات

فأنسى حياتي

وتصبح كل أماني أن أصير خيالاً

يلوح برؤياه بضع ثواني

ويغزو كياني

شعور غريب كأني أب

يراقب طفلته النائمة

يرى في انطباقة فيها الجميل

بزوغ صباح أتى مشرقًا بعد ليلٍ طويل"

ثم أكمل قائلاً:

- بموت فيكي.

- أنا بعيش فيك.

- يااااه.. زي ما اكون عطشان وشربت.

- يا سلام يا خويا مش مصدقاك.

- طب وحياة دي النعمة.. وحياة كوباية الشاي اللي هتعمليهالي وللا ما اوعى اشربها.

ضحكت على طريقته في القسم ثم قامت أعدت له شايه وبينما يتكلمان رن هاتفه، كان أحد أساتذته يطلب منه المجيء لمتابعة إحدى مريضاته في مستشفى خاص. أخبرها فعقدت حاجبيها قائلة:

- شغلك أهم مش هقدر اقولك طنش.

- ده لسه الساعة سبعة.. و بعدين تعالي معايا هطلع اشوفها عشر دقايق وبعد كده نتعشى.

* * *

- 25 -

أغلق حامد "اللاب توب" الخاص به بنفاذ صبر وهو يتمتم غاضبًا بعد أن أمضى الساعتين السابقتين محاوِلًا تجميع أبحاث ومواد من على الإنترنت تصلح كبداية لاقتراح موضوع رسالة دكتوراه وهو يلعن اليوم الذي دخل فيه كلية الطب. كان لا يكاد الواحد ينهي مرحلة دراسية حتى يدخل المرحلة التي تليها لكن الأمر بات صعبًا فكيف وسط هموم الحياة اليومية وأعباء البيت الذي يفتحه أن يذاكر كما كان طالبًا.

أكثر شيء يراه مثيرًا للسخرية في هذا الموضوع هو مظهر الأطباء الذين قاربوا على الأربعين وهم يراجعون بعد الامتحان ويتناقشون حول "شطارتهم" في الإجابة وفي يد كل واحد منهم مسطرة وأقلام كتلاميذ المدارس.

كان يجلس في مكتبه في مركز لعلاج الحروق في مستشفى الأمل التابعة لوزارة الصحة وهي مستشفى تخصصي تعاقد للعمل فيها بعد أن ترك الجامعة منذ شهر تقريبًا. خلال هذا الشهر أثبت جدارته في العمل في هذا المكان حتى صار اسمه مقترنًا بمركز الحروق ومرادفًا لتعريف كلمة جراحة التجميل بالمستشفى.

دخلت عليه الممرضة النوبتجية معه لتخبره بأن الطفلة حبيبة حالتها ليست على ما يرام وطريقة تنفسها تبعث على القلق، قام معها ودخل

للطفلة ذات الخمسة أعوام بجسدها الهزيل الذي غطي أغلبه بالشاش والقطن. طفلة واسعة العينين مرحة لا تكف عن الكلام والعبث بما حولها رغم حالتها، نجحت تلك الطفلة بعذوبتها أن تجعل حامد يتعلق بها ويداعبها على غير عادته مع مرضاه.

- روحي استدعي أخصائي الأطفال بسرعة قوليله عندنا طفلة في الحروق عندها صعوبة في التنفس .

من بداية اليوم والقلق يساوره بخصوص تلك الطفلة، حرارتها التي تتجاوز الأربعين ولم يعد يجدي معها لا كمادات باردة ولا أدوية وسرعة تنفسها الكبيرة وهذيانها كل ذلك ينبئه بأنها قد لا تعيش للغد، حضر طبيب الأطفال وفحص الطفلة ثم قال بطريقة تنم عن استغرابه من عدم فهم الجراحين وجهلهم بقواعد التشخيص:

- دي عندها التهاب رئوي.. هتاخد الأدوية اللي كتبتها وهتبقى كويسة.

رد حامد بحدة:

- التهاب رئوي.. انت كده جبت التايهة يعني، البت مش قادرة تتنفس وممكن تحتاج تنفس صناعي.

- أنا فاهم شغلي كويس يا دكتور حامد وانا كتبت ده في ملفها ولو جرالها حاجة دي مسؤوليتي.

أنهى بصق جملته الأخيرة بمنتهى السماجة ثم تركه ومشى، ولكن حامد لم يقتنع بما قاله وأخذ يدور في مكتبه جيئة وذهابًا يفكر في ما يفعل.. من السهل عليه أن يتركها ويعطي العلاج الذي كتبه لها طبيب الأطفال

و"هي ونصيبها" أو يتحجج لضميره بأن حالة كحالتها نسبة الوفاة مرتفعة للغاية وأبواها مقتنعان بذلك فلماذا يوجع قلبه.

أمسك هاتفه وطلب أستاذه الدكتور صلاح ليأخذ رأيه فيها، نصحه دكتور صلاح ببضعة طرق للعلاج يحاول فيها أولاً وإذا لم تجدِ نفعًا فإن عليه أن يذهب مباشرة لأطباء العناية المركزة ويجبرهم على وضعها على جهاز التنفس الصناعي.

بعد مجهود مضن منه بدأت الطفلة بالتحسن فدخل مكتبه وصنع لنفسه كوبًا من الشاي وقبل أن يبدأ في شربه دخلت عليه إحدى موظفات المستشفى:

- دكتور حامد.. معايا بنت خالي عاوزة تعمل شفط دهون.

- انتي عارفة يا مدام سحر ان هنا حروق بس ومفيش تجميل.

- ما هي عاوزاك تعملها لها في مستشفى خاصة.

وافق ودخلت عليه المريضة.. كانت بدينة بشكل كبير، تغطي كتل الشحوم كل مناطق جسدها فنظر إليها ومطَّ شفتيه قائلاً:

- مينفعش ليها شفط دي لازم تخس.

بادرته السيدة قائلة:

- أنا هدفع اللي تطلبه يا دكتور بس اتصرف أنا مبعرفش اخس.

- مش قصة فلوس يا مدام الحكاية انك مش هتستفيدي من أي جراحة أو شفط إلا لما تخسي.

ظلت المريضة تراجعه ويحاول إقناعها لكنها انصرفت في النهاية غير مقتنعة. بعد أن تركته قام ليتابع حالة الطفلة، انتبه لهاتفه فوجد عدة رسائل على "الواتس آب" من دعاء، أرسل لها أنه سيحدثها بعد قليل. وجد الطفلة وقد بدأت في التنفس بشكل طبيعي وبدأت في الانتباه فابتسم وقال لها:

- إزيك يا زفتة؟

- متقوليش زفت انت اللي زفت.

ضحك عالياً وقد أراحه طول لسانها الذي اختفى منذ الصباح، لكن قلقه على حالتها لم يتركه. جلس في مكتبه وتناول هاتفه وطلب دعاء:

- كلمت دكتور الجلدية والاّ لسه؟

- من زمان والراجل موافق ومرحب بس ندوِّر احنا على المكان.

- ماشي.. فاضي إمتى ننزل نشوف؟

- الخميس.

- لسه ما فكرتش؟؟

- عندي فرصة كويسة للسفر وموضوع الجواز ده مش واكل معايا خالص.

- مش مشكلة خليه بظروفها.. المهم تقعد وما تسافرش.

- طب سلام دلوقتي عشان معايا حالة تعبانة.

أغلق الهاتف معها وقد فتح كلامها سيرة السفر التي يحاول التهرب من التفكير فيها فالراتب مغرٍ جدًا لكن الوظيفة المعروضة عليه ستدفن كل ما تعلمه وستبعده عن الجراحة التي يعشقها ولا يزال غير مستسيغ لفكرة أنه سيعمل طبيبًا في شركة تأمين طبية ووظيفته الوحيدة هي الجلوس على مكتب ومراجعة ملفات المرضى وهل يجب على الشركة دفع فواتير علاجهم أم لا.

قرار صعب على نفسه والأصعب موضوع الزواج من دعاء وهو الرافض تمامًا لفكرة الزواج الثاني ويراها وبالاً على أي أبله يفعلها، إضافة إلى أنه لا يريد أن يخرب بيته بيده. فرصة العمل التي تقدمها له أثارته في البداية لكنه بعد أن جلس وحسبها بالورقة والقلم لم يجدها مجدية وها هي دعاء تتراجع خطوة وتطلب منه البقاء وليؤجل قراره في موضوع الزواج كما يحب.

من الممكن أن يبقى ولا يسافر ويعمل معها في هذا المركز بنسبة كما يتعامل مع أي مركز آخر وتبقى ميزة دعاء أنها لن تسرقه أو تطلب منه مخالفة ضميره وبيع الوهم للناس كما يفعل الكثير من المراكز.

هي تحتاجه بجانبها ولو حتى رفض فهي أجبن من أن تتراجع ويصعب عليها قول "يالجواز يا مفيش مركز" ومن يعلم فقد تضعف مناعة حصونها مع الوقت وتنهار مقاومتها وتخلق لنفسها مكانًا ضمن مقتنياته من جنس النساء وإحقاقًا للحق فإن مؤهلات دعاء تكفي لوضعها في مكانة بارزة بينهن .

انتزعته من أفكاره الممرضة النوبتجية معه، حين نادت عليه ليأتي ويرى الطفلة المريضة. قام بسرعة كالممسوس فوجد الطفلة عادت ثانية لحالتها السيئة وتنفسها المضطرب.

- إجري هاتيلي دكتور الرعاية بسرعة.

نظرت إليه الممرضة باستغراب غير فاهمة فأكمل منفعلاً:

- ما تتنحيليش كده اعملي اللي بقولهولك.

جرت الممرضة لتحضر طبيب الرعاية المركزة الذي ما إن حضر ورأى الطفلة حتى أمن على قراره، ولكنه مطَّ شفتيه قائلاً:

- المشكلة اني مقدرش احطها على جهاز التنفس الصناعي اللي عندي لأن مفيش وصلات مناسبة للأطفال.

- طب اعمل ايه يعني؟

خليني ادورلك كده بس صعب تلاقي والبنت حالتها متسمحش تتنقل مستشفى تانية وحتى لو.. مستحيل حد يقبلها لأنها حالة وحشة أوي.

- أنا عارف ان مفيش مستشفى تاني هياخدها.. هو فيه حد بياخد حالة حروق عادية لما هياخدوا حالة بتموت.

تركه حامد ينصرف على وعد بأن يصدق في المحاولة وظل بجوار الفتاة وما هي دقائق قليلة حتى بدأت الفتاة في الاحتضار وبذل معها مجهودات يائسة انتهت به وهو يخبر أباها من بين دموعه. أول مرة في حياته يتأثر بموت مريض هكذا وكان ذالك باديًا على وجهه وعلى عينيه المغرورقتين بالدموع.

ترك أباها ومعه الممرضة تجهزها وتزيل الإبر والأجهزة من على جسمها، ودخل مكتبه وأغلقه عليه وانهمر في النحيب. كان يبكي بطريقة لم يفعلها منذ طفولته. لم تكن هي أول مريض يموت بين يديه ولا أول طفلة لكنه تأثر بها كثيرًا وترك نفسه لأول مرة في حياته يتورط نفسيًا ويتعلق بمريضته.

لا يعرف هل يبكي لأجلها فقط أم لإحساسه بالعجز وبأنه كان في الإمكان إنقاذها لولا ضعف الإمكانيات والغباء لدرجة نقص شيء صغير بهذه التفاهة، بضعة خراطيم ووصلات لا تساوي شيئًا تموت بسببها طفلة كتلك.

رنَّ الهاتف الداخلي على المكتب فقام متثاقلاً وأمسك السماعة:

- أيوة يا د. حامد.. معلش قلبتلك الدنيا على وصلة أطفال بس ملاقيتش.

- ولا يهمك.. البقية في حياتك يا دكتور.

* * *

- 26 -

وقف محمد وإبراهيم يتشاكسان بصوت خفيض أمام غرفة العمليات وكلاهما يصر على الدخول لإجراء عملية تصليح لشفة أرنبية وكل منهما يقسم أن له الأولوية في دخولها. كان ذلك الخلاف بسبب أنه لم يحدث أن قام أحدهما بإجراء تلك الجراحة منفردًا من قبل كما أن وجود دكتور أمجد في العملية يعني أن من سيكون معه سيحظى بفرصة إجرائها كاملة وتعلمها على يد جراح بارع كالدكتور أمجد.

انتبها على صوته وهو يناديهما، هرعا إليه فنظر إليهما وعلى وجهه علامات الضيق.

- مفيش حد فيكم هيخش معايا حالة الشفة الأرنبية ومحدش فيكم يطلب مني اعلمه أي عملية إلا لما تتعلموا الأول يعني ايه تيم وورك.

بهت كلاهما من طريقته وتبادلا نظرات اللوم فأكمل قائلاً:

- انتوا الاتنين هتدخلوا حالة شفط الدهون لوحدكم، كل واحد هيشفط من ناحية.. لو لقيت أي اختلاف أو شكل مش مظبوط هتخرجوا وغيركوا هيكمل ومفيش دخول عمليات لمدة شهر.

كان كلامه حازمًا ومنطقه شديد القوة وهو بهذه الطريقة سوف يجبرهما على تعديل طريقة التعامل بينهما، خرجا من عنده وتوجها لغرفة

العمليات وقد خرج كل منهما من دوامة أفكاره الخاصة مؤقتًا، وصار تفكيرهما منصبًّا على العملية.

محمد وقد بدأ شقيقه في حملته البائسة على الفيس بوك لمهاجمة وفضح عدوهما الحاج إسماعيل وجدت تلك الحملة رواجًا بين الشباب، ولكن كما توقع محمد لم يهتز الرجل لكلماتهم ولا لبوستاتهم أو صور الكوميكس التي يسخرون فيها منه. مازال الوضع مجمدًا منذ شهرين ولم يجدَّ شيءٌ إلا طباعة أخيه لفتوى تبين حُرمة شراء المال المسروق وتعليقها أمام المحال وتوزيعها.

لم يحاول محمد إثناء أخيه عن عزمه رغم تيقنه أنه لا جدوى من كل ذلك فليس بيده شيء يفعله فإنه إن كنت لا تستطيع أن تكون ندًا لعدوك فكن له كالبعوضة إن لم تجد وسيلة لقرصه فليس أقل من أن تطن فوق رأسه وتزعجه بوجودك وبأنك تتحيَّن الفرصة لفعل أي شيء به.

قاما معًا بالتخطيط للجراحة بعناية وبعد تخدير المريضة كانا يقومان بشفط الدهون منها وكل واحد منهما يتابع عمل زميله للاطمئنان على تناسق الشفط على الناحيتين. أفلحت خطة د. أمجد معهما في جعلهما يتكاملان رغم ما بينهما من ندية شديدة.

رنَّ هاتف إبراهيم، طلب من الممرضة المساعدة أن تريه شاشة الهاتف ليعرف من المتصل كانت علا فطلب إبراهيم من الممرضة إسكات الجرس وأكمل الشفط في حماس، رنَّ الهاتف ثانية مما جعله يرد هذه المرة.. كان صوتها متوترًا متألمًا وهي تسأله أين هو الآن.

- أنا في العمليات.. مال صوتك؟

- لما تخلص كلمني ضروري وياريت بسرعة.

قالتها وأغلقت الهاتف ومعه أغلقت منافذ تنفسه فأصبح صدره ضيقًا حرجًا وهو يسأل نفسه عن السر وكان أول ما خطر بباله هو الهاجس الذي يطارده دومًا وهو أن يكون خبر زواجهما قد وصل لطليقها وهددها بأخذ ولديها. هذا الاحتمال يضعها في اختيار غير متكافئ بينه وبين ولديها. كان أحيانًا يعزي نفسه بأن هذا الاختيار غير ضروري وأنها من الممكن أن تصل إلى حل يجعلها تبقى معه وتحتفظ بولديها في ذات الوقت.

- إبراهيم.. ركز شوية الله يخرب بيتك الحالة هتطلع وحشة وانا هتعك معاك.

- خليك في نفسك أنا مركز أهوه.

أخرج همه ثانية في الشفط وأخذ يحرك أداة الشفط بقوة أكثر، إلى أن دخل عليهما دكتور أمجد ليطمئن على طريقة عملهما معًا فوجد إبراهيم يحرك أداة الشفط بقوة زائدة عن المعتاد فقال له:

- بالراحة يا إبراهيم كده الحتة اللي انت بتشفط فيها هتخس بزيادة وتوطى عن اللي حواليها،

وقبل أن يرد تدخل محمد قائلاً:

- قلتله يا بيه بس هو طنش وانا كده هتّاخد بذنبه.

نظر إليه د. أمجد بضيق قائلاً له:

- أنا مبحبش النواب اللي همهم يبانوا كويسين على حساب الشغل وعلى حساب زمايلهم.. الحالة حالتكم انتوا الاتنين ولسه على رأيي لو طلع فيها حاجة مش مظبوطة انتوا الاتنين هتتحاسبوا زي بعض.

تركهما وخرج فنظر إليه إبراهيم:

- هو انت مبتسترش أبدًا.. على العموم متقلقش أنا كنت بشفط جامد في الحتة دي عشان ناشفة وفيها ألياف كتير مش عشان سرحان.

-معلش يا سيدي.. الله يخرب بيت البي إم اللي هتزعّل الناس من بعض.

ضحك إبراهيم محاوِلاً أن يهرب من توتره وأكملا عملهما معًا، وكان يراجع كل منهما عمل الآخر كل فترة حتى أنهيا العملية وكانت على أكمل وجه، فنظر محمد للنائب الجنيور قائلاً:

- روح يابني نادي دكتور أمجد يبص كده.

نظر له إبراهيم بغيظ طالبًا منه أن يكف عن معاملة النواب الأصغر بتلك الطريقة، فردَّ عليه قائلاً:

- أنا مبعملش فيهم ربع اللي حامد كان بيعمله فينا، وبعدين بطل انت طبطبه وحياة ابوك.

دخل عليهم دكتور أمجد ونظر للمريضة ولهما ثم قال:

- هاتيلي جوانتي معقم يا بنتي.

أحضرت له الممرضة قفازات جراحية معقمة، ارتداها ثم أخذ يجس أماكن الشفط ويقيمها وبعد أن انتهى ابتسم لهما وأعلن أنهما قاما بعمل جيد وأن لهما مكافأة عنده على حُسن تصرفهما وتعاونهما ثم خرج.

كست الفرحة وجهيهما وأكملا وضع الضمادات على جسم المريضة وإن كانت فرحة إبراهيم مغلفة بضيق التنفس الذي يحاصرة منذ أن هاتفته علا. أكمل مهمته بسرعة ثم أمسك هاتفه وطلب علا.. جاءه صوتها مختنقًا وهي تطلب منه المجيء لشقتها بأسرع فرصة.

- حاضر بس خير حصل ايه؟

- بابا عرف كل حاجة وعاوزك دلوقتي.

- ايه.. عرف ازاي؟

- يا إبراهيم مش وقته لما تيجي.

- طب مقالكيش ناوي على إيه؟

- هو قال كتيير قوي بس مقلش ناوي على إيه يلّا بسرعة متتأخرش.

- طيب بس..

- خلاص يا إبراهيم بقه أنا مخنوقة ومش قادرة أتكلم.

أغلقت الهاتف وتركته في حيرته. كان هذا هو أسوأ الاحتمالات في رأيه فاكتشاف أبيها لزواجهما سيضعهما أمام حقيقة أنهما قد تزوجا في السر وسيغدو باقي الصورة مجرد تفاصيل هامشية.

حقيقة أن ما فعلاه خطأ ستحتل واجهة الحدث نحن كبشر لا نشعر بحجم الخطأ الذي نقوم به إلا حين ننكشف، عندها تصير كل المبررات التي نسوقها لأنفسنا ونخمد بها ضمائرنا مجرد حجج لا معنى لها. تتغير مسميات الأشياء في هذه اللحظة فيصير حبهما مراهقة وفكرة زواجهما

جنونًا وحقيقة زواجهما سرًا إهانة لعائلتها ويصير تسللهما لشقتها مجرد نزوة ليلية من عاشقين مستهترين.

دخل عليه محمد وهو مستغرق في أفكاره فقال له:

- محمد.. معلش أنا هستأذن من دكتور أمجد عشان جالي مشوار مهم.

- لا يا راجل.. برضه البي إم.

- يا أخي انت مالك بطَّل رخامة بقى.

تركه ودخل للدكتور أمجد واستأذن منه وذهب في طريقه وقلبه يخفق في اضطراب لا يدري كيف يقابل والدها ولا بأي وجه. إنه حتى لا يدري إن كان الموقف معكوسًا واكتشف والداه زيجته من خلف ظهرهما كيف سيبرر لهما وماذا سيكون إحساسهما بعد أن حرمهما ابنهما الدكتور مثار فخرهما بين الأقارب من فرحة زواجه.

وصل إلى شقتها، فتحت له علا الباب ووجهها ممتقع وخال من التعابير ودخل إلى غرفة الصالون فوجد والدها جالسًا وواضعًا ساقه فوق الأخرى، مدَّ يده في إحراج ليسلم عليه لكن الرجل أشار إليه بالجلوس فهو لم يرسل إليه من أجل التعارف والسلامات.

تركتهما علا معًا وذهبت إلى غرفتها، بادره الرجل سائلاً:

- إحساس مختلف طبعًا وانت داخل الشقة مش خايف حد يشوفك.

لم يرد إبراهيم نزلت عليه كلمة الرجل كأنها دلو من الثلج ألقاه فوق رأسه وظهر له أن الموقف غير مبشر على الإطلاق.

- ممكن اسألك سؤال.. انت زي ابني رغم ان ابني عمره ما هيروح يتجوز واحدة من ورا أهلها عشان أنا ربيته يبقى راجل.

لم يستطع إبراهيم الرد كان حلقه جافًا واستغرب من نفسه ومن إحساسه في تلك اللحظة بأن علا صارت امرأة غريبة عنه يجلس مع أبيها وهي في غرفة مغلقة لا يستطيع رؤيتها وكأنه صار طفلاً ساذجًا لا يقدِّر الموقف الذي فيه.

- الوالد والوالدة في محلة ابو علي يعرفوا ان ابنهم متجوّز واحدة من ورا اهلها وانه عدّى كل الأصول اللي علموهاله.

- أنا معملتش حاجة غلط وبفتخر ببلدي وعيلتي.

- ما تلفش وتدور في الكلام ومتحولش تغلّطني أنا متربي في الفلاحين زيك وعارف ان حركة زي اللي انت عملتها لو في بلدنا ممكن نجيب فيها رجالة ونحقق واشيّلك انت وعيلتك الحق.

لم يكن إبراهيم يدري شيئًا عن تلك الجلسات العرفية وما يحدث فيها وإن كان قد سمع عنها وضاق ذرعًا بطريقة الرجل في تأنيبه كان كل ما يتمناه ساعتها أن يثبت للرجل أنه جاد وأنه جدير بأن يكون زوجًا لابنته، ولكن كان الرجل يكلمه من منطلق آخر، منطلق أب أحس بالخيانة وبأن ابنته تزوجت من خلف ظهره، لم يكن ذلك الدبلوماسي الراقي الذي يسكن في أفخم أحياء القاهرة، كان يتكلم بمنطق فلاح في بلدتهم كل ما يريده أن يؤدب ذلك النذل الذي لم يدخل بيته من بابه وفضَّل عليه التسلل كاللصوص.

- أنا هعمل اعتبار لأهلك ومش هزعلهم على ابنهم اللي فرحانين بيه.. انت هتطلق علا دلوقتي وملكش دعوة بيها تاني وإلا هاخد حقي منك بجد.

- أنا مش هطلقها إلا لو هي طلبت ده.

- هي خلاص عرفت غلطها وعاوزة تطلق.. بنتي غلطت في لحظة ضعف استغلتها انت بمنتهى النذالة انما لما عرفت انها ممكن تخسر أهلها وولادها يتاخدوا منها رجعت لعقلها.

ضغط الرجل على حروف كلماته الأخيرة حينما تكلم عن أولادها وقد حاصر إبراهيم بمنطقه فإذا كان نذلاً وكان يعتبرها نزوة أو مطمعًا فسيتراجع لأن أضرار تلك الزيجة أكثر من فوائدها وإن كان إبراهيم يحبها فسيضحى لكي لا تفقد أولادها ويخسرها للأبد لأنها ستتغير عليه وتعتبر أنه السبب في مآساتها القادمة.

ماذا يفعل هل يتخلى عنها بهذه السهولة هل كانت مجرد قصة عابرة في حياته حقًا وهل سيأتي عليه يوم يفرغ لها رفًا في ذكرياته لتستقر إلى جوار ذكريات المراهقة ومغامرات الحب الصغيرة التي مرت به من قبل

حاول أن يراجع والدها في القرار ويحاول إقناعه لكن الرجل لم يعبأ لكلامه بل انفعل عليه وارتفع صوته في تلك اللحظة قاطعتهما علا وهي على باب الغرفة:

- خلاص يا إبراهيم لو بتحبني لسه طلقني وكل واحد في حاله.

- اقتنعت يا.. دكتور؟

أسقط في يد إبراهيم وخرجت كلماته مهتزة وصوته مختنقًا وهو يقول.

- مادام ده قرارك أنا هحترمه.. انتي طالق.

تركتهما وخرجت وأكمل أبوها الذي ظهرت على وجهه علامات الارتياح قائلاً:

- احنا هننزل دلوقتى وتخلَّص الإجراءات وبعد كده انصحك تكمِّل حياتك بعيد عننا وتشوف مستقبلك.

أنهى إبراهيم الإجراءات مع والدها وقفل عائدًا للمستشفى لم يكن يشعر بشيء في طريق عودته كان متبلدًا بشكل غريب وصل للمستشفى وصعد إلى غرفته بالسكن وعلى وجهه ابتسامة ذابلة يوزعها على كل من يقابله

استغرب نفسه فلم يكن ما يشعر به في تلك اللحظة هو الحزن أو الندم بقدر ما كانت تدور في رأسه في تلك اللحظة كمية من الأفكار والخيالات والخطط التي وصلت إلى تمني ركوب آلة الزمن أو اكتساب قدرات خارقة تمكنه من الاحتفاظ بها.

تمنى أيضا أن يمتلك جهازًا شاهده في أحد أفلام الخيال العلمي قادر على التعامل مع العقل كجهاز الكمبيوتر يمكن محو قطاع كامل من ذكرياته منه دون أن تتأثر باقي ذكرياته أو أفكاره لكنه استبعد هذه الفكره فقد كانت كل لحظة قضاها معها عزيزة إلى نفسه وأقرب إليه من نبضه ولئن يبقى معذَّبا هكذا وفي قلبه تلك الذكريات الرائعة لأحب إليه من اختفائها من ذاكرته فالحزن هو ما يجعلنا بشرًا وهو موجود بأي حال من الأحوال وذكرى حب ضائع خير من عدم وجود ذكرى على الإطلاق.

(وأيقنت أن الحياة، الحياة بغير الهوى - قصة فاترة

وأني بغَير التي ألهبت خيالي بأنفاسها العاطرة

شريد يشق ازدحام الرجال وتخنقه الأعين الساخرة)

شدته من تلك الأفكار ندهة من عامل الاستقبال:

- يا دكتور إبراهيم محتاجينك في حادثة كبيرة تحت ودكتور محمد محتاس لوحده.

- قولهم ملقيتوش وبعدين أنا مش نبطشي.

- معلش يا دكتور الناس فوق بعض تحت ينوبك ثواب.

أدرك في تلك اللحظة أنه بغير "التى ألهبت خياله" لا يزال طبيبًا مسئولاً عن حياة البشر ومطلوب منه أن (يعلق حزنه على الشماعة) مؤقتًا.

* * *

- 27 -

في كافيه شهير في أحد مولات مدينة نصر جلست دعاء مع أمل تحتسيان الكابتشينو ودعاء تحكي لأمل بحماس تطورات علاقتها بحامد ومشروعها الجديد. كانت دعاء تعيش حالة من الارتياح والثقة وتحس أن الدنيا ابتسمت لها وكلما خطت خطوة في ذلك المشروع ازدادت ثقتها بنفسها.

بدأت تخرج قليلاً من حالة ما بعد عادل إلى ما قبل حامد وهي تحس أنها اقتربت منه كثيرًا في الفترة السابقة وبدأ هو الآن يحكي لها عن ما يحدث في حياته وعن الهموم التي يعيشها تلك الأيام، قالت لأمل وهي تمسح بقايا رغوة الكابتشينو من على شفتيها:

- والله حامد ده طلع غلبان أوي من جوه.

- والله انتي اللي غلبانة وهبلة وشكلك هتحبيه.

- الصراحة أنا بدأت ارتاحله وحاسه ان هو كمان بدأ يقربلي.

- يا بنتي حامد ده ميعرفش يحب.. ده فظيع، انتي لو تقدري خدي مصلحتك منه بس من غير حب ولا دياولو يعني لو كمل معاكي في المشروع من غير جواز يبقى خير.

لكن دعاء لم تقتنع فما زالت نفسها تراودها بأن يقبل ويتزوجها وتقسم لأمل بأنه من داخله إنسان طيب وقابل للتغيير.

- طب لو اتجوزتيه وبعدين لقيتيه مع واحدة تانية هتعملي إيه؟

- مش عارفة.

هذا هو هاجس دعاء الذي يداهمها كلما أحست أنها اقتربت من حامد أكثر، لقد قال لها من قبل إنه يحب زوجته ومع ذلك يفعل ما يفعله فما هي الأفضلية التي لديها لتجعلها تظن أنه لن يخونها هي الأخرى. إن رجلاً من نوعية حامد يؤمن دومًا أن امرأة واحدة لا تكفي.. قاطعت أمل أفكارها قائلة :

- هو المينيمام اتشارج هنا كام؟

- متخافيش مفيش منيمام تشارج.

- طب خليها عليا المرة دي.. عشان خاطري.

ضحكت دعاء وهي تطلب من صديقتها ألا تركز في هذه المسائل إلا أن أمل أصرت وأمام إصرارها استسلمت دعاء لكي لا تعطي صديقتها إحساسًا بفارق بينهما، أشارت أمل للنادل فجاء لها بشيك الحساب نظرت للرقم ثم ابتسمت ووجهها محمرّ وفتحت حقيبتها ووضعت ورقة من فئة الخمسين جنيهًا وأعطتها له.

- معلش بقى انتى اللي عملتى فيها بنت بارم ديله.

- ولا يهمك كان خطيبي الله يجحمه بياخد مني خمسينايه زي دي في كل خروجة.. انتي أولى.

- أمل أنا عاوزة اقولك على حاجة بس ما ترديش دلوقتي.

صرحت لها دعاء بما كانت تفكر فيه منذ عدة أيام وهو أمنيتها أن تعمل صديقتها معها في ذلك المشروع بشكل دائم.

- ودي عاوزه تفكير موافقة طبعًا.

- بس أنا كان في دماغي فكرة تانية.

كانت فكرتها تتلخص في أن تقرض صديقتها مبلغًا تساهم به في المشروع لتكون شريكة معها لا موظفة عندها وتدفع لها من الأرباح كل شهر حتى تسدد المبلغ بالكامل، اندهشت أمل من طريقة تفكيرها ورفضت عرضها.

- انتي هبلة يا بت.. مصيبة لتقولي لحامد كده هو كمان.

- لا طبعا انتي أقرب حد ليا وانا هسلفك مبلغ صغير وهيبقى نصيبك بسيط بس هتبقي شريكة انشالله بالعُشر.

- لا يا دعاء مش هينفع.

- بصي يا روح أمك أنا مش باخد رأيك كده كده اللي في دماغى هعمله.. انتي هتبدأي معايا المشروع خطوة خطوة اعتبري نفسك شريكة بالمجهود.

نظرت لها أمل بتأثر وحاولت إثناءها عن رأيها لكن دعاء أكملت قائلة:

- وبعدين فيه في دماغي حاجة تانية كمان.

- ايه هي؟

- هقولك بعدين خليها في وقتها.

- تصدقى يا بت يا دعاء أنا حاسه ان الفلوس نضفت دماغك.

- هههههه.. بجد..

كانت جادة في قولها فدعاء تغيرت ولكن للأحسن، ثبَّت الشعور بالغنى المادي جزءًا من شخصية دعاء المهزوزة وثقتها المفقودة بنفسها وجعلها تفكر بشكل إيجابي، تحاول أن تقوم بالفعل لا أن تنتظر رد الفعل.

- هخللي حامد يدخلني سيما النهارده بالذوق بالعافية.

- ماشي عيشي يا ستي بس ربنا يستر.

افترقتا على وعد باللقاء مرة أخرى، ذهبت أمل في طريق العودة لبيتها وظلت دعاء تتجول بين المحلات الموجودة بالمول حتى جاء حامد سلمت عليه كان وجهه مكسوًا بعلامات الضيق وإن حاول أن يخفيها أخذها من يدها وتوجها إلى أحد المطاعم وجلسا لتناول الغداء.

حاولت أن تفهم منه سر ضيقه وبعد عدة محاولات بدأ يحكي لها عن ذهابه اليوم للمستشفى الجامعي لمقابلة أحد أساتذته لمناقشته في موضوع لرسالة الدكتوراه ولم يعجب الرجل أي شيء من الموضوعات التي اقترحها حامد والتي تعب كثيرًا حتى جمع فيها مادة علمية مقبولة.

لم تكن المقابلة الأولى فقد تكرر هذا الأمر أربع مرات حتى الآن وفي كل مرة ترفض اقتراحاته ويطلب منه البحث في مواضيع أخرى وهذه المرة اقترح الرجل عليه البحث في موضوع لن يمكن تنفيذه في مصر أبدًا وإذا بدأ فيه فلن يتم الرسالة ولو بعد عشرة أعوام.

- بس أنا حاسة ان فيه حاجة تانية مضايقاك.

- بقولك الراجل متنح معايا ع الآخر وأساسًا دماغه مفيهاش أفكار كلها صراصير ميتة.

ظلت تلح عليه وهي تصمم على أن هناك سببًا آخر لضيقه، في النهاية صارحها بأن السبب قد يبدو تافهًا في نظرها وهو يرى أنه بالفعل تافه ولا يدري لماذا الشعور بالضيق. خلفت زيارته الأخيرة للمستشفى إحساسًا قاتمًا بالغربة. كان يمشي في المكان الذي اعتبره بيته يومًا ما والجميع يسلمون عليه باعتباره ضيفًا إحساس كإحساس العروس حين تزور بيت أبيها بعد الزواج وتدخل غرفة إخوتها التي كانت غرفتها من قبل.. إحساس يشبه أن قطعة صغيرة من قلبك قد غادرتك وسكنت هذا المكان.

دخل عند غرفة العمليات ليسلم على إبراهيم ومحمد وقد كان كل منهما منهمكًا في اجراء جراحة. أشار إليهما فردًّا عليه إشارته بترحاب لكن إحساسه بأنه لم يعد من حقه دخول الغرفة إحساس سخيف، والأسخف أنه حين طلب من أحد النواب الصغار إحضار شيء له، استأذن من محمد أولاً.. محمد الذي كان لا يذهب للحمَّام إلا بعد استئذان حامد صار هو الآمر ولم يخفف من ذلك أن محمد نهر النائب الجنيور وقال له إن دكتور حامد هو أستاذه.

استمعت إليه دعاء وواسته قائلة إن تلك المرحلة مؤقتة. كانت تشعر بالأسى لضيقه وبالفرحة في ذات الوقت أنها وصلت عنده لمكانة تجعله يحكي لها عن تفاصيل همه .

- يللا نقوم بقه عشان نلحق الفيلم.

- ارحمينا بقه أنا مليش في السيما والحوارات دي.

- وحياتش النبي.. أنا مطلبتش منك حاجة قبل كده.

اضطر للموافقة أمام وابل من دعواتها وإلحاحها، وقامت معه متأبطة ذراعه متوجهين إلى السينما، وبعد عدة خطوات سحب ذراعه منها قائلاً:

- خلينا ماشيين عادي.. المكان ده منط وممكن أي حد يشوفنا.

وافقت وجعلت ذراعها إلى جوارها ودخلا إلى السينما.. كانت الصالة فارغة إلا من عدد قليل من الناس، جلست إلى جواره ووضعت رأسها على كتفه وهي تشاهد الفيلم، أعجبته الجلسة فرفع يده ليضعها على كتفها لكنها اعتدلت وطلبت منه أن يرفع يده.

- طب ما انتي متشعلقة في دراعي.

- تفرق.. أنا نيّتي سليمة إنما انت الله أعلم بيك.. انت وافقت ان الساعتين دول بتوعي سيبني على راحتي.

- يا أم الشيزوفرنيا اللي عندك.. و بعدينإايه الدلع المِرِق ده الانوثة دي نزلت عليكي إمتى.

- اسكت بقى خلينا نتفرج.

وضعت رأسها على كتفه ثانية وأحست باطمئنان غريب وبأنها لأول مرة تحس معه بالأمان ولم تمضِ دقائق حتى استغرقت في النوم لم ينتظر كثيرًا حتى أيقظها قائلاً:

- وحياة امك.. هو انتي مدفعانا كل واحد أربعين جنيه عشان تنامي ما تروحي تنامي في بيتكوا.

- عارف.. طريقتك دي بموت فيها.

ثم أمسكت يده وطبعت عليها قبلة رقيقة فسحب يده بحرك تمثيلية وهو يقول:

- أستغفر الله العظيم.. يا بنتى متبوسيش إيد حد غير ابوكي وامك.

ضحكت على جملته فاستطرد قائلاً:

- إن كان ولابد يعنى ممكن حاجة غير الإيد.

- ههههههه.. انسى يا عمرو.

كانت تعرف أنها تلعب بالنار وأنه من السهل أن تكتوي بها ولكن الثقة التي اكتسبتها بنفسها جعلتها تغامر ولم لا فما الذي ستخسره.. لم يترك عادل في قلبها قطعة واحدة دون أن يكون له فيها ندبة فماذا يضير إذا زادت واحدة.

* * *

- 28 -

يلخّص علماء النفس ما يعتري الإنسان بعد حادث محزن أو فقد إنسان عزيز في خمس مراحل، وهي: (الإنكار، الغضب، المساومة، الاكتئاب والتقبل)، تحدث عادة بالترتيب فتنكر أولاً أنك قد فقدت ذلك الشخص ثم تحس بالغضب وتلقي باللوم على من تظنه سببًا في فقده ثم تساوم القدَر وتتفاوض معه كي يترك لك شيئًا ثم تكتئب حين تتأكد من أن لا فائدة وأخيرًا تتقبل وتنسى أو تتناسى. أحيانًا قد تتداخل تلك المراحل أو يتكرر بعضها حتى يصل الشخص إلى القناعة النهائية بأن ما حدث قد حدث.

علا وبعد مرور شهرين على طلاقها لا زالت تتناوب عليها المراحل الخمس. لكن أبرزها والذي يسيطر عليها أغلب الوقت كان الغضب.

تارة تصب لومها على أبيها فهو لم يكن ذلك الأب الذي تجده جانبها دومًا. تربت أغلب سنين عمرها وهو مسافر بعيدًا وكانت تسقط مشاعرها واحتياجها لأب على خالها القريب منها. والآن يأتي ذلك الرجل بمنتهى البساطة ليفرض قانونه عليها ويحلل أفعالها ويجبرها عن التخلي عن زواجها ويصل به جبروته إلى تهديدها بإبعادها عن أبنائها.

أحيانًا أخرى تمقت نفسها وترى أنها أخطأت وانساقت وراء مشاعرها ونسيت أنها في مجتمع لا يرحم ولا يعترف باحتياجاتها كإنسانة وكأنثى.

كان ينبغي عليها أن تبصر موضع قدمها. لم يكن أبوها محقًا في شيء إلا حين قال لها إنها أقرب إلى الخليلة أو المحظية منها إلى الزوجة المحترمة.

إبراهيم أيضًا كان مخطئًا، كان غبيًا في تزوجها وهو يعرف ظروفها ومخطئًا أكثر في تطليقها بتلك البساطة حتى وإن طلبت هي ذلك. ما فائدة الرجل في حياة الأنثى إن لم يكن هو جدار دفاعها الأول ضد الدنيا كلها وماذا يعني لنا الحب إن لم يجبرنا على الدفاع عنه. هل يغفر له نبل غايته في حمايتها حماقة وسيلته بالتخلي عن زواجهما.

مازال يحاول الدردشة معها على الفيس بوك، عاد حبهما إلى مكان ميلاده في العالم الافتراضي. كتب لها عن احتياجه لها وكيف أنه مازال يحبها وكيف أنه لن يتخلى عنها وسينتظرها مهما طال الوقت حتى تتحسن ظروفها. كانت ترد عليه وتطلب منه ألا يربط نفسه بوعود قد لا يقدر على تنفيذها.

صار كل شيء سخيفًا ممقوتًا وصارت لا تقدر على التحدث معه فتغلق أي محادثة بعد أربع جمل خاصة إذا حاول أن يعبر لها عن اشتياقه.. تشتاق إليه وتهرب منه ولا تريد أن تنجرف وراء مشاعرها ثانية فقد كرهت إحساسها بأنها امرأة ذات علاقة سرية. لن تحدثه إلا في النور إذا كان لهذا النور أن يجيء يومًا ما.

يجبرها فضولها على فتح صفحته على الفيس بوك كثيرًا، تنظر إليها وإلى ما يكتبه عليها وتعلق أحيانًا فتجده بعد تعليقها مباشرة يحاول التحدث إليها ظانًا أنها بتعليقها تحاول الكلام معه.

كل الرجال أغبياء حين يفكرون في مشاعر المرأة وطريقة تفكيرها وحين يقيسون مشاعر النساء بمشاعرهم هُم ويحللون ردود أفعالهن بتحليلات ذكورية سطحية لا تتناسب وتعقيدات المشاعر الأنثوية التي تتداخل فيها مشاعر الحب بالخوف والتحفز والتماس الأمان وتزيد عليها في الأنثى الشرقية عقد العيب والذنب والخطيئة.

كانت تراه أيضًا يتابع صفحتها ويمطرها بتعليقاته وإعجاباته، كان انفصالهما في الواقع وبقاؤهما أصدقاء على الفيس بوك وضعًا شاذًا لم تدرِ لماذا تركته يستمر.. ربما أشفقت عليه من فعلة كتلك وربما تريد أن ترى بقايا منه لا تدري.

ذات مرة هزتها أغنية لسميرة سعيد تقول فيها لحبيبها أن بعدهما هو نصيبها هي فهي التي لا يداهمها الجرح إلا في ذروة الفرح، أحست ان الاغنية مكتوبة لأجلها فوضعتها على صفحتها.

ندمت بعد ذلك على أنها وضعت تلك الأغنية فقد تعاظم إحساس إبراهيم بالذنب والمسؤولية (الموجودين بالنسبة لها في العالم الافتراضي فقط) وظل يمطرها برسائل تبرير ووعود وأيمان مغلظة أنه لن يتخلى عنها. لم ترد على أيٍّ من رسائله ولم توافق أن تفتح ذلك الباب ثانية.

بعد فترة استوعب الدرس وظل يحاول مراسلتها لكن لا يحدثها إلا في مواضيع عامة وتقبَّلت ذلك لفترة وهو في كل ذلك لا يحاول مهاتفتها ربما لانه يعلم أنها لن ترد عليه، إلى أن جاء يوم رأت على صفحته مزاحًا مبالغا فيه بينه وبين فتاة تسمى نفسها (فارسة الأحزان) ودون أن تشعر تحركت غيرتها فكتبت تعليقًا جاء بعده اتصال منه. كانت أول مرة تترك نفسها

تتحدث معه على طبيعتها منذ افترقا. بعد أن أغلقت الهاتف انتابتها نوبة من الندم والاكتئاب جعلتها بعدها تكف تمامًا عن الرد على رسائله أو التعليق على صفحته.

صارت الآن تفكر جديًا في السفر وتقبلت أكثر فكرة إكمال دراستها في الخارج. حين صارحت والدها بذلك رحب تمامًا بل وأكد لها أنه سيساعدها على السفر بل وإنهاء إجراءات سفر أولادها معها وسيستخدم كل اتصالاته لتذليل العقبات التي قد تواجهها.

أثار أبوها استغرابها وغضبها كثيرًا بذلك التناقض في أفكاره فهو يقدر على حمايتها وجعل زواجها بإبراهيم واقعًا دون أن تخاف من فقدِ اولادها ومازال يبرر لها أنه لا يمكن أن يسمح لها بالاستمرار في زيجة بدأت على أسس خاطئة وأنه يرى إبراهيم مستهترًا لا يقدر على تحمل المسؤولية.

اليوم يناقش إبراهيم رسالة الماجستير الخاصة به، عرفت ذالك أمس من صورة الإعلان التي نشرها على الفيس بوك فكتبت له تعليقا متمنية التوفيق وكالعادة أرسل رسالة بعده مباشرة يبلغها أنه لا يحس طعم فرحته بالمناقشة وأنه كان يتمنى لو أنها موجودة.

لا تعرف هل هي دعوة منه لتحضر المناقشة أم أنه يتحدث فقط عن مشاعره لكنها لم تكن لتحضر على أي حال. بعد أن رأت الرسالة انتظرت حتى تأكدت أنه أغلق الفيس بوك ثم أرسلت إليه ردًا تتمنى له التوفيق وفقط.

كان إبراهيم في تلك اللحظة في خضم الاستعداد لبدء مناقشة رسالته. كانت قاعة المحاضرات الكبرى في المستشفى تمتلىء اليوم أكثر من المعتاد

فاليوم مناقشة رسالتي ماجستير في نفس اليوم لنائبي جراحة التجميل محمد وإبراهيم. ترى في القاعة أطباء وأساتذة وممرضات وترى أيضا أقارب محمد وإبراهيم، مزيج من الملابس الشبابية والريفية وأجيال متعاقبة من الحفيد إلى الجد.

بالرغم من الخلافات بين محمد وإبراهيم واختلاف ظروفهما ومشاربهما كان يجمعهما في هذا اليوم شعور واحد وهو افتقاد إنسان عزيز كان وجوده سيصير مصدر سعادة في ذلك اليوم. محمد يشعر بنقص فرحته لعدم وجود أبيه كان يتمنى أن يجلس في تلك القاعة ويحتضنه بعد إعلان نتيجة المناقشة ويسلم بفخر على أساتذته. يأخذ معه صورة وهو يقبِّل يده أمام المنصة وصورة أخرى أمام لوحة الإعلان الخاص بالمناقشة.

إبراهيم بالطبع كان ينتظر علا وهو يعلم أنها لن تأتي، تغيرت طريقتها معه كثيرًا.. أحيانًا يحس أنها لم تعد تشعر نحوه بذلك الحب الذي كان، وأحيانًا أخرى يحس بأن انجرافها نحوه كان بغرض سد نقص في حياتها وعندما صارت تكلفته أكثر من فائدته تخلت عنه. هل هذا حقيقي هل كان بالنسبة لها مجرد دواء شعرت معه بالراحة من آلامها لكن حين عانت من أعراضه الجانبية كفت عن تناوله ورمت ما تبقى من أقراصه.

يعود ثانية ويعذرها ويقول لنفسه إنه مهما تعاطف معها فلن يحس بالنار إلا من يكتوي بها وأنها مهما فعلت فلها كل الحق هو لم يفعل من أجلها شيئًا ولم يقدِّم لها إلا مجرد ذكريات جميلة تبتسم حين تذكرها حينًا وتدمع حين تفتقدها أحيانًا. يقسم بينه وبين نفسه أنه لن يتخلى عنها مهما فعلت وسينتظرها مهما طال الزمن.

يستحضره في ذلك فيلم الحب في زمن الكوليرا الذي شاهداه معًا بطريقة مبتكره هي في بيتها وهو في المستشفى يشاهدانه في نفس الوقت وهواتفهما مفتوحة يتبادلان رأيهما في المشاهد وكأنهما يجلسان معًا في السينما، في هذا الفيلم انتظر البطل حبيبته خمسين عامًا حتى عادت إليه فما يضيره إن انتظرها هي عشرة أعوام.

شيء آخر كان يجمع محمد وإبراهيم في ذلك اليوم، وهو أنهما موقنان من أن مناقشة الرسالة مجرد إجراء شكلي تمهيدًا للامتحانات التي تليها وحتى الامتحانات صارت أقرب إلى مقابلات الترقية الوظيفية فلكي تترقى لابد أن تحصل على الماجستير ولذلك تحصل عليه في وقت يتناسب مع أقدميتك في العمل لا مع كم اجتهادتك أو سرعة بحثك.

المناقشة شكلية اذن لكنها فرصة لفرحة الأهل والعائلة ولذلك بذل إبراهيم جهودا مضنية مع مشرفه المتعنت الذي كان يصر على تأخير مناقشته ولم يجد حجة ليعجل بها الا تحججه بأن ظروفه المادية سيئة ويريد عقد مناقشته مع محمد في نفس اليوم لتوفير النفقات. استجاب الرجل له فقد كان ضعيفًا أمام تلك الحجة يريد أن يبدو خيِّرًا حانيًا على النواب المساكين.

كانت البداية بمناقشة إبراهيم ثم تلتها مناقشة محمد وبعد أن انتهيا من المناقشة خرج كل منهما وتبادل الصور مع رفاقه وأساتذته وعائلته ثم صعدا معًا إلى القسم وجلسا لبعض الوقت مع أساتذتهما فقد كانا يعتبران في هذا اليوم عريسين يجلس الكل معهما ويهنيهما إلى أن انتهى اليوم بالنتيجة المتوقعة بقبول رسالتيهما وبدء مرحلة الاستعداد للامتحان.

كما كان متفقًا عليه رجع إبراهيم للعمل فقد كان نوبتجيًا بينما سافر محمد مع عائلته إلى بلدته.. ركب مع زوجته وابنته في واحدة من السيارات التي حضرت خصيصًا من كفر الشيخ لتقل أقاربه لحضور المناقشة. كان يومًا مشحونًا بالمشاعر فحضور ذكرى والده كان طاغيًا حتى إن عمه أجهش بالبكاء حين كان يحتضنه مهنئًا على نجاح المناقشة.

كان أخوه على يجلس على الكرسي الأمامي وبدأ يحكي له عن تطورات حملته ويتكلم بحماس عن خططه القادمة والتي تشمل وقفة احتجاجية أمام مديرية الأمن للتنديد بتواطؤ الشرطة مع الحاج إسماعيل في اغتصاب أملاكهما.

- ما بلاش يا على الوقفات دي ممنهاش فايدة، وممكن ناس تخش في وسطيكم تخرب الدنيا.

- ما تقلقش احنا مرتبين كل حاجة ومظبطين كمان مع ناس هتصورنا وهنكبر الموضوع لأقصى درجة.

- براحتك بس اتأكد من نوعية الناس اللي جاية ممكن قريب إسماعيل بتاع الأمن الوطني يكون مرتبلكم فخ.

- يااااا عم سيبك ما ياخد الروح إلا اللي خالقها.

* * *

- 29 -

- فاضل عليكي تكة.. هتيجي يعني هتيجي.

- انسى يا دكتور.. أنا اخري كلام وبس.

ضحك حامد وهو يداعب سهام الممرضة التي على وشك الدخول معه للعمليات لمساعدته في إجراء جراحة ترقيع جلدي لأحد مرضى الحروق. كانت فتاة خفيفة الروح عذبة الملامح وكان يلمح فيها دلالاً وأدلة كثيرة تقول له إنها سهلة المنال لكنها تحب التظاهر بالعكس. كان يستخدم معها طريقته المعتادة في تغليف إيحاءه بالمزاح حتى يصل المعنى المطلوب دون أن يمسك عليه أحدهم غلطة ما.

كان يعمل اليوم في مستشفى الأمل التابع لوزارة الصحة بعد أن ترك الجامعة وكان مريضه اليوم من إحدى الحالات الصعبة التي تشكل له تحديًا شخصيًا. انتزعه من أفكاره اختصاصي التخدير وهو يقول له:

- العيان ده مش هينفع ينام لأن عنده أنيميا.

- لأ طبعًا.. العيان ده لازم ينام لأنه لو ما نامش الانيميا هتزيد وحالته هتتعقد أكتر.

كانت تلك هي المشاكسة المعتادة بين حامد وأطباء التخدير في هذا المستشفى هو يرى أن المريض لابد أن يخضع لجراحة ترقيع الجلد

لإخراجه من الدائرة المغلقة التي هو فيها والتي قد تنتهي بوفاته وأطباء التخدير في هذا المستشفى يريدون ظروفًا مثالية لا يمكن توفرها في مريض مصاب بحروق كبرى لابد معها أن يظل مصابًا بالانيميا بسبب الدم الذي يفقده يوميًا أثناء الغيار على حروقه.

- شوف حضرتك العيان ده لو ما دخلش عملية حالته هتبقى أسوأ من ما لو دخل وبعدين أنا بكلمك بكلام علمي وفي الكتب.

- كتب إيه دي.. و بعدين العيان ده لو عملتله ترقيع الرقعة مش هتمسك والجرح مش هيخف.

هنا استشاط حامد غضبًا وقال له:

- وانت مالك.. ده مش شغلك انت تنيم العيان وملكش دعوة الرقعة تمسك والّا لأ.

كان انفعاله وصل لمدى جعل طبيب التخدير يتركه ويتوجه لرئيس القسم ويشتكي له من أسلوب حامد. أخذ رئيس القسم يراضي الرجل وذهب إلى حامد وقام بدور الوساطة بين الرجلين. كان رئيس القسم معجبًا بحامد وغيرته على المرضى بل وانفعاله، فكان يترك حامد يضغط بطريقته من ناحية بينما هو يلعب دور الشرطي الطيب من ناحية أخرى.

حامد من ناحيته كان مدركًا لهذا الأسلوب وكان راضيًا بدور الشرطي الشرير.. المحزن في الأمر أنك من أجل أن تخدم مريضًا وتراعي ضميرك فعليك أن تكون حاويًا أحيانًا ومشاكسًا أحيانًا تتعارك وترفع صوتك وكأنك في سوق ولست في مستشفى. ينطبق هذا أكثر على مرضى الحروق

الذين يثيرون خوف الأطباء من تخصصات أخرى للصعوبة البالغة في حالاتهم وطريقة علاجهم وتخديرهم.

انتهت المفاوضات إلى أن يقوم حامد بإجراء جراحة محدودة أقل من ما كان مخططًا لها.. وافق حامد على مضض وبدأت الجراحة وبينما هو منهمك فيها دخلت عليه ممرضة كبيرة في السن ترتدي زِي المشرفات وجهت كلامها لسهام الممرضة التي تساعد حامد في الجراحة قائلة:

- إنتي يا مس سهام ليه مش كاتبة في التذكرة إجراءات التعرف على المريض.

نظرت سهام تجاهها معتذرة وهي تشرح لها أن الطبيب تعجَّلها وهنا تدخل حامد قائلاً لسهام:

- انتي يا أبلة انتي خلي عينك في مكان العملية.. هو احنا بنلعب.. مترديش على حد إلا لما تستأذنيني اتعلموا بقى.

ثم نظر إلى الممرضة المشرفة قائلاً بحدة:

- وانتي يا ست انتي اطلعي بره أوضة العمليات.

- لو سمحت يا دكتور أنا بشوف شغلي.. أنا مشرفة الجودة ياريت حضرتك تكلمني بطريقة أحسن من كده.

-جودة ايه يا مدام.. فوقوا من الغيبوبة اللي انتوا فيها المستشفى مفيهاش علاج وانتي جاية تقوليلي جودة اطلعي بره بقولك.

خرجت من الغرفة وهي تتمتم بأنها ستشكوه ولن تتنازل عن حقها لكنه تجاهلها وأكمل عمله بعد دقائق قليلة دخل عليه رئيس القسم غاضبًا

ولأن حامد يعرف أنه سيعاتبه على طرده لمشرفة الجودة من العمليات عاجله هو بالحديث قائلاً:

- يرضيك يا باشا الست بتاعة الجودة دي تدخل علينا في نص الشغل وتقل أدبها عليا كمان.. يعني الواحد تطلع عينه في الشغل وتيجي واحدة زي دي تتنطط عليا.

بهت الرجل ولم يعرف ماذا يقول فصارحه بأن السيدة جاءته باكية من أسلوب حامد معها وطرده لها فقال حامد متصنعًا البراءة:

- والنعمة أبدا ده أنا قولتلها بمنتهى الأدب استني بعد ما نخلص الحالة وبعدين شوفي شغلك هي ما عجبهاش حتى اسأل سهام والعاملة كمان.

أومأتا برأسيهما إيجابًا على كلامه ليس لأنه صادق أو لأنهما تخشيانه بل لأنهما تشعران أنه محق فيما فعله. خرج رئيس القسم واستمر حامد بالجراحة وأكمل ما كان يخطط له بعد أن عدَّل من كلامه مع طبيب التخدير واعتذر له عن انفعاله وأن صالح المريض يقتضي إكمال العمل حتى النهاية.

بعد أن أنهى الجراحة كان وجهه بشوشًا وأحس أنه أنجز شيئًا هامًا ونظر إلى سهام قائلاً:

- تسلم إيدك يا مس.. عازمك على الغدا في النبطشية عشان تعبك معايا.

- ولا غدا ولا عشا أنا زعلانة منك.

- يا غبية افهمي أنا عملت كده عشان مصلحتك لما أزعقلك قدامها تقوم هي تتعاطف معاكي ومتجبلكيش جزا.

أعجبها منطقه فابتسمت له في إشارة بالموافقة ثم تركته لتكمل عملها وعاد هو إلى مكتبه حيث ودعه رئيس القسم متمنيًا له نوبتجية سعيدة وأرسل هو في إحضار غداء له ولسهام ولممرضة القسم الداخلي. تناولوا الغداء معًا وهو سعيد غير مصدق أنه استطاع إنجاز تلك الجراحة اليوم حيث يعتبرها تكليلاً لمجهود شهرين في علاج هذا المريض.

بعد الغداء تركتهما ممرضة القسم الداخلي وبقى هو مع سهام يحتسيان الشاي وبعد أن انتهيا سألها قائلاً:

- عاوز أروح معاكي أوضة الآلات الجراحية عاوز أشوف فيهم حاجة.

نظرت إليه وعلى شفتيها ابتسامة تدل أنها أدركت ما يرمي إليه ثم قالت متظاهرة بالانشغال:

- بس علطول.. شوف الآلات بتاعتك اللي انت عاوزها بسرعة عشان عندي شغل في الاستقبال.

ذهبا معا وغابا وقتًا ليس بالقصير وبينما هما عائدان وقف يودعها عند باب مكتبه قبل أن تذهب هي إلى الاستقبال فاستوقفته قائلة:

- انت نظرتك ليا اتغيرت مش كده ؟

- أبدا والله.

كان يحلف صادقًا فهو من البداية يرى أنها فتاة لعوب لكنها أقسم بطريقة توحي لها بالعكس. تأملها وهي تمشي مبتعدة وهو مبتسم ابتسامة من أنهى لتوة وليمة رائعة. رغم زواجه ومغامراته النسائية الكثيرة إلا أنه يرى أن للفتاة العذراء مثل سهام مذاقًا خاصًا. هو لا يقيم

معها العلاقة كاملة كما يقضيها مع سيدة لكن جسد العذارى يمتعه بطريقة مختلفة وتفاعلها معه يكون أكثر روعة وواقعية.

بعد وقت قصير ذهب للاطمئنان على مريضه وعندما عاد وجد أحد زملائه في انتظاره وبادره سائلاً:

- تحب تسافر الخليج؟

- أه.. بس مش لاقي عقد كويس.

- أنا عندي ليك مكان ما يترفضش وبمرتب كبير قوي.. مستشفى محترمة وهتشتغل مع دكاترة تجميل كبار مصريين وأجانب.

كان العرض مغريًا ويزيل ما كان في نفسه من غضاضة، كان يجدها في العمل الذي عُرِضَ عليه سابقًا؛ فالعمل الآن في مكان محترم وسيكون في مجاله. لا مجال إذًا للبقاء في مصر فهذا العقد يسدّ له كل حجة في عدم السفر سيمكث شهرين تقريبًا في إعداد أوراق سفره يكون خلالها أنهى تسجيله لرسالة الدكتوراه.

و ماذا عن دعاء..؟ ردَّ على نفسه قائلاً مع نفسها بقى" ما الذي يجبره أن يبقى في مصر ينحت في الصخر ويكافح في مشروع لا يمتلكه ليصنع لنفسه اسمًا في مجاله. إن محاولته أن يظهر وسط الحيتان الموجودة في سوق التجميل في مصر كالنقش على الماء ومهما كان دخله فلن يقترب من ربع ما سيتقاضاه في الخليج إضافة إلى الراحة وعدد ساعات العمل المحدودة مقارنة بمصر.

مضت به النوبتجية كعادتها وحمد الله كثيرًا على أن المريض الذي أجرى له الجراحة قد تحسنت حالته. مرضى الحروق يشبعون عنده مشاعره

الإنسانية؛ لم يكن مقتنعًا حين قال له أستاذه الدكتور صلاح ذلك ومع الوقت أحس بتلك الحقيقة. مريض الحروق هو المريض المنسي الذي لا تذكره الدولة ولا حتى الجمعيات الخيرية التي تجمع تبرعات لكل الأمراض المزمنة إلا الحروق التي يتكلف علاجها عشرات الأضعاف مما تخصصه لهم الدولة.

عندما صارت الساعة السابعة فوجىء بدعاء تقف له عند باب مكتبه وبيدها أكياس يبدو أنها تحوي عشاءً لهما، بادرته قائلة:

- قلت أكيد الأكل هنا مش بيعجبك جبتشلك عشا معايا وقلت أشوفك بالمرة.

- إيه المفاجآت الحلوة دي.. إيه اللي طلّعها في دماغك تيجي يعني؟

- الصراحة وحشتني.

- قلتلك مليش في جو الوسادة الخالية ده.. خلينا خفاف أحسن.

جلست معه في مكتبه وهمت بفتح أكياس العشاء فطلب منها أن تنتظر قليلاً فليس له شهية للأكل الآن. أخذت تحكي له عن آخر التطورات في تجهيزات الديكورات للشقة التي سيفتتحون فيها مركز التجميل وهي تتكلم بحماس شديد. كانا قد اشتريا الأجهزة وأنهى شريكهما طبيب الجلدية إجراءات التراخيص ولم يبقَ على الافتتاح إلا الرتوش الأخيرة.

كانت تتحدث وتقاسيم وجهها تتراقص من الفرحة. تغيرت دعاء كثيرًا ولم تعد تلك الفتاة الكئيبة التي لا هم لها طول يومها إلا التفكير فيما فعله عادل أو ما سيفعله. لكنه أحس منها تعلقًا به جعله يحجم عن مصارحتها

بموضوع العقد الجديد لا سيما أن الموضوع لا يزال كلامًا فقط. سيؤجل اطلاعها على هذا الموضوع حتى يصير حقيقة ملموسة.

- ربنا يخليك ليا.. بجد وقفتك جنبي دي وحنيتك عليا أحلى حاجة حصلتلي بعد عادل.

كان صوتها متهدجًا وهي تقول ذلك. أكَّد لها أنه لم يفعل شيئًا يذكر وأنها بنت طيبة وتستحق كل خير ثم حاول تغيير مسار الحديث بعيدًا عن ذلك الجو المشحون بالعواطف (المبالغ فيها) طالبًا منها فتح كياس العشاء فقد أحس بالجوع.

نظرت إليه وعيناها تمتلئان بمشاعر جياشة ثم قالت في صوت خفيض:

- ممكن اطلب منك طلب؟

- اتفضلي.

نظرت إليه وكأنها لا تعرف ما تقول ثم استجمعت رباط جأشها قائلة:

- أنا محتاجالك تضمني أوي.

قالتها وكأن الكلمة تخرج من أعماقها وكأنها طفلة أوشكت على الغرق وتهتف بمن أنقذها ليضمها ويطمئنها أنها في أمان. ردَّ هو عليها بابتسامة عريضة وبصوت ضاحك:

-جيتي في جمل يعني.. تعالي.

أخذها بين ذراعيه وضمها بقوة ولدهشته أحس بحنان جارف نحوها وأحس بأنها أقرب إليه أكثر من أي وقت مضى وتساءل بينه وبين نفسه

إن كانت هي تقصد أن يشعر هو بهذا وتقصد أن يتعلق بها أكثر أم أنها فعلاً كانت محتاجة إليه.

مرت لحظات وهو لا يعرف كيف يفسر ما يعتريه ويسأل نفسه جديًا هل بدأ يتعلق بها وهل استطاعت تلك الفتاة البائسة أن تكسر الحصون التي يبنيها حول نفسه لكنه لم يجد الوقت لإجابة سؤاله فقد دخلت سهام عليهما فجأة بطريقة جعلت دعاء تتراجع في خجل.

نظرت سهام إليهما وعلى وجهها ابتسامة ساخرة ثم قالت:

- يوه يا باشا مش تقول كنت اديتك مفتاح أوضة الآلات اللي كنا فيها أنا وانت العصر بدال المكتب المكشوف ده.

رمت جملتها ثم انصرفت قبل أن يتمكن حامد من الرد عليها.. احمرَّ وجه دعاء بشدة من تلك الجملة واعتراها ندم شديد لأنها وضعت نفسها في موقف جعل فتاة كتلك ترميها بكلام جرح كبرياءها وكان ندمها أكبر لأنها ظنت أن حامد من الممكن أن يتغير، قالت له بغضب:

- البت دي قصدها ايه وكنت بتعمل معاها إيه العصر؟

ارتبك حامد وكان بطبيعته عندما لا يجد ما يقول يلجأ إلى الحدة في خطابة وقول أي شيء يرد بخاطره مهاجمًا من يحدثه بدلاً من أن يبرر لنفسه:

- وانتي مالِك.. مالكيش انك تحاسبيني احنا اصحاب وبس.

- ولا اصحاب ولا غيره أنا كنت فاكرة اني ممكن أقرَّب منك وانك ممكن تكون بدأت تحبني بس الحقيقة انك مبتعرفش تحب.

انفعل هو أكثر وطلب منها ألا تعطيه نصائحَ وأن تبقى في حالها وصارحها بأنه سيسافر ولم يكن ينتوي يومًا أن يبقى معها وأنها بالنسبة له كانت مجرد هدف مثلها مثل أي امرأة في حياته.

جرحتها صراحته أكثر من إحساسها بخيانته فقد كانت دعاء من النوع الذي قد يسامح أو يبرر له أن تلك هي طبيعته وأن ما بينهما لم يكن قد تبلور بعد وصار حبًا ملموسًا وبالتالي هو لم يخنها بمعنى الكلمة.

قطعت عليها كلماته التي اندفعت جارحة إياها كل طريق للرجوع وجعلتها تبصر الأمر على حقيقته للمرة الأولى وتعرف أنها ليست من النساء اللواتي يوقعن الرجال في شباكهن وليست ممن يقال في حقهن "إن كيدكن عظيم".

أما هو فقد غطَّى انفعاله على مشاعره التي تتحرك نحوها وتركها تنصرف غاضبة ثم قال لنفسه:"أحسن أهي وفرت عليا الكلام بنت الجزمة تغور في داهية.. أنا كده كده كنت مسافر".

قالها ومن داخله كان يشعر بضيق حاول أن ينفيه وبغصة في حلقه ابتلعها بالاندماج في محاولته البائسة لإكمال بروتوكول رسالة الدكتوراه الخاصة به.

* * *

- 30 -

كان يوم الاثنين يوًما مهما لمحمد في العمليات فقد وعده د. أمجد أستاذه بأن يجعله يقوم بنفسه بأداء جراحة صعبة يقوم فيها د. أمجد بدور المراقب فقط. كانت الجراحة من النوع الذي يبرع فيه د. أمجد وتتضمن نقل أنسجة من الساق لتغطية عظام القصبة التي تعرضت لكسر وتسوست نتيجة فقد الجلد المغطي لها.

محمد من ناحيته كان ليصبح في قمة نشوته لدخوله تلك الجراحة ولكن نظرًا لأن اليوم يوافق الوقفة الاحتجاجية التي يزمع أخوه القيام بها فقد كان متوترًا ويعمل بنصف مخه فقط وجراحة كتلك سيقوم بها لأول مرة ستستلزم منه ذهنًا صافيًا، ولذا طلب من دكتور أمجد أن يكون إبراهيم بديلاً عنه.

لو أن محمد في ظرف آخر لضن على زميله بتلك الفرصة لكنه بإيثاره على نفسه بتلك الطريقة يكتسب فائدتين الأولى أنه يعطي للدكتور أمجد انطباعًا أنهما صارا فريقًا متفاهمًا وأن الفضل الأكبر في ذلك لمحمد و(إيثاره) والثانية أنه سيستفيد بفرصة تعلم جراحة كتلك في يوم يكون ذهنه فيه صافيًا.

كان رد إبراهيم عندما طلب منه محمد أن يدخل للجراحة بدلاً منه:

- هي ايه الحكاية.. هي الحداية بتحدّف كتاكيت من إمتى.

- أنا مش ناقصك.. كفاية اني نازل العيادة الخارجية مع هاني.

- انت مالك ما تنزل حد من الجناير.

- البيه مصِرّ ان حد مننا ينزل أعمل ايه.. أنا أصلاً مش طايقه وأخويا رايح يعمل وقفة النهاردة قدام مديرية الأمن وأنا مش مطمن.

- متقلقش مش هيحصل حاجة.. أخوك ده راجل وعاجباني طريقة تفكيره.

- والله انتو الاتنين هُبل زي بعض.. توب عليا يا رب.

تركه وذهب في طريقه وقبل أن ينزل أوقف نائبين من النواب الأصغر منه (الجناير) وأمر أحدهما بأن يسبقه إلى العيادة الخارجية ثم أخذ يعطي تعليماته للنائب الجنيور الثاني قائلاً:

- ركّز ومش عايز توهان.. تخلص الغيارات للحالات اللي أنا كاتبلك اسمها في الورقة ومتخليش التمريض يغيرو لوحدهم على أي حالة وتتأكد إن المدير مضى موافقة على عمل أشعة مقطعية للعيان اللي فيه كسر في وشه.

- حاضر يا دكتور محمد.

- الأهم من ده العيانة بتاع تكبير الثدي اللي عاملها دكتور عبد الحفيظ تنزل معاها تعمل رنين مغناطيسي بنفسك وتخلي بتاع الأشعة يطمن أن السيليكون في مكانه ومسربش.. ركز أوي أحسن الراجل لسانه زي الفرقلّة مش ناقصة.

- متقلقش وراك رجالة.

- والله ما جايبلنا الكلام غيركوا يا مساطيل.. و ربنا لو نسيت حاجة ما انت مروَّح الاسبوع ده.

تركه ونزل متوجهًا إلى العيادة الخارجية وفي طريقة هاتف أخاه للاطمئنان عليه.. طمأنه أخوه بأن الأوضاع هادئة ولا يوجد ما يقلق وإن كان أصيب بنوع من خيبة الأمل حيث كان المشاركون معه في الوقفة الاحتجاجية لا يتجاوزون المائة وهو كان يمنّي نفسه بحضور ألف أو ألفين.

- قلتلك اللي متغطي بالناس عريان.

- ولا يهمك البركة في الموجودين واحنا معانا واحد هنا مراسل لقناة فضائية وهيظبطلنا الأداء وكمان قال إنه معاه مصور حريف هيبينا كتير في اللقطات.

- المهم خلي بالك من نفسك.. سلام دلوقتي وهبقى اكلمك تاني.

أغلق معه الهاتف لحظة وصوله للعيادة، كان في استقباله د. هاني بسيل من التقريع واللوم على تأخره في النزول للعيادة ورغم اعتذار محمد إلا أنه استمر في طريقته المعتادة ولم يوقفه إلا دخول أحد المرضى عليهم للكشف.

كان المريض يعاني من قَطعٍ قديم في أحد أعصاب يده ومرت فترة طويلة أدت إلى ضمور العضلات الموجودة في كفه غير أن أكثر ما يزعج المريض هو انعدام الإحساس في غالب كفه مما يؤدي به إلى مشاكل كثيرة. وجَّه هاني سؤاله لمحمد عن رأيه في كيفية علاج الحالة، تلعثم محمد فهو يعرف

أن أي إجابة لن تعجب هاني وسوف يعتبرها خاطئة لكنه حسم رأيه وأجاب بأن الحل هو ترقيع العصب وكما توقع رد عليه هاني قائلاً:

- واضح انك ما اتعلمتش حاجة في نيابتك، ازاي تعمل ترقيع عصب مقطوع بقاله أكتر من سنه وانت عارف ان إيده مش هتتحرك.

- إيوة يا بيه أنا فاهم بس الإحساس ممكن يرجع.

- انت كمان بتقاوحني.. شايف انك فاهم أكتر مني انت كمان متعلمتش تكلم أستاذك ازاي.

- يا بيه أنا مقصدتش أنا ببين وجهة نظري.

- متلفش وتدور عليا في الكلام.. اتفضل خُد العيان للقسم واقعد معاه خد تاريخ مرضي مظبوط عشان تعرضه في اللقاء العلمي هتعرف وللا اخلي حد غيرك يعمل كده يا دكتور.

كان محمد على وشك الانفجار في وجهه لكنه تمالك أعصابه في اللحظة الأخيرة وحمد الله أنه تخلَّص من البقاء معه. أشار للمريض بالمجيء معه وخرج من باب العيادة ووراءه الرجل الذي استوقفه قائلاً:

- إيه يا دكتور محمد.. هو بيعمل معاك كده ليه؟

- ملكش دعوة يا باشمهندس تعالى معايا وانت ساكت.

- لا يا عم ولا جاي ولا نيله أنا نفسي اتسدت من مشتشفتكو دي.. الراجل ابن الـ... ماسكك وعمَّال يشوط فيك يمين وشمال وانت ساكتله.

حاول محمد إسكات الرجل دون جدوى، كان الرجل منفعلاً ويبدو أن الموقف لمس لديه عقدة ما.

- ده أنا في الجيش لما صول عمل فيا كدة ضربته وخدت فيها سنه.. ده راجل ابن... أنا ماشي يا عم.

كان الرجل صوته مرتفعًا وكان محمد متأكدًا أن هاني سمع كل تلك الشتائم مما أراح صدره قليلاً. ترك هو العيادة وتوجه إلى القسم الداخلي ليشغل نفسه بأي عمل بعيدًا عن هاني.

كان الموقف عند أخيه في كفر الشيخ شديد السخونة فبعد عدة ساعات من الهدوء انفجر الموقف. كانت وقفتهم هادئة يهتفون قليلاً ويحملون مجموعة من البوسترات. بعد الظهر بقليل فوجئوا بمجموعة من الرجال الذين يبدو عليهم التحفز. ميز عليّ فيهم بعضًا من أصحاب السوابق المعروفين في بلدته فهي مدينة صغيرة من السهل التعرف فيها على أكثر من تقابلهم.

بدأت تلك المجموعة بالتحرش بهم بالشتائم بألفاظ نابية وعليّ يحاول ألا يرد عليهم هو وزملاؤه لأنهم يعرفون أن الغرض من وجود هؤلاء هو جرّهم للعنف وفض وقفتهم. تطور الموقف فيما بعد لقذفهم بالحجارة بدأت مجموعتهم في الاحتماء من الحجارة خلف بعض السيارات وبدأوا يتبادلون قذف الحجارة.

تطور الموقف أكثر حين قذف أحد المهاجمين عليهم زجاجة مولوتوف أشعلت الأرض بجوار علي وخمسة من رفاقة، وتطور المواقف لتشابك بين البعض هنا وهناك. وضح أن على ورفاقه كانوا يأخذون الأمر على

محمل الجد وكان أغلب من معه يأخذونه بمحمل شخصي. كانو يحسون أنهم يدافعون عن قضية عادلة مهما كانت خاسرة.

أحد أصدقاء عليّ قال له إن ما حدث لهم ليس قضية فردية، إنها رمز لكل فساد وظلم يضرب جنباته في هذا البلد. الظلم دومًا جبان وإذا استطعت أن تكسر ظالمًا وتسقطه فسيكون سقوطه مدويًا وسيتساقط خلفه الكثيرون ممن على شاكلته. سينفخ سقوطه الروح في كل مظلوم ليطالب بحقه وسيبث الرعب في كل ظالم ليتراجع وو يحاول حماية رقبته بالتنازل تلو التنازل.

تدخلت الشرطة بعد ساعتين من الاشتباكات ظهرت فيها الغلبة لعليّ ورفاقه وبدأت الشرطة بإطلاق قذائف مسيلة للدموع. كانت تلك هي الخريطة المتوقعة لمثل هذه الأحداث يحاولون أولاً فض أي تجمع أو تظاهر بتجمع مضاد فإذا فشلت تلك الطريقة تتدخل الشرطة بحجة مواجهة العنف.

انقشعت سحائب الغاز بعد ساعتين من المواجهات وسقط العديد من رفاق عليّ وتم القبض على الكثيرين ومنهم عليّ لكنه لم يتم اقتياده لقسم الشرطة كبقية زملائه وإنما وجد نفسه مقتادا إلى مبنى لم يكن يتوقع أن يدخل إليه من قبل.

كان محمد قد أنهى عمله النهاري وانتهت "لِستة" العمليات ومازال يحاول الاتصال بأخيه دون جدوى في النهاية اتصل بوالدته؛ لم ترد هي الأخرى مما زاد قلقه، اتصل على زوجته جاوبته بأن والدته وعمه يبحثان عن أخيه بعد أن انتشرت أخبار المواجهات التي حدثت عند مديرية الأمن.

بعد قليل تلقى اتصالاً من والدته تخبره فيه بأن الكثير من زملاء عليّ قد سقطوا جرحى ونُقِلوا إلى المستشفى وأن مجموعة أخرى تم القبض عليهم وفي قسم الشرطة ولم تجد هي لعليّ أثرًا في أي مكان.

- أومال راح فين يعني يا ماما؟

- فيه ناس بيقولولنا نسأل عنه في الأمن الوطني.

- يا نهار أسود.. طيب بصي يا ماما أنا جايلكم دلوقتي متعملوش حاجه إلا لما اجي، سلام.

* * *

- 31 -

نظر إبراهيم لهاتفه الذكي ضاحكًا على إحدى الصور الفكاهية التي رآها على صفحة أحد زملائه وقام بمشاركتها على صفحته وهو يتخيل وجه علا وهي تضحك عليها. كانت ذكرى ابتسامتها الرقيقة وضحكتها الصافية محفورة في وجدانه يتخيلها كلما رأى شيئًا أو عاصر موقفًا يعرف أنه قد يضحكها أو يجعلها تبتسم.

الأيام تمر متوالية ولا جديد محاولات بائسة منه للتحدث لها دون جدوى اختتمت منذ يومين بخبر اقتراب سفرها لكندا لاستكمال بحثها. احمرّ وجهه أكثر حين فتح صفحتها كما هو معتاد أن يفعل عدة مرات يوميًا ورآها تضع صورة لشلالات نياجرا ومكتوب تحتها "هانت كلها 10 أيام".

أحس بتلك الوخزة المعتادة التي تركتها فيه منذ أن افترقا. ألم مزمن يروح ويجيء يرهق روحه يوميًا ولا يتوقف. سرح ببصره قليلاً وهو يتذكر مريضًا له كان يصرخ بشدة حين كان يعالج حرقًا سطحيًا في ذراعه خطر بباله أن هناك شبهًا شديدًا بين ألم الحروق وألم الحب فكلما كان الجرح سطحيًا كان الألم شديدًا في البداية لكنه سرعان ما يزول ويلتئم دون ندوب ولا آلام مزمنة. أما العميق منهما فقد يكون ألمه أقل في البداية لكنه يأخذ وقتًا أطول بكثير كي يلتئم وفي النهاية يترك له ندوبًا غائرة تعذبه يوميًا بآلامها المزمنة وصورها المقبضة.

جرحه لم يلتئم بعد وهو لا يريده أن يلتئم.. قطع أفكاره نائبه الجونيور سامح وهو يسأله:

- د. إبراهيم.. العيانة اللي عاملة شفط النهارده بتتوجع أوي رغم اني اديتلها بيرفالجان.

- خلاص اديها حقنة كيتوفان عضل.

- طيب مكان ما شفطنا فيه شوية دم بينزلوا.

- جرى ايه يا سامح.. هو انت لسه صغير منتش عارف ان ده الطبيعي في حالة شفط.. هديها وفهمها ان ده مش دم دي سوايل فيها دهون وهتقف بكره.

انصرف النائب الجونيور من أمامه لكنه عاد ليسأله ثانية:

- معلش بعد إذن حضرتك.. مفيش أخبار عن دكتور محمد.

- اتصلت بيه النهارده مرتين مردش لما يرد عليا هقولك.

كان محمد قد تغيب منذ أسبوع بسبب ما حدث لأخيه واختفائه بعد وقفته الاحتجاجية التي انتهت نهاية درامية. كان كل زملاء على قد أُفرِجَ عنهم بعد تدخل الوسائط والعائلات وتم حفظ التحقيق معهم فأغلب هؤلاء الشبان من عائلات كبيرة في كفر الشيخ والمعتاد في مدينة صغيرة كتلك أن تنتهي مثل تلك الأمور بتعهد كبار العائلات أن يحكموا زمام أبنائهم.

المشكلة كانت في اختفاء عليّ والذي انتهى البحث أخير إلى انه محتجز في جهة أمنية للضغط عليه للتوقف عن "حماقاته" هو وزملائه. كان ذلك طبعًا تحت إشراف مباشر من قريب الحاج إسماعيل الذي يحتل منصبًا

هامًا في تلك الجهة ومازال محمد ومحاميه يبذلان جهوهما للإفراج عنه دون جدوى.

اتصل محامي عليّ بعدد من المنظمات الحقوقية ولكن دون جدوى وشارك زملاؤه بآلاف البوستات على الفيس بوك لم يفلح واحد منها في خلق هزة أو موجة صغيرة في مياه راكدة.

رد محمد على الهاتف أخيرًا: قال لإبراهيم إنه حاول محاولة بائسة مع الحاج إسماعيل من باب الطأطأة للريح حتى تمر. قال له الرجل إن أخاه عليّا فعل الكثير وأنه لابد من أن يسترد كرامته التي نال منها عليّ في الفترة الأخيرة. الرجل من بجاحته ادعى أنه لا يطلب أكثر من حقه وأن الثمن البخس الذي وضعه للمحلات إنما وضعه بعد أن خصم من ثمنها الأصلي حقه القديم الذي أكله والدهما.

- عارف يا إبراهيم.. والمصحف لولا خايف على أخويا وعاوزه يخرج بأي تمن كنت ضربته بالجزمة لما جاب سيرة بابا الله يرحمه.

- معلش يا محمد الله يكون في عونك.. نفسي أعملك حاجة بس مش عارف أعمل إيه.

- كفاية اهتمامك واني مشيلك شغل القسم كله لوحدك.. سلام دلوقتي ولو فيه جديد هكلمك.

أغلق معه لحظة دخول سامح النائب الجونيور عليه سائلاً اياه عن محمد، أجابه إبراهيم بأنه لا جديد دون أن يدخله في تفاصيل الأحداث تردد الرجل قليلاً ثم قال لإبراهيم:

- أنا عندي اقتراح لحضرتك لو تسمعه.

- قول .

كان الاقتراح غريبًا في بساطته، مهَّد له بقوله إن الحديد لا يفله إلا الحديد وأن الاحتجاجات والنشاط على النت أو حتى اللجوء للقانون لن يحل المشكلة.

- اومال إيه الحل يا ابو المفهومية.

- الدكتور حاتم.

- ماله؟

اقترح سامح عليه أن يلجأ لطلب وساطة شقيق الدكتور حاتم والذي يحتل منصبًا كبيرًا في أكبر جهة أمنية في مصر، مجرد مكالمة تليفونية منه تحل تلك القصة برمتها. هز إبراهيم رأسه مؤيدًا فقانون السلطة هو من يحكم اللعبة كلها ولكن لا أحد يقدم خدمة بالمجان في هذا البلد الموضوع كله قائم على تبادل المنافع. أكمل سامح:

- دكتور حاتم جدع وبيخدم وممكن يطلب من أخوه الخدمة دي عشان نايب عنده.. سهل أوي حتى يقنعه إن حركة زي دي هتكبره في القسم عندنا وتديله برستيج قدام الأساتذة.

- بس دكتور حاتم مبيفكرش كده.

- أنا عارف أنا قصدي إنه يستخدم الحجة دي لإقناع أخوه.

أدار إبراهيم الفكرة في رأسه كانت فكرة جيدة لا بأس بها، يتبقى له فقط كيف يطلب من حاتم مثل هذا الطلب. هناك فرصة طيبة اليوم لاخبار

حاتم بذلك فهو المدرس المساعد النوبتجي وسيمر عليهم بعد ساعة على الأكثر لمتابعة الحالات.. إذن لننتظر ونرى.

كان إبراهيم ومحمد كالديوك في القسم لا يكفان عن النقار ويريد كل منها أن يثبت دومًا أنه الأفضل ويأخذ الأسبقية في دخول الجراحات وخاصة المتقدمة منها أو التي تكون بمصاحبة أساتذة جيدين في تعليم الجراحات كأمجد وعبدالله. يتنافسان دومًا على إظهار اهتمامها المفرط بمرضى الحروق لإرضاء د. صلاح لوضعه الهام فهو المسؤول عن كل ما يتعلق بالنواب لكن هذا التنافس لا يمنع أنهما يهتمان لبعضهما ويقف كل منهما في ظهر الآخر.

فتح إبراهيم هاتفه ودخل على الفيس بوك ليقتل الوقت، تهللت أساريره حين رأى من علا تعليقًا يدل على إعجابها بما وضعه على صفحته. فكر قليلاً ثم اقتبس أبياتًا يحبها لسامي جبريل وكتبها على صفحته:

" كم كنت أود

لو أعطيك مفاتيح كنوز سليمان

كم كنت أردت

أن أجعل أجلك هذا الشعر

أحلى بستان

لكنى ينقصني نهر وسهول

ينقصني بعض الحبات

لو كنت أرى

لتركت قليلاً من قلبي للعمر الآت

و قليل حنان"

انتظر ليرى إعجابًا لها أو تعليقًا وصدره يتلوى حول ضربات قلبه المضطربه لكنه لم يجد ما يعزيه حتى وجد حاتم واقفًا فوق رأسه.

- انت مش هتبطل يابني السهتنه دي.. شوف جنايرك يللا وتمريضك عشان نمُر.

- أمرك يا بيه بس فيه موضوع عاوز أكلم حضرتك فيه الأول.

حكى له عن ما حدث لشقيق محمد وعن الحوار الذي دار بينهما منذ قليل وطلب منه أن يحدث شقيقه الأكبر ليرفع الظلم الواقع على تلك العائلة. نظر إليه حاتم مليا ثم قال:

- الله يخرب بيوتكو ايه وجع الدماغ ده على المسا.. شوف حد من العمال يعملنا شاي الأول خلينا نحاول نظبط دخلة ندخل بيها على الراجل.

ابتهج إبراهيم بكلامه ونادى على العامل لإحضار شاي له وجلس ينظر إليه مترقبًا فقال له حاتم:

-انت هتقعد متنحلي كده.. روح اشغل نفسك بأي حاجة خليني أعرف أتكلم.

خرج إبراهيم وطلب من الممرضة النوباتجية التحضير للمرور على المرضى ووقف يتحدث مع نائبيه الأصغر في أمور العمل وسرق نظرة سريعة على هاتفه يرتجي بها أي لمسة (افتراضية) من علا.

نادى حاتم عليه قائلاً:

- كلم صاحبك اطلب منه بيانات أخوه ولو يعرف اسم الظابط اللي حاجزه.

هاتف إبراهيم زميله سريعًا وأخذ منه اسم أخيه بالكامل واسم قريب الحاج إسماعيل بشكل تقريبي ثم ذهب جريًا إلى المكتب ليخبر حاتم بالبيانات بعد برهة قال له حاتم:

- خلاص أخوه هيبقى في البيت بعد أقل من ساعة واللي كان حجزه ده هيتظبط.

- طب يا باشا والشرطة اللي سايبه البلطجية مسيطرين على المحلات مش هيخليهم يتحركوا.

- يا ابني كل حاجة هتتحل.. انت بتتعامل مع أقوى جهاز أمنى في العالم.

ثم استطرد قائلًا:

-صاحبك اللي غبي مكلمنيش ليه من زمان.

- يا بيه ما هو ماجاش في بالنا إلا لما اخوه اتاخد، إنما الأول كان صعب يكلمك يشتكيلك من بلطجية وكلام فاضي.

- لو قال من يومها كانت اتحلت بتليفون زي ده.. يللا كل تأخيرة وفيها خيرة.

تركه إبراهيم وهو فرِح وكلم محمد ليبشره بالأمر وقبل أن يبدأ المرور على المرضى نظر لهاتفه للمرة الأخير وملأت وجهه البشاشة وهو يرى تعليق علا على الأبيات التي اقتبسها للتو.

* * *

- 32 -

- شد يا محمد قوي على العقدة دي قبل ما ترجع تخيط العضلات في اتجاه عكسي.

كان محمد في هذه اللحظة يقوم بإصلاح عضلات البطن لسيدة في الثلاثينات من عمرها وهي خطوة من خطوات عملية تجميل لبطنها التي ترهلت بعد إنجابها أربعة أطفال. يقوم بإجراء هذه الجراحة بمساعدة حاتم. يبدأ أولاً بشفط الدهون من الخصر وأعلى البطن ثم إصلاح العضلات وبعد ذلك يستأصل الجلد والدهون الزائدة.

- كده كويس.. كمل بقه للآخر.

- حاضر يا بيه.. أنا مش عارف أشكر حضرتك ازاي على اللي عملته معايا يا دكتور حاتم.

- يا ابني هي أغنية ما انت بقالك شهر بتشكرني.. أهم حاجة عندي زي ما قلتلك انك متعرّفش حد من الأساتذة مش ناقصين حوارات.

- لا والله أنا المرة دي قصدي على انك خلتني اشتغل الحالة دي.

- طب ركز يا لمض في اللي في إيدك.. العيانه دي لو بطنها مطلعتش زي الكتاب ما بيقول هعلقك على باب المستشفى.

- عادي يا بيه هيقولوا شغل نواب.

- لا يا خفيف.. هيقولوا حاتم اللي عمل بطن العيانة وحشة كده مينفعش نديله دكتوراه.

أكمل محمد عمله بحماس تحت توجيه حاتم ويساعده النائب الأصغر. كان في قمة تألقه وصفائه الذهني بعد أن انزاحت الغمة التي كان يعيش في ظلها. مشهد فرحة أمه ودموعها وهي تحتضن أخاه بعد عودته يتكرر في ذهنه مرة بعد مرة. عاد أخوه ولم يكن به آثار ضرب أو تعذيب كما توقع.. أخبرهم عليٌّ انهم لم يضربوه إلا مرات قليلة جدًا لكن الإهانات والشتائم كانت كثيرة ومؤلمة أكثر من الضرب.

كان عليٌّ سعيدًا جدًا بخروجه من تلك المحنة الموجعة لكنه أيضًا يشعر بمرارة من طريقة خروجه ويشعر بخوف على مستقبله ومستقبل أبنائه الذين يخطط لإنجابهم. أي غدٍ يمكن له أن يحلم به في بلد يسرق فيه ميراثك وتاريخ عائلتك وحريتك ولا تستطيع أن تستردها إلا بالواسطة وواسطة من نوع فاخر.

قديمًا كان يحزن حين يرى أن الواسطة تعطي أولوية في التعيين أو تقلد المناصب أو تمنح تسهيلات في المصالح الحكومية. الآن صارت الواسطة مهمة لكي تمارس أبسط حقوقك في الحياة ولتحمي نفسك ومن تحب. قضت تلك المحنة على كل معنى للأحلام وللمثل العليا في داخله وصار في رأسه خياران فقط إما السفر أو التخطيط من الآن للحصول على نفوذ في هذا البلد بأي طريقة.

نصحه محمد ساعتها بالتروي وألا يفكر في أي تغيير في حياته إلا بعد مرور فترة يستعيد فيها توازنه وقدرته في الحكم على الأمور.

إغلاق الجرح هو الخطوة النهائية في الجراحة التي يقوم بها محمد الآن وقد خرج حاتم وتركه يكملها هو والنائب الجونيور. يعيب تلك الجراحة أن

الجرح فيها طويل جدًا ويحتاج إلى خياطة ثلاث طبقات من الأنسجة وفي أثنائها دخل إبراهيم قائلاً:

- انت يا ابني المفروض تعمل للدكتور حاتم تمثال.. كمان بيخليك تشتغل شد بطن لوحدك.

- طب ما انت الأسبوع اللي فات اشتغلتلك كام حالة متحلمش بيهم.

- على العموم أنا هخلع عشان رايح المركز اللي مكلمنا عليه الدكتور سعيد بتاع الجلدية.

- طيب ظبط المواعيد مع جدولنا هنا.. أنا كده كده كل خميس وجمعة في كفر الشيخ.

تركه إبراهيم وتوجه في طريقه إلى مركز تجميل وليزر مفتتح حديثًا. عندما وصل إلى المركز استقبلته فتاة نحيفة شقراء ترتدي تنورة قصيرة وبلوزة بيضاء عليها اقتادته إلى غرفة يبدو من ديكورها أنها ستكون غرفة الكشف ثم قالت:

- دي العيادة اللي حضرتك هتشوف فيها الحالات.. دكتور سعيد هييجي كمان ساعتين بس مدام دعاء مشرفة المركز هتيجي دلوقتي تمر مع حضرتك توريك المركز كله.

تركته وأغلقت الباب وفتح هو هاتفه الذكي ينظر فيه كالمعتاد. كان يشعر بما يشبه الاحتقان في قلبه، علا لم تدخل على الفيس بوك منذ أيام وكلما كتب شيئًا كان ينتظر منها تعليقًا أو إعجابًا لا يأتي ويفتح صفحتها ليرى أي شيء قد تكون كتبته وما من جديد. يغلق هاتفه ويزفر ليخرج من صدره كل الهواء المعبأ بالحنين لكن صدره يمتلىء من جديد بهواء أثقل من سابقه.

- اتفضل..

قالها عندما سمع صوت طرق على بابه فتح الباب ودخلت عليه فتاة محجبة قصيرة خمرية ومعها فتاة أطول منها قليلاً قدمت الفتاة الأولى نفسها على أنها دعاء المشرفة على المركز وزميلتها أمل الممرضة المسؤولة عن الليزر:

- انتى تمريض برضه يا مدام دعاء.. ؟

- أه.. هو حضرتك مع دكتور سعيد في مستشفى النصر الجامعي.

- مظبوط هو كان جايب الشغل هنا للدكتور حامد زميلنا بس سافر وانا ودكتور محمد هنبقى بداله.

لاحظ تغيُّر لون وجهها عندما ذكر اسم حامد وهي ترد قائلة:

- ربنا يجيبه بالسلامة.

دفعه الفضول ليسألها:

-هو انتي كنتي تعرفيه؟

- كنت شغاله معاه في مستشفى خاصة وكمان كان معانا هنا قبل ما نفتح.. بس ربنا يوفقه بقى في غربته.

لم تفت على إبراهيم تلك النبرة في كلامها وأحس أنها بالتأكيد مرت على "المؤسسة الحامدية للرعاية النسائية" كما كان يسميها حامد، غير الموضوع منعًا لإحراجها أكثر من ذلك وطلب منها المرور على أقسام المركز وأعجبته الأجهزة الموجودة ووضح له كم كانت ماهرة وتعرف كل شيء عن الأجهزة الموجودة واستخداماتها.

انتهى بهما المطاف إلى غرفة صغيرة أخبرته أنها مخصصة للعمليات البسيطة مثل تجميل الجروح أو استئصال زوائد جلدية.. إلخ. لفتت

نظره الأرفف التي ارتصت عليها الخيوط الجراحية ولدهشته كان فيها جميع أنواع الخيوط.

- ده انتوا جايبين كل مقاسات الخيوط حتى السبعة زيرو.

- طبعًا يا دكتور عشان تخيط الجروح وما تسيبش أثر.

ابتسم ساخرًا فهو يعلم أن أي جرح سيترك أثرًا مهما كانت دقة الخيط الذي ستصلحه به حتى مقاس الـ(سبعة زيرو)، وحتى إذا كانت محاولتك باستخدامه ستنجح في خياطة جرح بلا ندوب قبيحة فستبقى ذكراه وآلامه حاضرة في النفس لا تزول.

- أنا آسفة اني نسيت اشوف حضرتك نشرب إيه.

- مش ضرورى والله.

- ما يصحش يا دكتور حضرتك بقيت صاحب المكان دلوقتي وأي حاجة تعوزها احنا تحت أمر حضرتك.

دخل هو غرفته وأغلق عليه بابه وذهبت هي وأمل لمكتبها.. قرصتها أمل من ذراعها وهي تقول:

- يا بت امسكي نفسك شوية.. أول ما قال حامد وشك جاب ألوان.

- خلاص يا أمل.. أنا بس افتكرت اني عشّمت نفسي بيه إنما أنا والله ما بحبه ولا بفكر فيه من الناحية دي خالص.

كانت دعاء صادقة في ادعائها فهي لم تكن تحب حامد بالمعنى الحقيقي على الأقل لم يكن مثلما أحبت عادل. كان ما يضايقها هو الطريقة التي تعامل معها بها وهي تحمد الله على أنه أنار لها بصيرتها وكشفه أمامها في الوقت المناسب.

الآن هي وأمل يكرسان كل وقتيهما للمركز بل إنها أصرت أن يقوم مندوبو الشركات التي وردت للمركز أجهزة الليزر والتجميل بعمل دورات تدريبية لهما لتفهم كل كبيرة وصغيرة عن الأجهزة وكيفية عملها.

كان هناك البعض من الأجهزة التي لا يعمل عليها إلا الأطباء بالطبع وهناك أجهزة أخرى كانت تعمل عليها هي وأمل مع شرط وجود طبيب في المركز ومن هنا جاءت فكرتها في التعاقد مع مجموعة من الأطباء ليكون هناك طبيب متواجد في المركز طوال الوقت ووافقها عليها دكتور سعيد شريكها.

صارت حياتها الآن أكثر استقرارًا وراحة في كل شيء وصارت تساعد إخوتها أكثر وأخبرتهم أنها قد وفرت مبلغًا من المال من عملها السابق واقترضت مبلغًا اخر ودخلت بسهم صغير في هذا المركز هي وأمل مع تفرغهما للعمل فيه. كانت كذبة غير محكمة ولكن المال يعمي عين من يأخذه منك فيتقبل أي هراء تقوله عن مصدر هذا المال ولا يتعب نفسه بالتفكير في منطقية كلامك.

رتبت حياتها على أن تكون خاوية من الحب واكتفت بحب أمها وصديقتها والمحيطين بها مؤقتًا على الأقل. وحين تحن أو تفكر في أنها لا يمكن أن تستمر دون رجل في حياتها تعزي نفسها بصديقتها أمل وتستلهم منها الصلابة التي تراها عليها.

تقول لنفسها في آخر الليل حين يرهقها ذلك الخواء الذي تحس به "قعدة الخزانة ولا جوازة الندامة". لن تتنازل ثانية عن كرامتها طلبًا لرضا أي رجل، إن وجدت من يحترمها قبل أن يحبها فأهلا به وإلا فلا. الحب محض احترام ولا يسكن حب امرأة في قلب رجل يرضى لها المهانة.

إبراهيم كان في غرفته يكتب رسالة لعلا يزعم لنفسه أنها ستكون الأخيرة ان لم تجبه وهو يعلم أن عزمه هذا لن يصمد أكثر من ساعة ولن يقاوم، وإن أرسلت إليه رسالة لا تحتوي إلا على وجه مبتسم لرقص فرحًا.

"أعلم يقينًا أن رسالتي لن تجد منك جوابًا ولكني لا زلت أحس أن قلبك معي حتى وإن تحجرت أصابعك وضنت عليَّ بكتابة رد ولو بسيط.. يوجعني دومًا ألا تردي على رسائلي رغم أنك تقرأينها ولكن لا بأس.

كل ما أتمناه أن تكوني هانئة هادئة راضية وألا أكون سببًا إضافيًا يجعلك تكرهين الدنيا وتنظرين إليها بحسرة. أنا ما زلت لك لم تكوني صفحة في دفتري أو امرأة عبرت مسار حياتي في غفلة من الزمن.

عزيت نفسي ذات مرة بمقولة تؤكد أنني يجب أن أترك ذكراك تمضي في هدوء وأن أشكر قدري أن أهداني معك تلك الأيام القليلة المعبأة بذكريات رائعة. راجعت نفسي ووجدتنى غير مقتنع بحرف واحد؛ لقد خُلِقت لي من أجلى فقط حتى وإن مررت بمحطة أخرى في الطريق فأنا مستقرك ومستودعك وأنا من ستستريحين على صدره في النهاية حتى لو أنكرت أنت تلك الحقيقة .

ستسافرين وسأنتظر عودتك أو سأسافر خلفك إن سنحت لي الظروف فقط كوني متأكدة أني سأفعل المستحيل لأكون معك.. حبنا بدأ افتراضيًا حقًا لكنه صار واقعًا حين لمست يديك لأول مرة حين كنا في محطة المترو أتحجج بأني أفاديك من الزحام ووأحسست دفء يديك وضمتها على كفي ومهما ابتعدنا سنعود.

(أنت النعيم لقلبي والعذاب له.. فما أمرك في قلبي وأحلاك)

أطلت عليك في رسالتي لكن ملخص كلامي هو جملة صغيرة واحدة.. أنت لي".

أنهى رسالته وأغلق هاتفه ثم فتح كتابًا ليذاكر فيه فقد اقترب موعد امتحانه النهائي للماجستير ذلك الامتحان البغيض الذي يأتي بعد مناقشة الرسالة والذي بسببه يبذل مجهودًا كبيرًا لإقناع أهله وزملائه من غير الأطباء بأن مناقشة رسالة الماجستير لا تعني حصوله على الماجستير، كان صديقه المقرب يسخر من هذا بقوله "يعني رقاصة بس مش بترقص".

انتفض حين سمع صوت التنبيه من هاتفه يدل على رسالة جاءته فتحها بسرعة كالمعتاد وهو بين الشك واليقين أنها من علا.. كانت تلك عادته كلما جاءته رسالة لكن هذه المرة كانت الرسالة منها فعلاً، ردت عليه قائلة:

- بجد يا إبراهيم أنا آسفه عمري ما قصدت أجرحك بس كنت تعبانة أوي في مصر وأول ما استقريت هنا قلت لازم أكلمك، أنا عمري ما هلاقي حد يحبني كده وعمري ما هحب غيرك.

-أخيرًا.. أنا كنت خلاص داخل العناية المركزة.

- بعد الشر عليك بس عشان خاطري متسبقش الأحداث ومتاخدش وعود على نفسك ممكن تخليك تندم بعد كده انك عرفتني.

- أنا أدّ كلامي والله.

- والله عارفة بس أرجوك خلينا نتكلم عادي من غير خطط ومن غير ما نقلّب في اللي فات لحد ما نشوف بكره شايلنا ايه.. انت استحملتني كتير معلش استحملني كمان شوية.

تنهد في ارتياح واتسعت ابتسامته وهو يغلق هاتفه؛ وهو يحدِّث نفسه أن الدنيا قد تعطينا خيطًا شديد الدقة لنصلح به أعمق جروحنا.

* * *

- 33 -

- فوق الشوك مشّاني زماني قالي تعالى للMD.

- والله يا دكتور حامد أنا مش عارف إيه اللي رجعك للغلب ده.

- خلاص يا ابوحميد شيل الألقاب بقه بقينا زملاء وهناقش بروتوكول رسايل الدكتوراه في يوم واحد.

- العفو يا باشا، ده أنا أقطع لسانه لو قال يا حامد حاف.. هتفضل طول عمرك السنيور برضه.

كان هذا الحوار يدور بين حامد ومحمد وابراهيم وهما في انتظار اجتماع أساتذة جراحة التجميل الذين أتوا من عدة جامعات مصرية لتقييم بروتوكولات (أو مشروعات بحث) لرسائل الدكتوراة المقدمة من الثلاثة.

بعد ثمانية أشهر من العمل بالخليج يعود حامد إلى مصر في زيارة مدتها يومان لتقديم البروتوكول الذي أعده بالاتفاق مع الأساتذة المشرفين عليه وقد أدى تأخره عامًا كاملاً إلى انضمامه إلى زميليه الأصغر منه لتقديم البروتوكول معهما في ذات اليوم.

كلمات حامد عن الشوك كانت تلخص المشوار الذي سيبدأه اليوم. مشوار ال MD أو دكتوراه الطب في مصر والتي تعتبر بلا منازع أعقد الشهادات وأصعبها في العالم يبدأها الطبيب بتقديم مشروع البحث أو بروتوكول رسالة الدكتوراه التي يمضي فيها على الأقل ثلاث سنوات. بعد ذلك أو بالتوازي معه (حسب الجامعة) يدخل الطبيب إلى دوامة

امتحانات لا تحكمها أي قواعد اللهم إلا رغبة القسم في "منح" الدكتوراه للطبيب من عدمه وكلمة "منح" هنا مقصودة بمعناها الحرفي، فالدكتوراة غالبًا ما تعتبر منحة للطبيب لا حقًّا مكتسبًا.

أرسل رئيس القسم يطلبهم في مكتبه فذهبوا إليه مسرعين، أشار إليهم بالجلوس قائلاً:

- عاوزكم تبقوا واثقين من نفسكم وانتوا بتقدموا البروتوكولات انتوا عارفين ان رأي الأساتذة اللي حاضرين النهاردة رأي استرشادي للمشرفين عليكم وكمان عشان الأساتذة من الجامعات التانية يشوفوا مجهودكم.

ردَّ حامد عليه قائلاً:

- إن شاء الله حضرتك هتبقى راضي عن مستوانا.

- طبعًا يا حامد انت عارف انه مش بإيدينا إن زمايلك الأصغر منك هيقدموا البروتوكول معاك في نفس الدور انت اللي اخترت تسافر قبل ما تخلص.

- مفيش مشكلة يا بيه أنا عارف ان لازم حاجة تيجي على حساب حاجة.

قالها ومازال في قلبه بعض ضيق لا يستطيع أن يحجبه. هذه هي تبعات قراره واستعجاله في السفر وهو لا يزال يرى أنه كان محقًا في قرارة فالتأخير في الحصول على الدكتوراه عامًا لا يوازي ما كان يتعرض له في مصر من التنقل يوميًا من مستشفى لمستوصف لعيادة إلى آخره ليجمع ما يسد الرمق. الآن هو يعمل عدد ساعات ثابتة يتقاضى عليها أضعاف أضعاف ما كان يتقاضاه في مصر ويجد وقتًا للاهتمام بعائلته التي كان يراها في مصر بالكاد.

أكمل رئيس القسم كلامه قائلاً:

- وانت يا إبراهيم جهزت الفيديو عشان التصوير؟

- كل حاجة جاهزة حضرتك وقلت للمشرف الخارجي بس هو طلب مني كمان تقرير مكتوب.

- مش مشكلة انت عارف الجماعة الخواجات دول بيحبوا كل حاجة تبقى مسجلة ورقيًا.. المهم استعدوا كده واشربوا حاجة كلها نُص ساعة وتبدأوا.

بعدما خرجوا من مكتب رئيس تساءل حامد عن موضوع المشرف الأجنبي على إبراهيم فتطوع محمد بالشرح له عن رسالة إبراهيم وأنه استطاع الحصول على بعثة للسفر إلى كندا للحصول على رسالة الدكتوراه.

- لعبها صح يا دكتور حامد.. طول عمره سهن زي ما كنت بتقوله.

ردَّ إبراهيم عليه قائلاً:

- ما أنا قلتلك تعالى قدِّم وانت اللي مرضيتش وقُلت ان الإشراف المشترك ده هيأخَّرك سنة والا سنتين.

- الصراحة أه وبعدين يا ابني أنا ظروفي العائلية ما تساعدنيش إنما انت بطولك.

هنا تدخل حامد في الكلام سائلاً:

- هو انت لسه ما خطبتش يا إبراهيم؟

- يا باشا بقولك سهن.. ما هي البعثة دي فيها جوازة بالمرة.

نظر له إبراهيم بغيظ فوضع يده على فمه بحركة مسرحية هنا قابلهم خليل دفعة حامد اندفع ليسلم عليه في حرارة قائلاً:

- مش هتبطل الندالة اللي فيك دي بقى.. يعني ما اشوفكش غير آخر واحد.

- معلش بقى تتعوض انت عارف اني جاي يومين اتنين وماشي.. عامل إيه مع العالم اللي في القسم ده؟

- والله يا راجل أيام سوده قلت أول ما هبقى مدرس مساعد الهم هيقل أتاريه بيبتدي.. ساعات بفكر اسيب الجامعة واسافرلك.

- محدش مرتاح يا صاحبي على القليل انت ليك بيتك إنما أخوك في الشارع.

خرجا معًا خارج المكتب وتركا محمد وإبراهيم الذي نهره قائلاً:

- هتفضل طول عمرك كده أنا غلطان إني حكيتلك.

اعتذر له محمد بأن الكلمة فلتت منه رغمًا عنه. إبراهيم لم يكن صديقًا مقربًا لمحمد لدرجة أن يحكي له عن دقائق حياته لولا الظروف. أحيانًا تحت وطأة الحنين والتناقضات التي تملأنا حين نحاول أن نفسر مشاعرنا أو مشاعر من نحب نجد أنفسنا نبحث عن السلوى في قص حكايتنا على أي شخص يتصادف وجوده بالقرب منا؛ قد نغير في التفاصيل أو نخبئ بعضها لكننا نسهب في الحديث عن عذاباتنا وأسباب أرقنا ونطلب منهم أحيانًا أن يعطونا قوة نتغلب بها على ضعفنا بلا جدوى.

كانت قصتهما بين الكر والفر شهورًا عدة تقترب منه يومًا وتبتعد عنه أيامًا. تجيب رسائله مرة وتهمله مرات وهو في كل ذلك يتحملها بصبر ويعمل جاهدا للحصول على بعثة الدكتوراة ليكون معها في كندا.

الحصول على البعثة في حد ذاته لم يكن صعبًا فلم يعد الكثير من الأطباء يتقدمون لبعثات الدكتوراه كما في السابق. الكل يريد الحصول

على الدكتوراه بأسرع وقت ثم السفر لجني أرباحها من العمل في دول الخليج.

في مصر بالطبع لا يصنع التعليم في الخارج أو الداخل فارقًا فيمكنك أن تغرق الشوارع بيافطات تضع لنفسك فيها آلاف الألقاب والزمالات بل وتخرج على المشاهدين في التلفاز مدعيًا عضوية الجمعية الأوربية أو الدولية لأي شيء وسيصدقك الناس ويتهافتون على عيادتك و"كله بتمنه".

لم يستقر الأمر بينهما إلا منذ شهرين فقط حين غلبت هي حبه على مخاوفها وبدأت تخطط هي الأخرى لمستقبل يجمعها به في النور ويحفظ لها أولادها في الوقت ذاته. دفعها إلى ذلك ما رأته منه فقد كان من السهل عليه أن يتحجج بتجنبها المتكرر له ويتركها هو الآخر ويبدأ حياته من جديد لكنه أبى إلا أن يظهر لها كم يحبها يومًا بعد يوم ورسالة تلو الأخرى.

- يللا يا دكاترة مستنيينكم في القاعة.

كانت السكرتيرة تستدعيهم لغرفة المحاضرات المصغرة الموجودة بالقسم. قاموا بالتوجه للغرفة وإبراهيم يكتب لعلا.

- يا حبيبتي نامي الوقت عندك اتأخر أوي وأنا كده كده هسجل الميتنج فيديو.

- لا انت هتدخل دلوقتي وتشغل السكايب زي ما اتفقنا.. عاوزة أبقى معاك ثانية بثانية.

- براحتك.

فتح السكايب ودخل القاعة وأعطى هاتفه لنائب كان قد اتفق معه على تولي مهمة البث. كان قلقًا بعض الشيء من أن يقدم أحد الأساتذة

توصيات تتعارض مع أفكار مشرفة الكندي خاصة وأن موضوع بحثه مثير للجدل في القسم عنده.

ساد القاعة سكون تام وقام رئيس القسم بإلقاء تقديم عنهم وعن اجتهادهم كنواب في القسم وأنهم يعتبرون جميعًا في نظره أبناء لهذا القسم حتى بعد انتهاء فترة نيابتهم بعد ذلك بدأت عروضهم التقديمية ومرَّ عرضا محمد وحامد بالقليل من التوصيات البسيطة.

بعد انتهاء عرض إبراهيم بدأ الجدل والشد والجذب بدأه د. هاني بادعاء أن البحث لا يقوم على أساس علمي، قاطعه د. أمجد بالاعتراض الشديد على صيغته في النقد واستمر الجدال قليلاً إلى أن تدخل واحد من الأساتذة الكبار قائلاً:

- مع احترامي لكل آرائكم جميعا فأنا شايف ناس هنا بتنتقد مشروع البحث بالمزاج يعني اللي بيقول مفيش أساس علمي للبحث ده راجل بيتكلم على القهوة مش في محراب علم.

عم المكان صمت كامل واحتقن وجه هاني لكنه لم يجرؤ على الرد فقد كان المتحدث يحظى باحترام وتبجيل كل جرَّاحي التجميل في مصر. استطرد الرجل قائلاً:

- الموضوع اللي الطالب بيتكلم فيه ده خطوة للمستقبل والولد ده عامل بروتوكول هايل واعتقد انه أثار إعجاب المشرف الكندي اللي معاه.

أمَّن رئيس القسم على كلامه وهو أحد المشرفين على البحث في الوقت ذاته فأردف قائلاً:

- أنا شايف اننا منلمسش البروتوكول ده واننا نتمنى له التوفيق مش شرط يعني اننا نغير في اللي هو عامله عشان نثبت اننا جهابذه واننا بنعمل تعديلات.

أمَّن باقي الحاضرين على كلامه وانتهت الجلسة العلمية على خير. تنفس إبراهيم الصعداء وخطف هاتفه من النائب وخرج به من القاعة وتوجه إلى غرفة النواب وأغلقها عليه. كانت علا لا تزال على الهاتف معه.

- مش قلتلك يا حبيبي أنا كنت متأكدة انك هتبهرهم.. بس الله يخرب بيته هانى سيب مفاصلي.

- تصدقي انتي هتخليني احب هانى من طريقة نطقك لاسمه.

- بطل تهريج بقى.

- والله بتكلم بجد أنا حاسس اني النهارده قلبى مليان حب وسعادة مخلييني احب الناس كلها.

- طب أنا هغير من مين وللا مين كده.

- انتي متغيريش روحي نااامي.

- حاضر بس متزوقّش.

أغلق معها ونظر لهاتفه بابتسامة عريضة ثم فتح باب الغرفة ومعه فتحَ مرحلة جديدة في حياته يملؤها الترقب قدر ما يملؤها الأمل.

تمَّت بحمدِ الله

* * *

عزيزي القارىء

تقوم عملية القراءة على الوعي بالذات واللغة، ولا يتم ذلك دون ثقافة (قرائية) تحاول أن تساهم دار ليان للنشر فيها، في سبيل التقريب بين المؤلف والقارئ. لذلك لست متلقيًا للإبداع الأدبي والفني فحسب، ولا قارئًا لرموز لغوية ذات أبعاد إنسانية فقط، بل أنت (حلقة الوصل).

حلقة تكتمل من خلال قراءة الإبداع؛ لأن الإبداع-في نظرنا- هو المشاركة الفعلية والسامية بين كاتب يبحث عن الحياة من خلال الأحرف، وقارئ مطّلع ومتعدد الرؤى يهفو إلى فنيَّات اللغة ورسالتها الإنسانية. مع إيماننا بأن الكاتب الجيد هو قارئٌ نهم، والقارئ النهم مشروع كاتب جيد في المستقبل القريب، وهذا دورنا وننتظرك عزيزي القارئ لتحول رؤيتك إلى رؤية بين ضفتي كتاب من إنتاج ليان للنشر والتوزيع.

تنطلق رسالتنا إذًا، من خطوة المشاركة بين طرفي الإبداع وجناحيه: المؤلف وأنت.

ولا تكتمل عزيزي القارىء العمليةالإبداعية والقراءة الصحيحة للإنتاج الفكري-بأبعاده الفنية- دون طيفك كقارىء وأنفاسك كناقد وبحثك عن الإبداع كذوَّاق. ولسنا إلا خطوة الرقي الحضاري الأولى، التي تبحث عن الارتقاء بالإنسان العربي وفكره، وتطوير ملكات المبدع والقارئ عبر

تشجيع النصوص الرصينة، ولغتها السليمة الموروثة عن الأجداد والحاملة لأسمى الرسائل الإنسانية.

لنا، وإن فشلنا فعذرنا أننا من أنصار عشق البدايات ودعم أصحاب المواهب الشابة في الخطو نحو النشر في أولى أرهاصتهم الأدبية، ورؤيتنا أن دورنا الرئيسي ينصب على التمهيد المدفعي للكاتب في خطواته الأولى وإقامة العديد من الجسور الصحفية والأدبية والتعريفية بين الكاتب الشاب والوسط الثقافي والقراء ككل.

حلمنا الكبير هو الانتشار الكبير للمواهب الشابة في الأدب المصري والعربي، والباب مفتوح للجميع، وعلى من يرغب في النشر معنا مراسلتنا على النحو التالي:

fathy66666666@yahoo.com

layanpub@yahoo.com

layanpub@gmail.com



فتحي المزين: 056 01282288